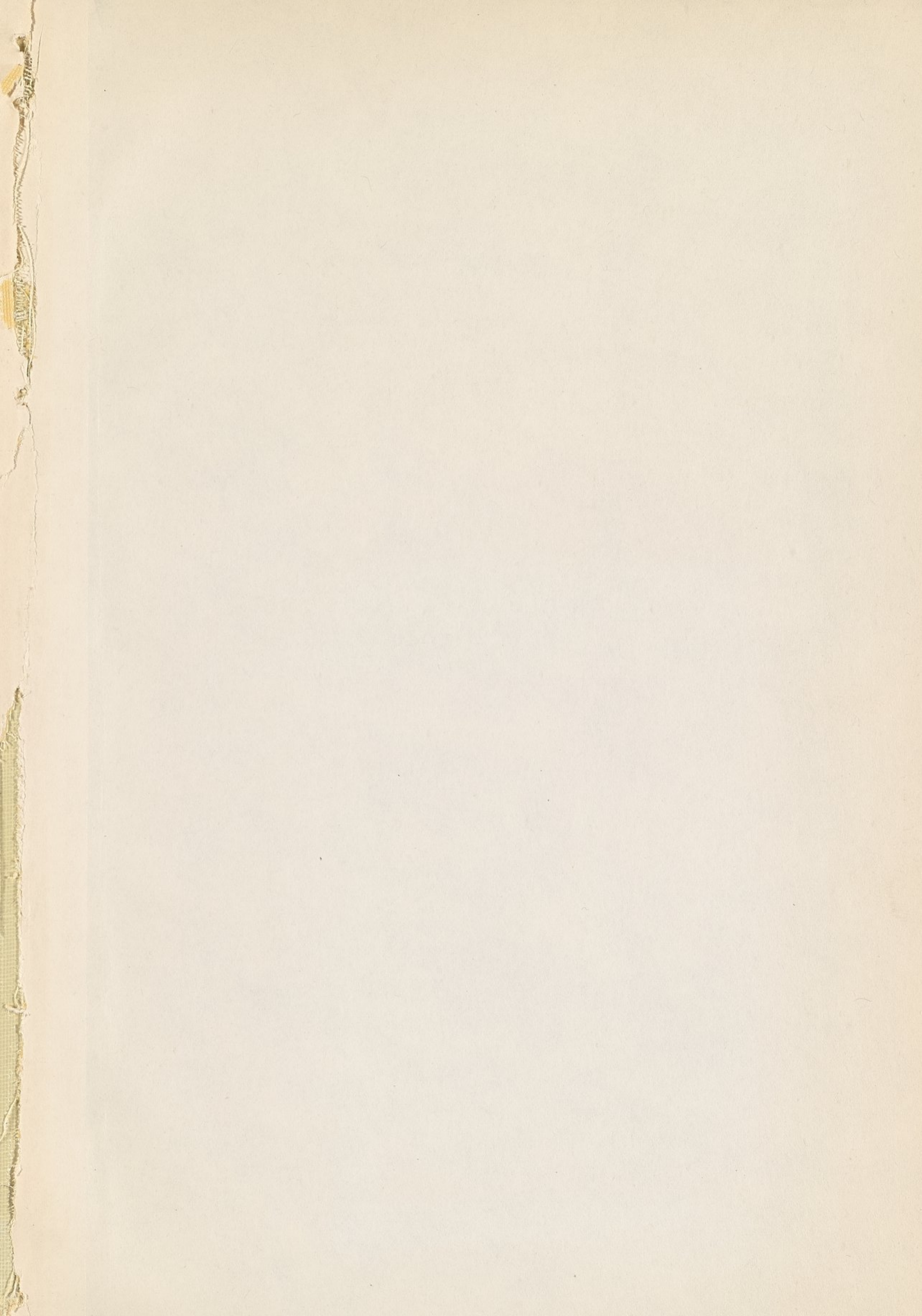
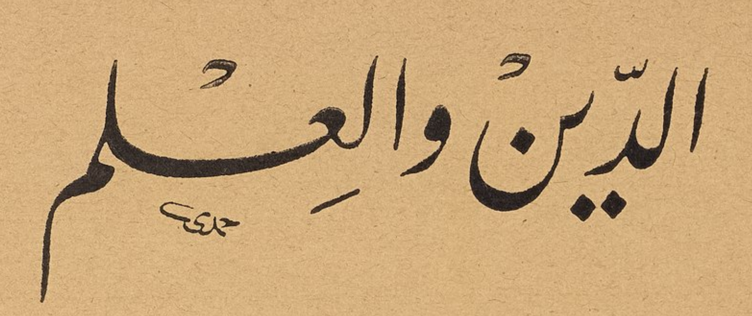




DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE







ألفه بالتركية

المشير احمد عزت باشا

راجعه وشارك فى تصحيحه الدكتور

عبدالوهاب عزام

الوزير المفوض

بالمملكة العربية السعودية

ترجم أكثره إلى العربية

حمزه طاهر

مدرس اللغة التركية

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

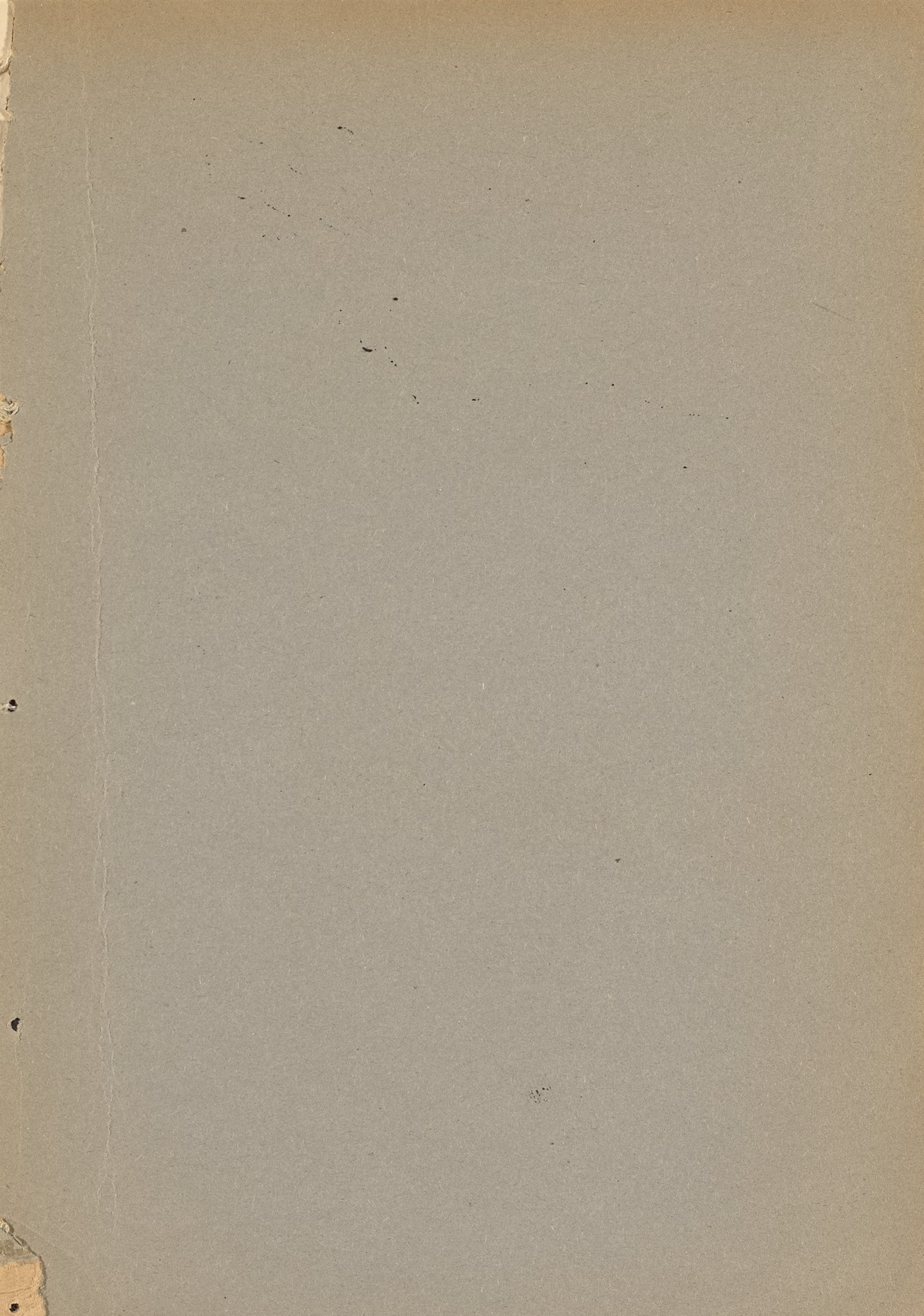
طبع على نفقة حضرة صاحب المقام الرفيع

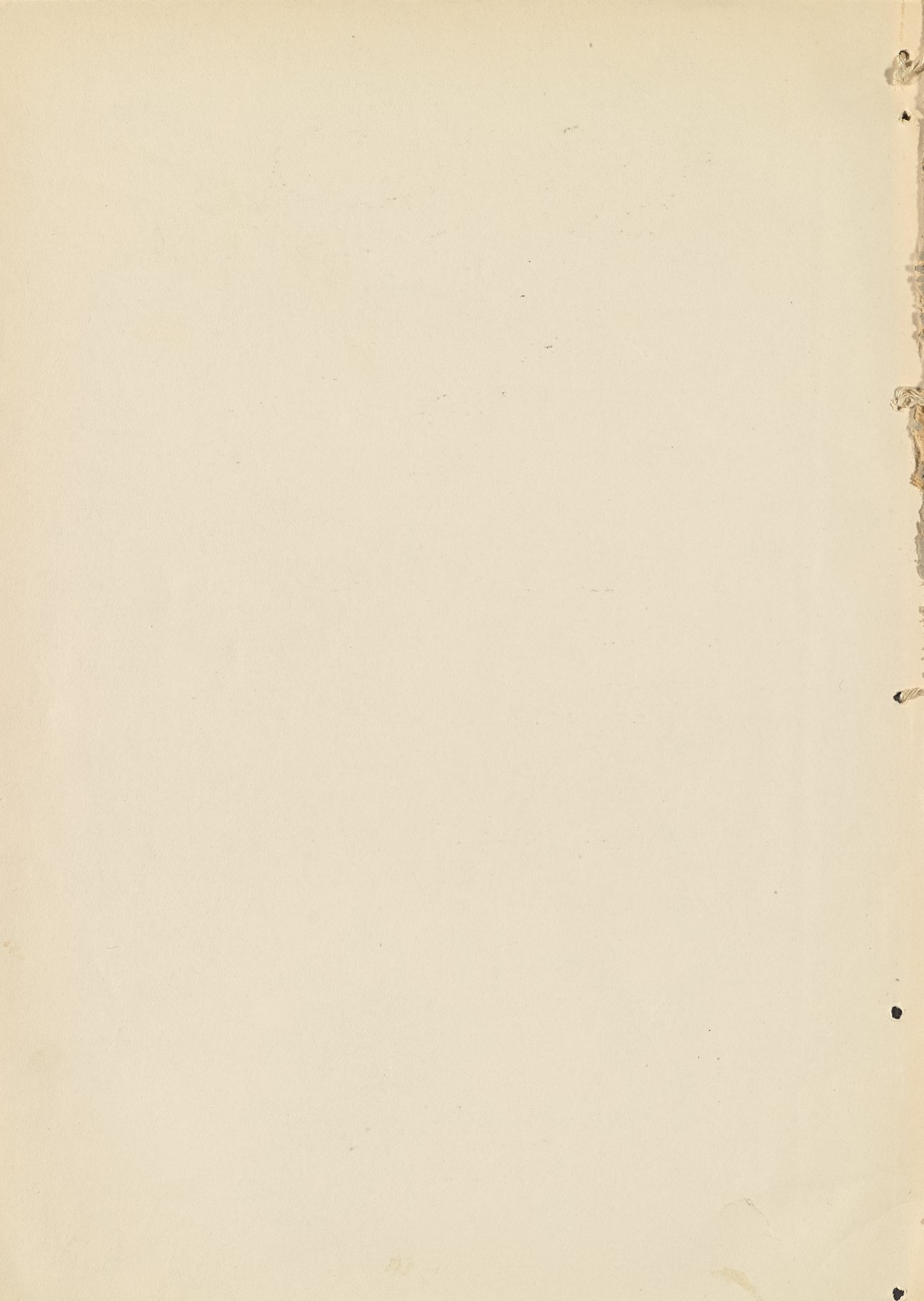
عبدالعزيز عزت باشا

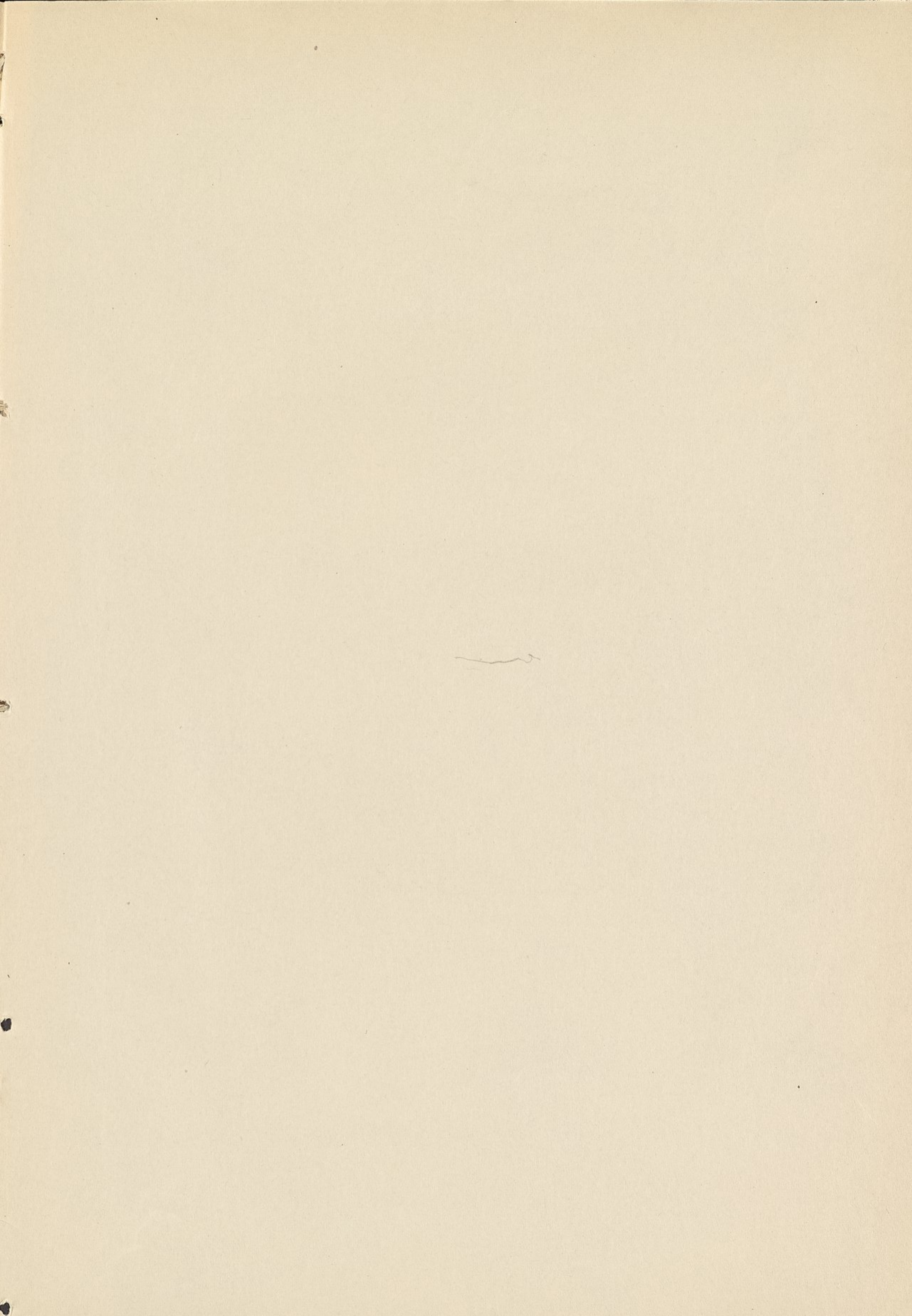
القاهرة

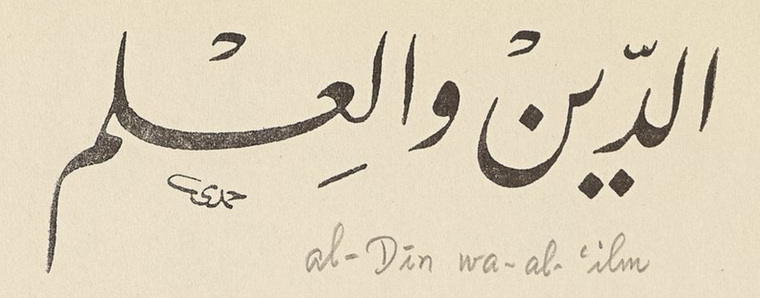
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م









ألفه بالتركية

المشير احمد عزت باشا

راجعه وشارك فى تصحيحه الدكتور

عبد الوهاب عزام

الوزير المفوض

بالمملكة العربية السعودية

ترجم أكثره إلى العربية

حمزه طاهر

مدرس اللغة التركية

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

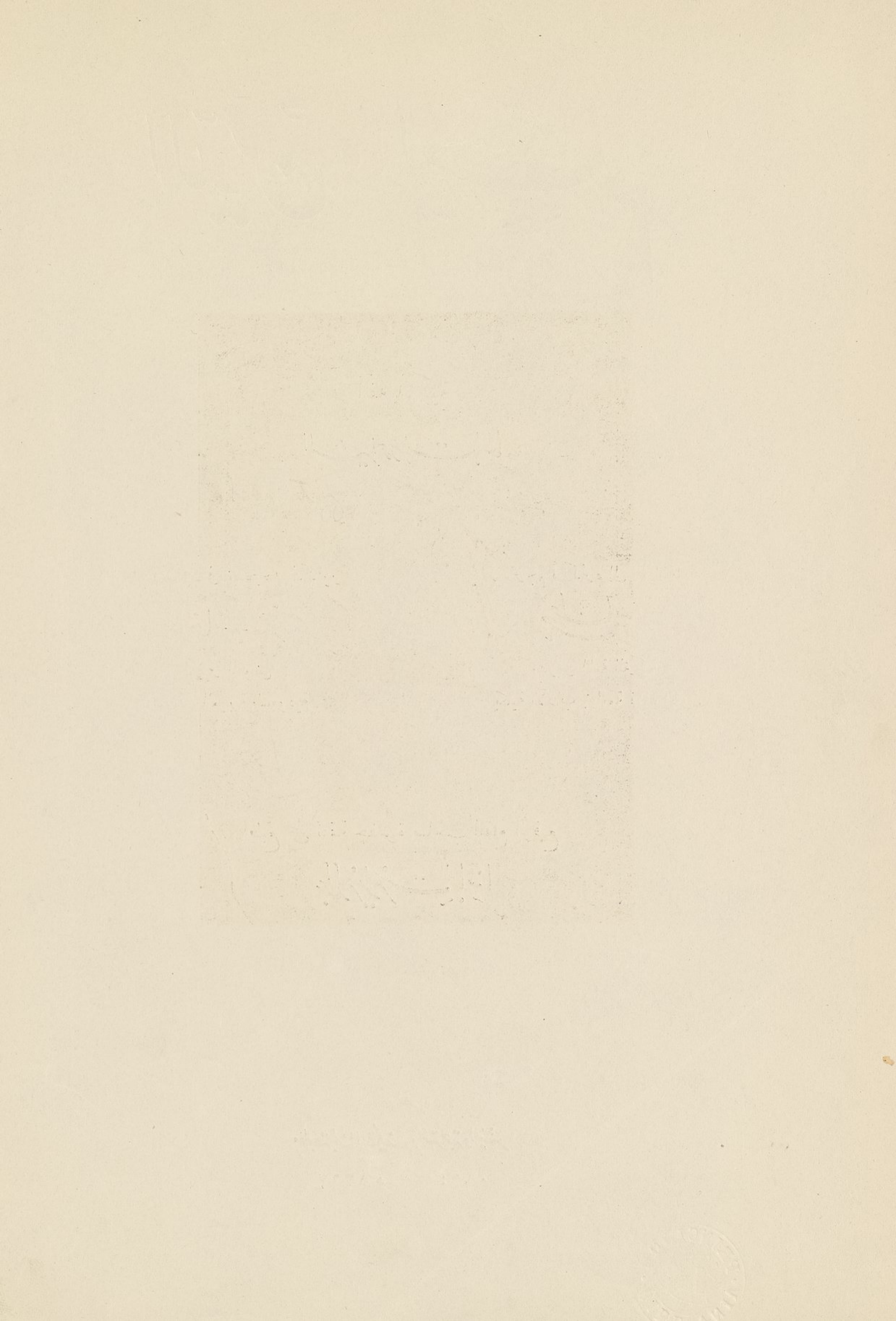
طبع على نفقة حضرة صاحب المقام الرفيع

عبد العزيز عزت باشا

القاهرة

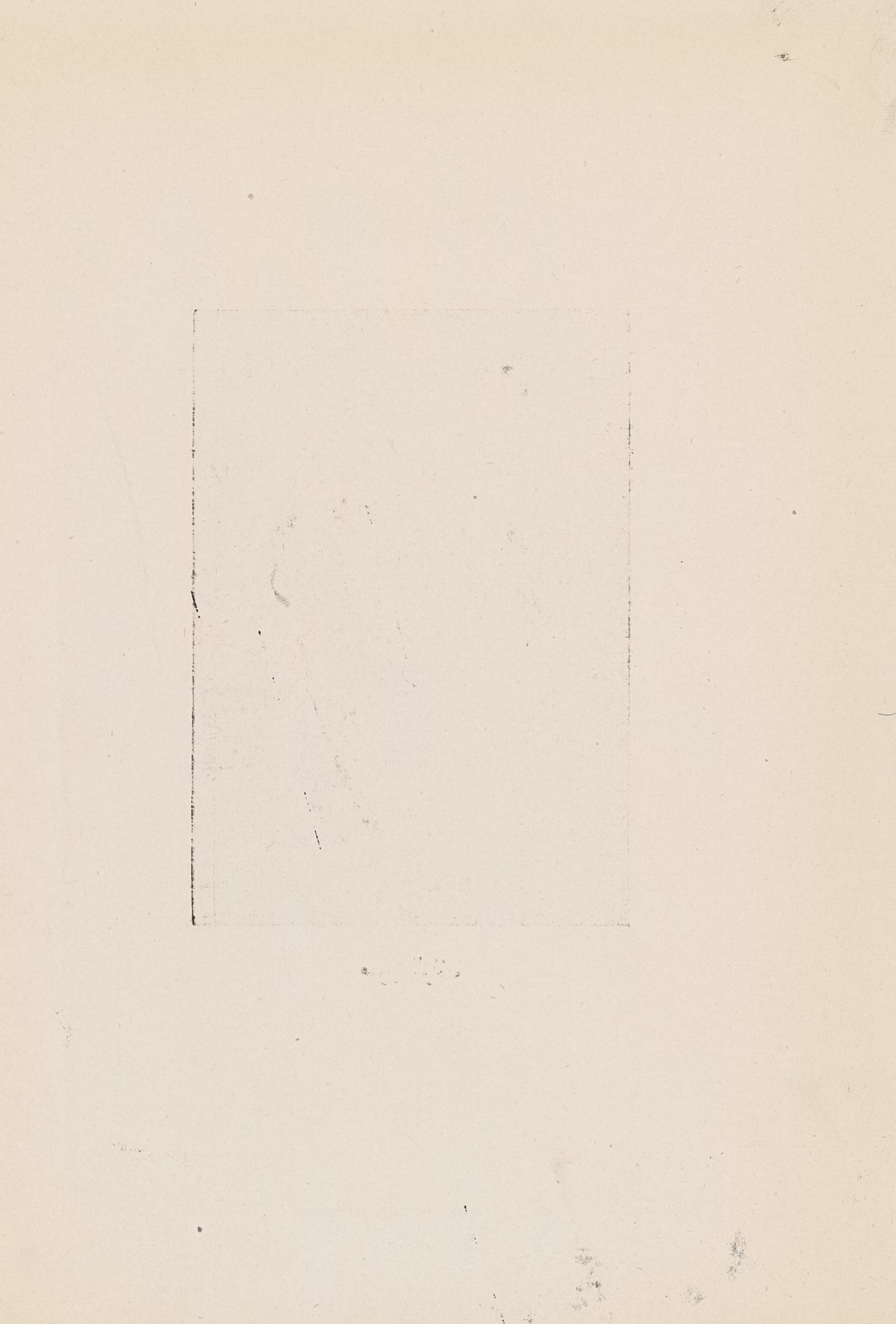
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م





صورة المؤلف



كلمة

تقدير وشكر

كنت أزور صاحب السمو السلطانى الأمير يوسف عز الدين أفندى بقصره بچامليچه ، فتعرفت بالمغفور له القائد العظيم أحمد عزت باشا ، وما لبثنا أن توطدت بيننا أواصر الصداقة والمودة .

كان رحمه الله ذا عقيدة دينية سليمة أوحت إليه وضع مؤلَّف عن الدين الإسلامى وعقائده . غير أن زوال الخلافة الإسلامية ، حال دون نشره باللغة التركية فى تركيا . فشرع فى تعريبه لنشره فى البلاد الناطقة بالضاد . وما إن أتم ترجمة ثلثه حتى أحسّ أن المنية تدركه ؛ فأوصى السيدة حرمَه بأن تبعث إلىّ بالكتاب ، لأقوم من جانبى بإكمال ترجمته ونشره . فلمّا توفاه الله ، أرسلَت إلىّ السيدة حرمه الكتاب عملاً بوصيته .

وكان لهذه الوصية أثرها فى نفسى . أثر اهتزت له مشاعرى ، وملك علىّ وجدانى ، ميلا إلى تحقيقها ، وحباً فى إشاعة مبادئ الدين الإسلامى القويمة . وفكّرت فيمن أتجه إليه لإكمال ترجمة الكتاب وإعداده للنشر ، فما لبثت أن اتجه تفكيرى إلى العالم الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام بك ، فقد عرفته منذ أن كنت وزيراً مفوضاً فى لندن فلمست فيه كفاية العلم والعرفان . وعرفت له مركزه المرموق بين علماء الإنجليز وغيرهم . فرجوت منه أن يقوم بإكمال ترجمة الكتاب والإشراف على تصحيحه ، وإعداده للنشر . فقام

بذلك ومعه الأستاذان الفاضلان حمزة طاهر مدرس اللغة التركية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، ومصطفى السقا الأستاذ المساعد بهذه الـكلية ، باذلين جهداً صادقا صادفهم فيه التوفيق .

فلئن شكرتهم ما وفَّيتهم حقهم من الشكر ؛ فالله يتولى جزاءهم الجزاء الأوفى .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى النهوض بما تقضى به المبادئ الإسلامية ، لنصبح خليقين بأنا مسلمون .

والله نعم المولى ونعم النصير .

زيوريخ فى أول مايو سنة ١٩٤٨

عبد العزيز عزت

مقـــدمة النشر

هذا كتاب « الدين والعلم » ، ألفّه المشير أحمد عزت باشا أحد قواد الدولة العثمانية وصدورها العظام ، بعد أن عرك الحوادث ، وشهد كثيرا من الغِيَر والعِبَر ، ومارَس السياسة والإدارة والحرب زمنا طويلا .

ويبدو أن هذا الـكتاب خلاصـة تفكير طويل فى حِقْبة مديدة ، ونتيجة تجارب اجتمعت له فيما باشر من الخطوب والأسـفار ، وما شهد من اضطراب فى المعايش والأفكار ، وأنه عزم على نشره حينما تقوّضت الدولة العثمانية ، التى جاهد فى سبيلها مخلصا ، قال :

« قد ذهبت أدراج الرياح أعمالى فى السلك الذى نشأت فيه ، ولم يبق ما أدخره لمشيبى إلا أنيس وجدانى ، أى عقيدتى الدينية . ولما رأيتها حولى تُزَلزل ، هاج قلبى ودفعنى إلى هذا التأليف » . (التعليق رقم ٦) .

أُعِدَّ الـكتاب للنشر وقد تقطّعت أطرافُ الدولة ، واحتل الأعداء دار الخلافة ، وأخذ كلٌّ قوم فى الدولة يعملون للاسـتقلال ، وبالأناضول ثورة على الخليفة ؛ فلم يستطع المؤلف نشره إذ ذاك . وقد عرضه على بعض علماء إستانبول مستطلعا آراءهم فيه ، و بينما يتردَّد بين الإقدام على نشر الـكتاب والإحجام ، تغيَّرت الحال جملة ، فأُلغِيَت الخلافة الإسلامية ، وعُطِّلت المعاهد الدينية ، وحورِب الدين وما يتصل به ، فاستحال أن ينشر المؤلف كتابه باللغة التركية .

لبث ينتظر الفرصة ، و يرتقب انفراج الأزمة ، فطال انتظاره ؛ بل زادت الأزمة شدة ولم تنفرج . فلم يجد من وسيلة إلا ترجمةَ الـكتاب إلى اللغة العربية ، ونشْرَه فى غير تركيا ؛ فشرع يترجمه ، ولـكنه لم يترجِم أكثر من ثلثه ، وترك الـكتاب بين أصل تركى لم يُطبَع ، وترجمة عربية لم تكمُل . وأرسلت السيدة

حرمه الكتاب بناء على وصيته ، إلى صديقه الحميم فى القاهرة ، إلى الرجل العظيم ، المُسْلِم الغيور ، الخيِّر البارِّ ، صاحب المقام الرفيع عبد العزيز عزت باشا . وكان هذا قُبيل الحرب العالمية الأخيرة ؛ فأرسَل صاحب المقام الرفيع الكتاب إلىَّ يرجو إكمال ترجمته ، وتصحيحَه ، وإعدادَه للنشر .

ووجدت الأصل ناقصا ، فأخبرت رفعةَ الباشا ، فأرسل إلى إستانبول للبحث عن بقية الكتاب ، وقامت الحرب ، ولبثنا نرقُب أن تضع أوزارها .

***

ولما عاد رفعة الباشا إلى القاهرة بعد الحرب ، سأل عن الكتاب ، وحثَّ على نشره بأية صورة .

فرأيت أنا والزميل الصديق الأستاذ حمزة طاهر مدرس اللغة التركية فى كلية الآداب من جامعة فؤاد الأول ، أن ننشر الكتاب بما بين أيدينا من أصل وترجمة ، وقد سرَّنا أنَّا وجدنا ما نقص من الأصل التركى مترجما كله إلى العربية .

***

بدأنا بتصحيح القسم المترجَم ؛ ثم شغلتنى شواغل ، فوقع عبء العمل كله على الأخ حمزة ، فاستقلّ بترجمة ثلثى الكتاب إلى العربية .

وأما القسم الذى وجدناه مترجَماً ، فلم يكن عملُنا فيه إلا تصحيحَ الترجمة والعبارة العربية . وهو من أول الكتاب إلى الصفحة الحادية والسبعين ، وسائر الكتاب من هذه الصفحة إلى الآخر ترجمه الأستاذ حمزة ابتداء .

وقد تفضل الأستاذ مصطفى السقا الأستاذ المساعد بكلية الآداب من جامعة فؤاد ، فقرأ ترجمة الأستاذ حمزة ، وأشرف على طبع الكتاب وتصحيحه ، فاستحق جزيل الثناء والشكر .

***

وقد قسم المؤلف كتابه إلى مقـدمة وأربعة أبواب واستطرادين وفصلين مستقلَّين ، ولم يثبت عناوين فى ثنايا الأبواب والفصلين ، فقسمنا الموضوعات فى كل باب ، وجعلنا لها عناوين ، تيسيرا على القراء .

وللـكتاب حواش كثيرة طويلة ، دقَّق فيها المؤلف فى شرح مسائل من العلوم . وقد آثرنا أن نضعها فى آخر الـكتاب ، لئلا يؤدى طولُ بعضها إلى الإخلال بسياق المتن ، وجعلنا لها أرقاما متتابعة من ١ إلى ٩٩ .

***

ولا ريب أنه كتاب جدير بعناية القراء ، ولا سيما الذين يهمهم الدفاع عن العقيدة الإسـلاميه ، و إقامة حججها على قواعد من العلم الحديث . وهو يُصوِّر لنا حال الناشئة الإسـلامية فى تلك المدة المضطربة التى ألّف فيها الـكتاب ، ويبين آراء رجل من كبار المسلمين فى هذه الحال .

***

و بعدُ ، فنشر هـذا الـكتاب على اضطراب الأحوال ، بعد ما كثرت العوائق ، وحالت الحوائل ، هو حسنة من حسنات حضرة صاحب المقام الرفيع عبد العزيز عزت باشا ، فقد حرص على نشر الـكتاب ، و بقى سنين يجمع أصوله ، ويَحُثُّ على إكمال ترجمته وطبعه ، ثم أنفق عليه ابتغاء مرضاة الله .

جزاه الله عن الوفاء لصديقه ، وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

ربيع الأول سنة ١٣٦٧
يناير سنة ١٩٤٨

عبد الوهاب عزام
وزير مصر المفوض فى المملكة العربية السعودية

ترجمة المؤلف

ولد أحمد عزت سنة ١٨٦٤ بمدينة ناسليج التابعة لولاية مناستر بالروميلى ، من أعمال الدولة العثمانية ، فى أسرة ألبانية كثيرة العدد ، لها سابقة خدمة فى قصور آل عثمان . وتقلَّب أبوه حيدر بك فى مناصب الدولة الإدارية المختلفة ، وكان آخر منصب تولاه متصرفية وان ، بالأناضول الشرقية .

وكان ذكاء أحمد عزت ومتانة خلقه يلفتان نظر أساتذته ومن يتصل بهم مذ كان تلميذا صغيرا . وقطع مراحل التحصيل بتفوق عظيم ، وأتم الدراسة الحربية ، وتخرج ضابطا برتبة ملازم . وكان من العشرة الأولين من صفوة الطلبة فى تلك المدرسة ، على نظام ذلك العهد . ثم التحق بمدرسة أركان الحرب ، ومدتها ثلاث سنوات ، وتخرج منها برتبة يوز باشى أركان حرب سنة ١٨٨٧ . وأمضى سنتين يتمرَّن فى فرقتى المدفعية والمشاة ، وهما غير فرقته (كان فى فرقة الفُرسان) على السنن المتبعة فى خريجى مدرسة أركان الحربية فى زمانه ، ثم رقى إلى رتبة « قول آغاسى » (Adjudant major)

وفى عام ١٨٩٠ بعثته الحكومة التركية إلى ألمانيا لإكمال التحصيل ، فدرس هناك أربعة أعوام ، ثم عاد إلى وطنه سنة ١٨٩٤ . وقد كان فى أثناء تحصيله فى ألمانيا موضع إعجاب كل من يتصل به ، من أصغر رؤسائه إلى الأمبراطور ويلهلم الثانى . وظهر أثر إعجاب هؤلاء الأشخاص فى زمن الحرب العالمية الأولى .

عاد إلى وطنه ، وعمل مدة فى أركان الحربية العامة ، ورُقّى إلى رتبة بكباشى ، ثم أرسل إلى بلغاريا ملحقا عسكريا .

وعُين فى الحرب التركية اليونانية سنة ١٨٩٧ فى أركان الحربية العليا لجيش تساليا ، وفى هذه الحرب أثبت ما كان متصفا به منذ صغره من القدرة والجلد ؛ فقد وضع هذا الضابط الشاب الذى التحق بأركان حربية الجيش بعد ابتداء الحرب ،

الخِطة الحربية لموقعة دوميكة ، وأقنع هيئة أركان الحربية ، فقبلتها بالرغم من معارضات كثيرة . وقد أدت هذه الخطة إلى انتصار الدولة العثمانية فى تلك الموقعة انتصارا أدهش العالم .

ولما انتهت الحرب اليونانية التركية ، عُين فى أركان حربية الجيش الخامس ، الذى كان مركزه الشام ، وكلِّف القيام بأعمال مختلفة ، منها حركة حَوران وإنشاء السكة الحديدية الحجازية ، فقام فيهما بأعمال مهمة .

وفى ٣ ديسمبر من سنة ١٩٠٤ عُين فى قيادة القوات العسكرية للجيش العثمانى الخامس المرابط فى اليمن . وفى ٢ فبراير من تلك السنة عُين قائدا للفرقة الرابعة عشرة النظامية . ثم عُين رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش السابع . وفى ٦ أغسطس من سنة ١٩٠٧ مُنِح رتبة أمير اللواء .

***

بلغ أحمد عزت باشا اليمن حانقا على اليمنيين ، بما سمع من السيئات التى اتُّهِموا بها ، ولكنه شرع يبحث فى أسباب تلك الثورة ، متوسِّلا بكل الوسائل إلى مصالحة الإمام يحيى والزيديين ، ولبث ثلاث سنوات ونصف سنة يقابل علماء الدين وزعماء البلاد ، ويتعرَّف مطالبهم ، ويفاوضُهم فى وسائل إجابة تلك المطالب ، ثم كتب إلى مراجعه العليا بما رأى وما سمع وعرف من أحوال اليمن ، وطلب إصلاحا فى شئون الإدارة والاقتصاد ، وفى أمور اجتماعية ، وكانت خدماته فى اليمن وسيلة لمعرفة هذه البلاد معرفة شاملة ، وأساسا لما قام به من الخدمات الموفَّقة سنة ١٩١٠ .

وعُين فى أغسطس سنة ١٩٠٨ ، عقب الثورة التى انتهت بتثبيت الدستور العثمانى ، رئيسا لأركان الحربية العامة للدولة العثمانية . وكان الاستعداد للدفاع عن الوطن بتنظيم الجيش وتنسيقه ، أولَ ما فكر فيه بعد تقلده هذا المنصب الخطير .

ومن النظم الجديدة التى أدخلها فى الجيش ، خِطة ذات وجوه ثلاثة : زيادة القوة النارية فى الجبهة ، وسوق الجيش ، وزيادة قدرة « مناورة الطابية » ؛ فقد أبدى هذه الفكرة ونفذها بجراءة فائقة .

فقد رأى رؤية عبقرىّ عظيم ، أن تأليف الفرق من لواءين ، واللواء من آلايين والآلاى من خمسة طوابير ، وهو المتبع فى جيوش جميع الدول فى ذلك الوقت ، نظام سقيم غير ملائم للعمل ، وأن جعل المدفعية فِرَقا مستقلة تابعة لأمر الجيش ، خارجة عن الفرقة يجعل قوة النار فى الجبهة ضعيفة . ولم يخضع لنظم الدول الأخرى ، فيتخذها أنموذجا ينسج على منواله ، بل قدم هو أنموذجا لبلاد العالم . فهذا النظام الذى طبقه أحمد عزت باشا ، معتمدا على نفسه وعلى علمه وتجاربه الخاصة ، اتخذته بعد حين جميع الجيوش ، وفيها جيش ألمانيا ، أكبر البلاد العسكرية فى ذلك العهد ، وطبقته (لم يكن الجيش الروسى قد قبل هذا النظام وطبقه بعدُ فى الحرب العالمية الأولى) .

وفى ٢ فبراير سنة ١٩١٠ عُين قائدا عاما للقوات العسكرية باليمن ، على أن يظل رئيسا لأركان الحربية العامة لجيوش الدولة العثمانية . وكان ذلك لقمع الثورة التى قامت باليمن من جرَّاء إغفال الحكومة لمطالبه . فلم يكد يُنقِذ صنعاء من أيدى الثوار ، ويبلغ شهارة ، حتى شرع فى تنفيذ خطته النبيلة التى تتبعها من زمن بعيد ، وبدأ يفاوض الإمام يحيى ، وأزال ما بينه وبين الدول العثمانية من خلاف . وقد قضى هذا الاتفاق التاريخى على الخلاف وعلى الآراء الخاطئة ، التى نشأت وترعرعت فى ظل نظام الإدارة القديمة السيئة ، والتى جعلت اليمن مذبحة للإخوان المسلمين ، وأشرب النفوس ثقة ومودّة وشعورا بالأخوة ، ظلت قائمة بعد سقوط الدولة العثمانية ، وتفرق عناصرها بعد الحرب العالمية الأولى . فقد استطاع أحمد عزت باشا بسعة حلمه وحبه الوفاق ، ومهارته فى المفاوضات ، دون ميل مع العواطف والأهواء ،

النفوذ إلى قلب الإمام يحيى (رحمه الله) ، حتى أعلن بعد توقيع الاتفاقية بأسبوع ، أن سب الشيخين كفر ، وأن من يجرؤ عليه يستحق القتل !

ولما بلغت الحرب البلقانية أسوأ مراحلها ، أسرع أحمد عزت باشا إلى ميدان القتال بكل وسائل المواصلات ، من خيل وجمال وزوارق وسكة حديدية ، على حسب الظروف ، حتى وصل إلى ميدان القتال ، وتولّى القيادة باعتباره رئيسا لأركان الحرب العامة أولا ، و بصفته وكيلا للقائد العام ثانيا (١٧ يناير سنة ١٩١٢) .

ثبّت الجيش الذى بلغ قصبة چتالجه متقهقرا مهزوما ؛ وحارب وباء الكوليرا الذى كان يفتك بالجيش حتى غلبه ، ونسّق الجيش ونظمه من جديد . ثم عرف ببصيرته و بُعد نظره ماسيحدث من الاختلاف والحرب بين جيوش الدول البلقانية المنتصرة ، ووقف فى وقار العالم ومتانته أمام إلحاح ذوى النفوذ من رجال الدولة ، الذين كان بعضهم يريد بدافع الحزبية ، و بعضهم بعاطفة الوطنية الجاهلة ، سوقَ الجيش بسرعة إلى الهجوم ، وأتم بكل قواه إعداد الجيش . حتى إذا وقع ما قدّر من الخلاف بين الدول البلقانية ، انقض عليها مسرعا ، فأنقذ تراقيا الشرقية وأدرنة من أيديها ، بجيشه الذى صار أقوى جيش فى البلقان إذ ذاك ، وفاز بصلح مشرِّف .

وعين أحمد عزت باشا فى ٦ أبريل سنة ١٩١٣ وزيرا للحربية ، على أن يبقى وكيلا للقائد العام . وفى أكتوبر من السنة المذكورة منح رتبة الفريق الأول . وفى ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٣ استقال من وزارة الحربية (وألغيت وكالة القيادة العامة عقب الصلح البلقانى) .

ولما أخذ الجيش الروسى يتقدم فى أواسط الحرب العالمية الأولى نحو ولايات الأناضول الشرقية ، نُصب قائدا مرة أخرى ، وقبل متواضعا راضيا ، العمل فى قيادة جيش تحت أمر أنور باشا ، الذى كان من قبل أميرآلاى ورئيس أركان

جناح فى إدارته ، فقد وضع القيام بالواجب الوطنى فوق النزعات والأهواء الشخصية .

وهكذا قبل فى ١٥ فبراير سنة ١٩١٥ قيادة الجيش الثانى ؛ وفى ٥ مارس من سنة ١٩١٧ قيادة فرق الجيوش التى كانت تحارب فى القوقاس ، وصرّف قواته فى أثناء هذه القيادة ببصيرة عظيمة وخبرة كاملة ، وصدّ هجمات الروس الشديدة وغاراتهم ، وأنقذ الأناضول من استيلائهم .

ولما بدأت الثورة الروسية فقدت قيادة الجيوش القوقاسية خطورتها ، وخرج أحمد عزت باشا من ذلك الميدان فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ .

واشترك فى مؤتمر الصلح الذى انعقد فى برست لتوفسكى وبخارست فى سنتى ١٩١٧ و١٩١٨ مندوبا عسكريا .

***

وفى ١٤ أكتوبر سنة ١٩١٨ مُنح أحمد عزت باشا رتبتى المشيرية والوزارة ، ونُصب صدرا أعظم ووزيرا للحربية . ولم يلبث فى الصدارة إلا خمسة وأربعين يوما ، ثم استقال لإصرار السلطان على تغيير بعض أعضاء الوزارة ، مخالفا بذلك أحكام القانون الأساسى ، وقد ذكر ذلك أحمد عزت باشا صراحة فى كتاب استقالته .

مكث بعد ذلك مدة من الزمن مغضوبا عليه ، ولكنه لم يحجم عن تلبية دعوة الوطن كلما دعت الحاجة ، فتقلد وزارات مختلفة ، وساعد فى أثناء وزاراته تلك ، الحركة الوطنية التى قامت فى الأناضول مساعدات جليلة ، متوسلا بمكانته عند المحتلين ، إلى إرسال الضباط والمهمات الحربية من إستانبول إلى الأناضول .

وكان فى سنة ١٩٢٠ وزيرا للداخلية فى وزارة توفيق باشا ، وبُعث إلى الأناضول فى وفد فيه صالح باشا وزير البحرية ، ومنير بك مستشار الحقوق ، للاتفاق

مع مصطفى كمال باشا ، ولكنهم عجزوا عن التفاهم والاتفاق ، وأبقاهم الكماليون فى أنقرة بضعة أسابيع ، محاولين أن يضموهم إليهم ، فلم يظفروا بهم .

ولم يكن يسيرا على مثل أحمد عزت باشا ، وقد تربى على حب السلطنة والخلافة ، أن يخالف عليهما . ولهذا لم يقبل الانحياز إلى الكماليين . ثم أذِن لهم فى العودة ، على ألا يعاونوا حكومة إستانبول ، فاستقال المرشال أحمد عزت باشا من وزارة الداخلية ، ولبث حينا بغير عمل . ثم طُلب إليه تقلد وزارة الخارجية ، وهى آخر وزاراته (١٢ يونيه ١٩٢١) .

لم يكن المرحوم أحمد عزت باشا واسع العلم بالعسكرية وحدها ، بل كان واسع الاطلاع فى فنون شتى ، جمّ الأدب ، ديِّنا ، شديدا جدا حين تجب الشدة ، وليِّنا حين يحسن اللين ، وكان على حدة مزاجه ، طاهرا ، رقيقا ، مستقيما ، محبا للخير ، ما أساء إلى أحد ، حتى من أساءوا إليه .

٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٦٧

٩ أبريل سنة ١٩٤٨



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين

فى هذا الوقت الذى بدأت تضمحل فيه نظريات الإلحاد شيئا فشيئا فى جميع أنحاء العالم المدنى ، بل بدأ يقوَى الاعتقاد فى نفع الدين ولزومه ، ولا سيما فى الأيام الأخيرة ، نرى اشتعال نيران النزاع بين المِلَل والنِّحَل التى كانت تعيش فى أجزاء الدولة العثمانية المتبددة . ونرى فى الناشئة التى تدّعى لنفسها التنور ، اشتداد العداء نحو الدين باسم « اللادينية » ، والاستمساك بنظريات الإلحاد والإنكار(١) . وليس ما أشرت إليه من الخلاف المذهبى إلا ثمرة مُرَّة من ثمار تلك المنازعات الفلسفية والمنطقية التى شبت منذ القديم ، مستندة إلى بعض الألاعيب اللفظية ، وما ولدته تلك المنازعات من عدوان ؛ كما أن ما يشاهد فى بلاد تركيا من ضعف الاعتقاد والميل للإلحاد ، ليس إلا ناجما من دراسة العلوم الطبيعية منذ جيل أو جيلين دراسة ضعيفة . والعجز عن تأليف هذه المعلومات العلمية بما تلقته تلك الناشئة من المعلومات الدينية الضئيلة ، وكل ما نراه من الغلظة والفظاظة والقسوة فى الطرفين ، لا سبب له إلا ضعف النظر ، ووهن الفكر ، وسلوك أضعف المسالك فى البحث والمناظرة ، وما ينشأ من الجهل المطبِق المتَّسِم بسمة العلم من غلط الرؤية والمكابرة .

بيد أنى أخاطب كافة الغُلاة من أرباب المذاهب والعقائد المختلفة على الإطلاق ، قائلا : اعلموا أيها الغافلون المتعصبون ، الذين وصلوا بما بينهم من خلاف فى الاجتهاد إلى إثارة الأحقاد الدينية ، أن ما لديكم من العلم بعيد عن إدراك المرام الإلهى أقصى بُعد ، فلا تتعجلوا فى اعتبار أنفسكم من جند الله ، واعتبار سائر

الموحِّدين من الطوائف مشركة بالله ؛ فإن القرآن الكريم ، وخاتم النبيين ، يوصياننا بمعاملة اليهود والنصارى ، بصفتهم من أهل الكتاب ، أحسن معاملة ، كما يمنعاننا عن سب الطاغوت والأصنام ، و بطلانها ظاهر للعيان . وعلماء الرسوم مكلَّفون تبليغ أحكام الدين ونشره ، فمن الإثم العظيم إثارة الأحقاد نحو جماعة من أهل القبلة ، وشقّ عصا الوحدة ، وتوهين دعائم الجامعة الإسلامية ، وما من ظالم يرمى غيره بما ليس فيه ، إلا يحيق به مكره ، و يرجع إليه كيده .

وأنتم أيها المنكرون ، الذين هم بأنفسهم مُعْجَبون ! إنكم ليقصّر إدراككم ، و يقصر علمكم وفكركم ، عن الإحاطة بحقيقة الخلقة ، وهذه الطبيعة بفضائها اللانهائى ، فيها ما فيها مما لا يصل إليه الفهم ، فى حين تجول فيه آراء أهل الأديان جولة التفكر والادكار على الدوام ، و إنكم ليحرمكم قصرُ علمكم حق الكلام فى هذا الميدان الفسيح . إلا أن المتبحِّرين فى العلوم العقلية ، والراسخين فى العلوم الدينية والنقلية ، يجولون فى هذا الميدان جولة العليم بقَدره وطوره ، متخذين الإنصاف والإخلاص والسعى والإقدام — مع معرفة أقدارهم ، والتفانى فى سبيل الواجب — نبراسا للبحث بكل دقة وعزم ، لينيروا عقول الناس ، و ينقذوهم من ذل الجهل والعذاب فى الدنيا والآخرة . أمّا إن توهمتم أنكم قد كشفتم الغطاء عن خفايا الحياة ، وأسرار الخليقة ، وتصديتم لإنكار كل آثار السالفين باسم التجديد ، و بما تعلمتموه من بعض الدساتير الرياضية ، وماطالعتموه من بعض المجلات الحكمية ، أوالمقالات الأدبية ، فلن يكون توهمكم و بهتانكم هذا إلا إذلالًا لأنفسكم وقومكم فى هذه الدنيا ، فضلا عن الآخرة التى لا تؤمنون بها .

إن ما يدعونى إلى توسيع نِطاق هذه الكلمة الصادرة من سويداء القلب ، إزاء ما يُرى فى العالم الإسلامى خلال الأزمنة الأخيرة من التفرق والضلال ، إنما يُبْتَنى على أملين :

أولهما : إثبات كون الدين لا ينافى العقل والحكمة ، والعلم والمعرفة ، بقدر

ما أستطيع بيان ذلك للملحدين والمنكرين . وثانيهما : بيان أنه إذا عرف الإنسان قدرة الله معرفة إجمالية ، باستقصاء آثار الخليقة ، وما تحتويه من عظمة غير محدودة ، فإن ما يقع من الاختلافات الفرعية بين أهل التوحيد ، بناء على الخطأ فى الاجتهاد، ينبغى ألا يؤدى إلى التفرقة والخصومة ، ثم إيضاح هذه الحقيقة على قدر الإمكان لأرباب النحل المختلفة ، دعوة لهم إلى طريق الوفاق والإنصاف .

إذا وُفقت فى هذا السعى ، وتمكنت من تنبيه عامة المسلمين ، إخوانى فى الدين ، لإزالة أنواع الاختلاف والتخاصم ، تحققت أكبر آمالى فى الحياة ، ورأيت أيامى لم تذهب سدى . وإنى لأفتتح كتابى بهذا الأمل وهذه الأمنية الخالصة .

منهج التأليف :

يرى القارئ أنى أميل إلى طريقة الإثبات فى بيانى ، أى إلى إثبات كل قضية بالاعتماد على العقل والعلم ، فى حين أنى مجبول على الاعتقاد بالمعنويات . فليس سلوكى هذا المسلك إلا لإقناع من أخاطبهم ، إذ لا يمكن إقناع المنكرين بالنصوص والنقول الدينية . وأما ما أخاطب به علماء الدين ، فلا يراد به إلّا التوسل إليهم ألّا يجهزوا المعارضين والمنكرين بأسلحة الهجوم . فكان من الضرورى إذن الاعتماد على العقل والعلم فيما أوردته من الأمثلة والأدلة .

إننا قد استفدنا من الحقائق العلمية ، والمكتشفات الجديدة ، على وجه الاختصار ، ولم نتعمّد إيضاحها وإثباتها ، لخروج ذلك عن دائرة موضوع الكتاب . بيد أن هذه الأدلة من الحقائق العلمية المقطوع بصحتها ، ولهذا كلما بحثنا عن الفرضيات والنظريات التى لم تتحقق تمام التحقق ، استعملنا من الألفاظ والجمل ما يفيد الشبهة ، أو بينّا بكل صراحة أنها مشكوك فى صحتها .

ومع احتجاجنا بآيات القرآن والأحاديث النبوية وأقوال الفقهاء والعلماء ، ردا لمزاعم المعترضين ، ودفعا لأباطيل المفترين ، فقد استشهدنا كذلك بأقوال الحكماء

المحققين والمتفننين ، من أرباب سائر الأديان ، أكثر من استشهادنا بأقوال أجلة العلماء الإسلاميين فى سائر أبحاثنا ، نظرا لما هو ملحوظ من اعتداد الملحدين بأقوال هؤلاء أكثر من غيرهم . ومع هذا ينبغى أن يُلاحظ أن ذكر قول فلسفى فى مقام الاستشهاد ، لا يدل على قبول المذهب الذى ينتمى إليه . وسيُرى أننا قد استندنا إلى فَرْضيات ونظَرِيات لا حظّ لها من الثبوت كنظريات التكوين ، ولكننا لم نلتزم هذا الضرب من المناظرة ، إلا لمقابلة المنكرين بالنظريات التى يعتمدون عليها كل الاعتماد .

وقد يصادف المطالعُ فى هذا الكتاب بعضَ أقوال و إفادات تقارب وتشابه أقوال المتصوفين والفلاسفة . فلا يظنَّنَّ أحد أن هذه الأقوال قد انتحلناها لأنفسنا بشىء من التعديل والتحريف ، فإن ما نقول هو محصول أفكارنا وتصوراتنا الخاصّة ، المبنية على البحث والدرس .

إنى لأعتقد أن ما فعله بعض الأسلاف من المضىّ فى ظلمات المجهولات ، مستضيئين بمصباح المنطق الإيساغوجى — وما هو إلا واسطة من وسائط الاستدلال العقلى — قد سلك بهم سبل الضلال ، أوتاه بهم فى مجاهل الخيال ، وكانوا بذلك سببا من أسباب التفرق ، فلم ينج منهم إلا الذين أدركوا عجز البشر ، فلم يتعدوا الحد .

ولهذا فإننا التزمنا البساطة والاختصار فى كافة أبحاثنا واستقصائنا واستدلالنا ، وتجنبنا جهد الطاقة استعمال مصطلحات الفلسفة القديمة ومسائلها فى إثبات قضايانا . ولسنا نخاطب الإخصائيين ، بل نخاطب كافة المتعلمين من أرباب العقل السليم ، فلهذا بذلنا الجهد للابتعاد عن كل ما يصعب فهمه من المصطلاحات الفلسفية .

استطراد :

ومع هذا نرى من المناسب أن نورد هنا بعض المعلومات عن المذاهب الفلسفية ،

فيما يختص بالإدراك والتيقن ، إيضاحا لما قدمنا عن المناظرات الفلسفية ، وتسهيلا لفهم المباحث التى نتناولها .

فُطر الإنسان على البحث عن كل شىء يراه وتفهُّمه ، ولم توجد الفلسفة إلا للبحث عن ماهية الأشياء وبيان ما يفهم منها ، فكان حريا أن تكون أول مسألة من مسائل الفلسفة : « هل يقدر عقل الإنسان أن يصل إلى اليقين ؟ » . وانقسمت الآراء من أول الأمر حول هذا الموضوع ، وقَبلت الفلسفة الإيقانية وجود عالم خارج عن النفس ، أى أنها تعترف بـ « أنا » و « لا أنا » ، وترى إمكان إدراك هذا العالَم بالعقل ؛ وتظهر هذه الفكرة فى أول الأمر موافقة لإدراك الإنسان . والمذاهب التى تسمى الحسبانية أو الريْبية أو اللاأدرية ، تعتقد أن العقل البشرى غير قادر على إدراك حقيقة أى شىء وتيقنها ، وترى أن كل ما لدينا من الآراء عن بيئاتنا ومحسوساتنا لا قيمة له بتاتا . وأما النظرية الفكرية أو المعنوية أو التصورية ، فترى أن الأشياء ليست إلا عبارة عن أفكارنا ، وليس للموجودات التى يمثلها لنا التصور حقيقة ، وما المحسوسات إلا محض تصورات . و إذا وسَّعنا هذه الفكرة رأينا مثلًا أن والد الشخص المتفكر ومربيه ومن ينحو نحوه فى تفكيره ، ليسوا إلا أشخاصا مُتخيَّلين لا حقيقة لهم ، وأن الأرض التى يعيش عليها ، والشمس التى يقتبس ضياءها ، والسماء التى تحيط به ، ليست إلا تصورات ، بل يرى البعض أن الشخص المتصوِّر كذلك لا وجود له .

لا جرم أن العقل السليم يشمئز من ذلك كله ، ويستغرب به فى أول الأمر ، ولكن الذين أسسوا هذه المذاهب ، وآمنوا بمبادئها هذه ، لجئوا إلى الأدلة المنطقية الباهرة ، التى يظهر فى قضاياها وأقيستها كل شىء فى موضعه ، فالموضوع موضوع ، والمحمول محمول ، والصغرى صغرى ، والكبرى كبرى ، فتلعب بالعقل . وجاء الشعراء فأمدوا المفكرين على هذا النحو بالكلمات الوجيزة ، والأبيات الشائقة

والطريفة ، ومهدوا لهم السبيل للاستكثار من الأعوان فى كل حين ، واستمر الأمر على هذا النحو إلى زماننا الحاضر .

إن فى كل مذهب من هذه المذاهب الثلاثة سِمةً من الحقيقة ، إذا قصرنا كُلًّا منها على حالات محدودة معينة ؛ إذ لا يصح أن يُقطع بأن كلًّا منها على حدة يصلح أن يكون كقاعدة كلية صحيحة . ثم المناظرات والمناقشات التى وقعت بين أرباب المسالك المختلفة ، وتمادت تماديا يصعب الإحاطة به ، أدت إلى ظهور فرق متطرفة فى كل مذهب ، فنشأ بين الإيقانيين مَن يقول بأن كل ما لا تُدرك حقيقته بالعقل والحواس وعلم البشر ، لا وجود له ؛ وظهر بين المذاهب الأخرى من يحسّن السفه والكسل والبطالة . والحق أن الإنسان إذا بدأ بقوله « كل ما فى الكون وهم وخيال » فإنه ينتهى بقوله « لا ندع كأس الراح ، فالحكم للخمار ! » وكل من يعتقد بأنه غير موجود ، لا يمكن أن يؤمن بالمستقبل ، أو أن يحسب له حسابا .

لا شك أن أمثال هذه النتائج تحول دون الرقى ، وتؤدى إلى السقوط والوهن ، فهى مضرة بالإنسانية ، وهى لهذا مردودة باطلة ، وأن تفكير جميع البشر ينبغى أن يؤدى إلى نفع الإنسانية وتكاملها واعتلائها ، وهذا لا يكون إلا بالأمل وما يتولد منه ، من السعى المتواصل ، والاعتماد على النفس اعتمادا معقولا معتدلا .

بيد أننا إذا تصدينا لمناقشة هذه المسألة مستمدين من الطبيعة ، ومن معانى الحوادث الكونية ، رأينا العقل البشرى يصل إلى اليقين فى كثير من المواضيع ، وإن كان لا يستطيع أن يتخلص من الشبه فى كثير من الأمور ؛ لأن قابلية حواسه محدودة ، ولأنه عاجز عن الوصول إلى بعض الحقائق عجزا تاما . فلا محل إذن لاختلاف المسالك ، وما ينشأ عن اختلافها من الأخطاء والسيئات . ونوضح هذه القضية ببعض الأمثلة ، كالرؤية التى تعتبر أول نبراس للعلم وأول دليل له :

إن الراصد لا يستطيع أن يميز ما هية الشَّبَح الذى يراه بعينه على بعد ألفى متر فى بادئ الأمر ؛ لكنه بعد أن يميز حركته ، يحكم بأن هذا الشبح إما ذو روح ،

و إما مادة يحركها ذو روح ، وكلما قصرت المسافة أمكن تعيين نوع هذا الشبح . ثم أمكن بالنظر إلى ثيابه تعيين طبقته ، و إذا ما وصل إلى قرب ثلاثين أوعشرين مترا ، أمكن تشخيصه ، وربما عرف الراصد أنه صديق من أصدقائه . إذن يتقدم الإنسان من الجهل إلى الشك ، و يتدرج شكه حتى يزول ، فيصل إلى اليقين(٢) .

إن السفينة التى تتباعد من الساحل تصغرشيئا فشيئا حتى تصير نقطة ، ثم تغيب فلا يراها البصر . فإذا استعملنا حينئذ منظارا مقربا مكبرا قويا ، أمكننا أن نرى السفينة مدة أخرى ، حتى تغيب كرة أخرى عن أبصارنا بجسمها و بأعمدتها . فإذا ابتعدت السفينة التى نرصدها ، حسب ارتفاعها وارتفاع مرصدنا ، نحوخمسة وعشرين أو خمسين كيلو مترا ، لا يمكننا أن نرى منها شيئا ، و إن استعملنا أقوى المناظير ، لأن كروية الأرض تحول دون الرؤية . بيد أنه لا يشك أحد أن كثيرا من السفن تسير وراء الأفق المرئى ، ولا يصعب على أحد أن يطمئن إلى ذلك بطريق الاستدلال . إذن يحصل اليقين بالاستدلال فيما لا يُدْرَك بالحواس .

إن البصر السليم لا يمكنه أن يميز واحدا من عشرة آلاف من المتر . فإذا استعمل الإنسان الميكروسكوب أمكنه أن يميز ما هو أصغر من ذلك من الجراثيم بأشكاله . ومهما ارتقت هـذه الآلة لا يمكن تمييز المواد التى تكون أصغر من الميكرون (وهو واحد من مليون من المتر) لأن أمواج الضوء — وهوالواسطة الوحيدة للرؤية — هى بين $\frac{٤}{١٠}$ و $\frac{٨}{١٠}$ من الميكرون ، ولا يمكن الضياء أن يميز الأشياء التى تكون أصغر من أمواجه — مع أنه من الثابت طبيا وجود أحياء أصغر بكثير من ذلك ، لأن تأثيراتها المضرة أو النافعة للجسم الإنسانى محسوسة ، ومن الممكن تكثير هذه الأحياء بالتناسل ، أو تقليلها بالأصول الطبية ، دفعا لضررها . إذن فوجود هذه الأحياء ثابت بالتحقيق من آثارها ، فى حين أن رؤية أشكالها وتمييز أجسامها من المستحيل .

ثم إن الرجل الذى يسير ليلا فى مدينة مظلمة أو غابة أو صحراء ، قد يصادف

من الأشياء ما يخطئ فهمه بل يخيفه . ولكن إذا حافظ هذا الرجل على رباطة جأشه وقوة أعصابه سلم من الخوف ، وسلم من الخطأ . و إذا ما سار الإنسان بواسطة سريعة على حافة غابة ، رأى أقرب الأشجار تتحرك فى اتجاه معكوس ، ورأى أبعدها عنه تسير فى اتجاهه .

بيد أن أمثال هذه الأغلاط الحسية لا تدل على أن كافة معلومات الإنسان ومحسوساته كاذبة غير حقيقية .

كان الاعتقاد السائد إلى عهد قريب أن الكواكب ثابتة . ولكن دلت الرصدات الدقيقة المتوالية ، والاكتشافات العلمية الجديدة المتنوعة ، على أن الكواكب تتحرك بسرعة تختلف ما بين عشرين كيلو متر فى الثانية إلى مئات الكيلو مترات ، بل إن بعض السحابيات تتحرك بسرعة تصل إلى ألفى كيلو متر فى الثانية ، لكن بُعد المسافة يحول دون شعورنا بذلك فى وقت قصير ، وقد تبين أن مجموعتنا الشمسية تقترب من نجم النسر الواقع فى برج شيلياك بسرعة عشرين كيلو متر فى الثانية ، أى بسرعة ٧٢ ألف كيلو متر فى الساعة . لكن جميع هذه الحركات ، وكل ما يحتمل كشفه من الحادثات ، ليس إلا عبارة عن تبديل بعض الكواكب مواقعها بالنسبة لبعضها ، وليس من الممكن تعيين الحركة المطلقة أو السرعة الحقيقية لها فى البعد المجرد ، لأن إدراك البشر ، أصاب أو أخطأ ، هو نتيجه نسبة وقياس . فإذا وصل الأمر إلى المطلق وقف الإدراك . وقد أخفقت جميع التجارب التى وقعت لتقدير السرعة الحقيقية للأرض فى الفضاء بالاستفادة من سرعة الضوء ، بل أثبت الحكيم الرياضى الشهير آينشتين أن هذا الإخفاق نشأ من كون سرعة الضوء ، وهى الواسطة الوحيدة للمشاهدة والرصد ، أعظم سرعة فى العالم ، فمن المحال رصد سرعة أعظم منها[٣] .

ينتج من هذه الأمثلة التى أوردناها عن الرؤية والتى يمكن تطبيقها على سائر الحواس[٤] :

أولاً — أن علم البشر يصل إلى اليقين بطريق المشاهدة والحس والفكر والاستدلال . وثانيا — أنه يمكن الوقوع فى الشك فى بعض الأحوال ، كما يحتمل خطأ الحسيات والمعلومات أحيانا . وثالثا — أن من الممكن مع هذا بالبحث الدقيق ، والدرس العميق ، و بالكشف الجديد ، توسيع نطاق العلم البشرى ، و إزالة الشبهات ، وتصحيح الأخطاء . ورابعا — أن علم البشر مع هذا و إدراكه محدودان بنطاق طبيعى (٥) ، فلن يصلا إلى اللانهائى و إلى المطلق .

قد يُظن أن المفكرين الواقفين على العلوم الرياضية والطبيعية لا يترددون فى قبول هذه الأراء والأفكار وتصديقها ولكن لم يكن الأمر على هذا النحو فى المناظرات القديمة الفلسفية ، التى كانت تتناول مُثُلاً متعارفة نحو «الضدان لا يجتمعان» يُبنى عليها كثير من الأقيسة المنطقية، حتى يُستنتج منها أن «الشك واليقين لا يجتمعان» . ويُوقف بذلك عند اليقين الكامل أو الشك التام . وكذلك يستدلون ببعض الأغلاط الحسية المتولدة من نسبية الحركة ، على أن جميع الأشياء عبارة عن أشكال وصور حادثة فى المخيلة . وبالجملة فإنهم يَغُضُّون الطرْف عن الشئون والأحوال الطبيعية ، ويسترسلون فى الألاعيب اللفظية ، التى تولدت منها جميع الاختلافات والمجادلات . نعم إن سقراط وأمثاله من أكابر المفكرين قد وصلوا إلى الحقيقة فى الجملة ، إلا أن ذلك الأسلوب من المناظرة قد بقى بجميع نقائصه إلى يومنا هذا .

لا جرم أن الاختلافات الكلامية التى وقعت فى أوائل العصر العباسى عند ترجمة الكتب اليونانية ودرسها ، كان لها أثر مفيد فى إزالة كثير من الشكوك ، إلا أنها فتحت السبيل لكثير من المنازعات المذهبية ، وأدَّت إلى ظهور الجبْرية والمعتزلة وغيرهما من أنواع الفِرَق . ولهذا تَجَنَّبْت المناظرات الفلسفية على قدر الإمكان على الرغم من اتساع المجال لها فى هذا الكتاب .

[تم الاستطراد]

قد يحمل البعض تجاسرى على البحث فى المسألة التى خصصتها قبل سطور بفحول العلماء الكاملين ، وأكابر الحكماء المتبحرين ، على عدم معرفتى قدرى ؛ فأسارع إلى الاعتراف بأنى لا أدعى الاختصاص بعلم وفن من العلوم والفنون التى تتعلق بهذا الكتاب ، ولكنى أخاطب المبتلَين بالجهل المركب ، لأبين لهم أن المسائل التى يتصدون لنفيها وإنكارها بكل استخفاف ، أو يتخذونها أساسا للعن الغير وتكفيره ، هى من المسائل التى عجزت دونها الأفهام ، قاصدا إرغام أنف المنكرين والمكفِّرين(٦) .

وأدعى أنى أثبتُّ فى كتابى هذا مالقنه دين الإسلام وعلّمه ، من وجود الخالق المتعال ، اللهِ ذى الجلال ؛ ومن وحدته ، بالبراهين الرياضية اليقينية . وأما العقائد الدينية الأخرى ، فأثبت أنها ليست بعبث ولا محال ، قياسا على دقائق الخلقة وعجائبها ، التى تعلق بها علم البشر ، أعنى أثبتُّ إمكانها ، بل نفعها ولزومها .

موضوع الكتاب :

إن موضوع الكتاب فى الجملة ، بيان أن الحقيقة الدينية غير مغايرة للعقل والحكمة ، وأن بعض الاختلافات المذهبية نجم عن عدم إدراك العظمة الإلٰهية كما يليق بها . بيد أنى سأخصص بالذكر والبحث الدين المبين الإسلامى .

أولا — لأنى ، والحمد لله ، أدين بالإسلام ، ولأن ما يسوقنى إلى تحرير هذا الكتاب ، هوما أشعر به من التأثر والاضطراب للتعدى على الديانة الحنيفية السمحة تعديا إلحاديا يؤدى إلى تشتيت الشمل . وثانيا — لأن الموسويين يعترفون بأن التوراة قد ضاعت مرارا(٧) ، وأما الإنجيل فقد كتبت مئات من الكتب بدعوى أنها ذلك الكتاب المقدس ، ثم هبط عدد هذه الكتب إلى أربعة وخمسين ، ثم اختاروا منها أربعة فى الكنائس ، والحقيقة لا تتعدد ؛ فلا شك إذن أن متن هذا الكتاب مشكوك فى صحته . وأما القرآن الكريم فمضبوط على النحو

الذى أنزل على نبينا عليه الصلاة والسلام وأملاه وليس فى صحته أدنى شك، ولا يمكن أن يقابله أحد الخصوم بالاعتراض . و إذن فالدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى له سند صحيح (٨) . وثالثا — لأن الأحكام والعقائد الدينية فى الديانة الموسوية والعيسوية يلزم قبولها بدون مناقشة وتدبر ، لأنها ضرورة مذهبية ، بحيث يقول المؤمن بها « أومن بهذا لأنه محال » „Credo quia absurdum" كما أن مايقرره القناصل (مجالس الرهبان) وآباء الدين والبابوات يعتبر من الأحكام المقدسة الواجبة الاتباع ، ثم يجتهد الرهبان لتقوية عقائدهم الدينية ، كما أن الحكماء والمتفننين الذين نشئوا من بينهم يسعون فى زماننا لتأييد العقائد المسيحية بالأدلة والأقيسة القريبة من العقل والعلم ، ولكن بعض العقائد المسيحية لا تتحمل مناظرة علمية ، فإنها لا يمكن أنْ تُقبل إلا كما قال سنت أوجوستن « أومن بها لأنها محال » أى بلا مناظرة ، أى بالإكراه (٩) .

هذا فى حين أن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تبين « أن لا إكراه فى الدين » وأن الإيمان والاعتقاد يطلبان التعقل والتفكر ، فالبحث العقلى مقبول فى الدين الإسلامى ، والاتفاق معقود على أن الإيمان الاستدلالى ، أى الذى يكون بعد اقتناع العقل ، راجح على الإيمان السماعى التقليدى ، بل إن بعض المذاهب يشترط قيام الإيمان على الاستدلال العقلى . فالدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى يقبل البحث والنظر العقلى .

ومع هذا فإننا نتمثل بقوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم » ، وندعو أهل الكتاب ليتحدوا معنا حول كلمة التوحيد بكل إخلاص .

تنبيه

قد علقتُ حواشى على متن الكتاب، وهى لفائدة زائدة ، فأرجو من القراء الكرام ، إن ساعدهم الوقت ، أن يقرءوها ، و إلا فليكتفوا بمطالعة متن الكتاب ، فلن يفوتهم شىء من المقاصد الأصلية .

الباب الاول

العقائد

١ — آمَنْتُ بالله

أول أركان الإيمان ، أى أوّل العقائد الأساسية الإسلامية ، الإيمان بالله تعالى خالقِ كل شىء . والإيمان : تصديق بالجنان ، و إقرار باللسان .

الإنسان منذ بداية خلقته يفكر فى أمر تكوينه وتكوين العالم ، و يتقصَّى أسرارهما . و إذا صرفنا النظر عن الفروع والتفاصيل ، ألفينا أنفسنا إزاء ثلاث عقائد ومذاهب نشأت من هذا التفكير :

الأولى ، أن كافة المكوّنات خلقها خالق أزلى قادر حكيم مطلق . وهذا المذهب مذهب الإلٰهيين والروحيين ، كما هو رأى أكثر المتفكرين والمتفننين . وهذا الرأى الملائم للقواعد الدينية فى مبحث التكوين ، ملائم كذلك لمشاهدات الإنسان وتأملاته ، وما ألفه من الإدراكات الوجدانية الحاثة على البحث عن مؤثر لكل أثر .

الثانية ، نظرية الملحدين أو الماديين . ويقول أصحابها إن المكوّنات منتشرة منذ الأزل فى الفضاء ، وإن المادةَ والقوةَ أو الجوهر الأصلى الذى يجمعهما فى نفسه ، و يتعذر إدراك أصله وماهيته ، قد وصل إلى ما وصل إليه الآن بتأثير الحركة الدَّفعية المتمادية ، التى تقع من أجزائه الفردية ، بما هى حائزة له طبعا من الخواص ، كالجذب والدفع ، وكانت النتيجة امتزاج الأجزاء الفردية وتشكلها وتطورها على النحو الذى نراه الآن . فهؤلاء ينكرون الخالق القادر العليم الحكيم . وهم بتفكيرهم على هذا النحو ، واعتقادهم أنهم وجدوا ما يعتمدون عليه لإثبات دعواهم ، يعتقدون أن عقولهم التى يفتخرون بها ، ليست إلا أثرا لامتزاج مادة غير

مدركة وتركبها بقوة غير عاقلة ، أو أجزاء جوهر جامد ، امتزاجا مبنيا على الاتفاق فحسب .

بيد أن هؤلاء يعجِزون عن بيان حقيقة المادة والقوة ، أو الجوهر الأصلى الذى يجمعهما ، كما يعجزون عن إيضاح ماهية السكون والحركة ، ويقيمون نظرياتهم كلها على فرْضيات عنْدية ابتدائية ، أى أننا حينما نرى أهل الدين يؤمنون بالخالق المتعال، ويجمعون كافة مايشعرون به إزاء الخلقة من الحيرة فى حكمته ، نرى الماديين يَهيمون فى الموهومات ، ويضربون فى مَهامه المجهولات .

ويقف فى وجه هؤلاء منذ عَرف التاريخُ أمثالَ هذه الملاحظات الفلسفية ، أولئك الذين يذهبون مذهب الروحيين ، الذين يقبلون للخلقة سببا أزليا مدرِكا ، وأولئك الذين يذهبون مذهب الوجوديين، الذين سنذكرهم فيما بعد ، أعنى بهم الذين يعتقدون أن كافة الموجودات عبارة عن تجليات كلٍّ مطلق ، عدا ما بين هؤلاء الملحدين الماديين من أفكار مختلفة متضادة ، وفرق متعارضة ، ظهرت فى زمن واحد ، وبيئة واحدة ، وكان من أثرها أن لم يفز المذهب المادى فى أى وقت وفى أى مكان ، بثقة عامة وقبول عام ، على النحو الذى فازت به الأديان .

فنظريات الماديين فى موضوع الخلقة لا تفيد اليقين بأى وجه من الوجوه ، فإن من المعلوم أن أقرب ماوضعه البشر من اليقين فى ساحة العلوم ، علم الرياضيات ، وعلم الطبيعة والكيمياء والهيئة تُدعَّم أكثر أحكامها بالرياضيات والتجارب الدقيقة ، والحوادث الكونية ، فهى — كما بلغت أخيرا من الرقى — تعتبر فى أكثر أحكامها من العلوم اليقينية . والفلسفة ، وإن كانت تستند فى دعاويها وأحكامها على الملاحظات المستخرجة من هذه العلوم ، تستند فى أحكامها الخاصة بمبحث الوجود والخلقة ، إلى الأقيسة والاستدلالات ، ولا تستند إلى التجاربِ والحسابات الصحيحة .

ومع أن البحث المستمر ، والاكتشافات المتوالية ، تؤدى إلى تغيير فى الفرْضيات والنظريات التى تستند إليها هذه العلوم ، فأرباب العلم متفقون غالبا، فى حين يختلف

الفلاسفة ، ولا يزالون منقسمين بالتضاد الكلى بين الإلهيين والماديين .

وخليق بالذكر أنه كلما اتسع نطاق العلوم ، وانكشفت دقائق الطبيعة وأسرارها ، فقدت فلسفة الماديين مكانتها . وهؤلاء أكابر رجال العلم الذين خدموا الإنسانية باكتشافاتهم العلمية أكبر الخدم ، من أمثال « نيوتن » و « باستور » وغيرهما من مشاهير الحكماء يعتقدون جميعا و يؤمنون بقوة خالقة مدركة متعالية عن إدراك البشر ، أو يعتقدون أن للخلقة سرا لا يُدرَك ، و يعربون عن ذلك المعنى بعينه .

وهذه الكلمة التى قالها « هرشل » من مشاهير الحكماء فى القرن الثامن عشر لَمِن تلك الكلمات التى تتأيد بمر الزمان : « إنه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مُطْلَقة . وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضيات يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم ، إعلاءً لكلمة الخالق » .

وأما أكثر من صادفت من المفكرين فقد كان إنكارهم سماعيا وتقليديا ، فهم يتعلمون بعض أقوال الفلاسفة ، و يتخذونها سندا لدعاويهم ، دون أن يدرسوا قواعد مذاهبهم ونظرياتهم ، بل دون أن يطالعوا خلاصة وافية لمؤلفاتهم . وخلاصة قولهم « أنهم لا يؤمنون بما لا يَرَوْن ولا يفهمون » . أو « إنّ نقولَ علماء الدين لا توافق العلم » . فى حين أنهم لا يعرفون من الفنون شيئا ، ولا يدركون من أسرار الدين شيئا ، ولا يستطيعون أن يقيسوا الموضوعات العلمية والعقائد الدينية قياسا عادلا . بيد أنه ما دام هؤلاء الناس يعتبرون أنفسهم من جهابذة الفنون ، فإنى سأعتمد فى دفاعى على الأدلة العلمية والعقلية ، على قدر استطاعتى ، وسأستشهد بأقوال أكابر السلف والمعاصرين من الحكماء .

عقيدة فلاسفة اليونان فى الله

من المعلوم أن سقراط وأفلاطون وأرسطو و إكسنوفان الذين يعتبرون آباء

فلسفة الغرب ، كانوا بصرف النظر عن الفروع ، يعتقدون فى إله واحد ، ذاته وحقيقته فوق الإدراك . و إنى أنقل هنا من تاريخ التصوف للأستاذ محمد على عينى بك ، بعض آراء سقراط عن تلميذه أفلاطون : « ... هذا العالمَ يظهر لنا على هذا النحو ، لم يُترك فيه شىء للمصادفة ، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية ، وتلك الغاية متجهه نحو غاية أعلى منها ، وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة . من أين نشأ هذا النظام الكامل فى تفرعاته ، المحفوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه ؟ ليس من الممكن أن يُحمل ذلك على المصادفة ، فلو أمكننا أن نقول إنه نشأ من تلقاء نفسه ، لصح لنا أن نقول إن ألواح « پوليكليت Polyclète » و « زونكريس » حدثت من تلقاء نفسها . و إذا ما نظرنا إلى أن العناصر التى تحتوى عليها الكائنات كثيرة إلى درجة لا يمكن أن يحصرها العقل ، كان من المحال أن نحمل وجود كل ذلك على المصادفة . فلا بد إذن من وجود عقل أعلى [١٠] ... وهو الصانع الوحيد ، لأن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع ، الذى ينفذ حكمه كنفوذ الفكر فى الحال بدون أى خطأ . وهو حاضر غالب (فى العقائد الإسلامية : عالم قادر) ومع هذا فمن المستحيل إدراكه بالحواس ، فهو كالشمس التى تمسّ جميع الأبصار ، لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها ... »

هذه الكلمات التى نطق بها سقراط ، والتى تلائم الإدراك الفطرىّ البشرىّ ، لها قيمة علمية منطقية ، سنوضحها فيما يلى :

طرق المعرفة :

من الضرورى الاعتراف بأن الأحوال والأفكار التى تتبادر للعقل والوجدان ، إما عن طريق الذوق ، أو الحس الطبيعى ، أو بواسطة القواعد الكلية المستنبطة من المشاهدات المتوالية ، هى حقائق ؛ فإن لم يُعترف بذلك لم يكن ثمّة مجال

لوضع مبدأ يُبْتَنى عليه البحث العقلى . فالفكر الداعى إلى البحث عن مؤثر لكل أثر ، وعن محوّل لكل حال ، وبالجملة عن علة لكل شىء ، يلزم أن يكون حقيقة . إن الأسباب القريبة المؤدية إلى حدوث المكوّنات على العموم أو على الانفراد ، تمكن رؤيتها ، ويمكن فهمها ، ولكن يدرك الذهن أيضا بطريق القياس ، أن لهذه الأسباب أسبابا أخرى . فمثلا أقرب الأسباب للطفل أبواه ، وأقرب الأسباب لحدوث النبات ونشأته البَذْر والتراب . بيد أن وجود هؤلاء يتطلب تسلسل الآباء والأمهات والبذور ، ويستلزم وجود التراب . فمن أين ينشأ هؤلاء ؟ ثم لا بد من وجود قوات وعوامل ومواد كثيرة ، كالهواء النسيمى للتنفس ، والطعام والشراب للتغذى ، وحرارة الشمس وضيائها وغير ذلك ، مما يعتبر لازما وملزوما لحصول الحياة . وإذا درسنا المسألة درسا عميقا من الوجهة العلمية ، كثر عدد هذه العوامل وتسلسل ، ويبحث العقل عن مؤثر آخر لكل منها . وقد ينتهى استقصاء بعض من هذه العوامل والمؤثرات إلى الأرض والشمس . وإذا قبلنا ذلك وعلمنا أن الملايين من أمثال الشمس وتوابعها ليست أزلية أبدية ، بل حادثة آفلة فانية ، وثبت لنا ذلك ثبوتا علميا ، وجب علينا إذن البحث عن المنابع التى حدثت منها هذه العوالم . لو قُبِلت نظرية الحكماء التى تقول إن الشموس تحدث من تكاثف السحابيات نحو مركزها ، أو من الحرارة الشديدة التى تحدث من تصادمها[١١] ، ومن نتيجة التفاعلات الكيميائية التى تستلزمها ، فإنه لابد للبحث عن عامل يسبب تشكل هذه الأجسام الغازية ، التى نرى أمثالها العديدة فى قبة السماء من ثلاثة عناصر بسيطة ، أى من توزيع وتركيب هذه العناصر فى الفضاء داخل نسبة وكثافة معينة[١٢] .

أما النظريات الطبيعية والكيميائية الحديثة ، فتقول إن أتومات الـ « هليوم » والـ « نبيليوم » تمتزج وتتركب بأتومات الإيدروجين مثنى وثلاث فصاعدا ، وعليه يفرض أن المادة تَنْتَهِى إلى عنصر واحد . وإيجاد جميع هذه المركّبات من

عنصر واحد يحتاج إلى مصورٍ ولا شك . ولو قُبل ما يقال موافقا لأحدث الاكتشافات العلمية ، من أن المادة تحصل من تكاثف القوة(١٣) ، فإن العقل لا بد أن يبحث عن متصرِّف فى هذه القوة ، وعن محوِّل لها ، لتبديل ماهيتها . فإذا وصلنا هنا ، أى إلى القوة والأثير ، تبدلت سلسلة الأسباب ، وانتقلت إلى ماهية أخرى ، أى إلى شىء لطيف معلوم بآثاره ، ومجهول بكنهه وحقيقته .

وحيث إن كل ما يصل إليه الفكر والنظر من منشأ وعلة بين المشهورات والمحسوسات ، حادثةٌ ومتحولة ، ومحتاجة إلى علة أخرى ، فمن الضرورى أن يتحرى العقل والوجدان أسبابا أخرى فوق المشهودات والمحسوسات . وهذه الأسباب الغيبية ، وإن توالت إلى درجة ما فى محيط الأثير وعالم الغيب ، فلا بد لها أن تسير سير سلسلة العلل الظاهرية ، وأن تنتهى إلى علة أصلية أولى ، لأن السلسلة تنتقل من الفروع إلى الأصول ، كما تنتقل من التركب إلى البساطة ؛ ومن الكثرة إلى القلة ، فيلزم إما أن تتصل بالواحد ، أو تنتهى إلى الصفر . وحيث إن العدم لا يمكن أن يكون علة الوجود ، فمن المحال احتمال انتهاء سلسلة الأسباب إلى الصفر ، ومن الضروريات العقلية اتصالها بسبب أول ، وموجود بذاته ، وهو «مسبب الأسباب» .

قد يقال بإزاء ذلك ، إنه ما دام كل شىء مرتبطا بعلة ، فلا يقبل العقل وجود علة أولى غير معلولة ، فلا بد إذن من استمرار العلل والأسباب بلا نهاية . ولكن الأشياء التى يتَحرى الإنسان علل حدوثها هى المكوَّنات الحادثة الفانية . أما العلة الأولى وماهيتها غير ماهية المكوَّنات ، فهى أزلية وبعيدة عن كل تغير . إن الإنسان الذى يرى كل شىء حادثا وفانيا ، لا يمكن أن يدرك الأزلية بسهولة ، ولكن اللانهائية أيضا فوق إدراك العقل كالأزلية . فالقول بتسلسل لا نهائى لا يمكن أن يُقنع العقل ، ولا يفيد فى حل المسألة . ثم إن العلة كما أوضحنا فيما سبق عند وصولها إلى الوحدة ، وغاية البساطة ، ينبغى ألّا تتغير ، أى أن تحافظ على

ما هيتها ؛ فمن العبث إذن أن تتصور هوية تتسلسل بعينها ، وتتعاقب بصورة الحدوث والفناء على الدوام بدون تغير (١٤) .

والعقل البشرى يرى أن حدوث شىء من العدم فى لحظة مفروضة بلا علة من المحالات . فلا شك أنه بعد رفض جميع الاحتمالات التى يحكم ببطلانها حكما قاطعا ، لا نرى مَناصا من قبول المسبب الأول الأزلى ، والتصديق به ؛ مع عدم إدراك كنهه . نعم إن هذا الاعتقاد اعتراف بالعجز عن الإدراك ، لكنه برىء من مناقضة الحقائق التى تدرك .

و إذا استقصى القارىء ما بسطنا من الاستدلالات فى هذا الكتاب ، رأى أن القضايا والفرْضيّات التى رُدَّت ، هى باطلة عقلا وعادة ، وهى من العبث والمحال . وأما الكيفيات التى لم يصل إليها العلم البشرى ، فلا يمكن رفضها جُزافا . فمثلا إذا قيل لقروى قدم إلى إستانبول للكسب والتجارة : إن قريته المكونة من عشرة بيوت قد نمت وكَبِرت فى سنة واحدة بفضل عُمدة القرية ، حتى أصبحت أكبر من إستانبول ، كان من حق المخاطب بهذه الرواية تكذيبها ورفضها . و إذا قيل إن فى الدنيا مدينة تسمى نيو يورك ، يبلغ عدد سكانها عدد نفوس تركيا بأجمعها ، و إنها تحتوى على مبان عالية يبلغ ارتفاع كل منها أربعين أو خمسين طبقة . فلا يصح تكذيب هذه الرواية ورفضها ، لمجرد عدم العلم بهذه المدينة ، أو عدم رؤيتها . وقد بيّنا فى مقدمة هذا الكتاب أن العلم البشرى محدود بحدود طبيعية لا يستطيع أن يقتحمها ، وأن فى هذا العالم موجودات لا يمكن الاعتقاد بوجودها إلا بالاستدلال من آثارها ، و بسطنا على ذلك الأمثلة المستمدة من الطبيعة .

مثال لإيضاح مسألة الخلقة

بيد أنا نبسط هنا مثالاً آخر توضيحا لمسألة الخلقة على قدر الإمكان . من المعلوم أن عقارب الساعات تتم دورها فى أزمنة معينة ، بواسطة تروس

أو دواليب ذوات أسنان متداخلة ، تتحرك بحركة متسلسلة بتأثير الزُّنبرك . وهذا التركيب على صغره تشاهد فيـه سلسلةُ أسباب ، ثم تشاهد أسباب متوسطة هى التروس التى ترى من جنس واحد ، فى أبعاد مختلفة ، فى حين إن الزُّنبرك هو المحرك ، والرقاص هو المنظّم فى شكل آخر ، وطبيعة أخرى .

هـذا مثال قريب نلتمس به إعطاء فكرة عن الأفلاك ، ولـكن لا تنتهى المسألة بذلك ، لأن الساعة لم توجد من تلقاء نفسها ، بل لها صانع ، وهذا الصانع هو ساعاتى ، وإنسان فى ماهية غير ماهية مصنوعه . وهذه العلاقة التى بين الصانع والمصنوع يمكن أن تعطينا فـكرةً إجماليةً عن العلاقة التى بين المسبب الأول وعالم الـكون ، بشرط تكبير الفرق بين الحدين المتناظرين إلى اللانهائية . إن النوع البشرى ، لـكونه حائزا تلك المواهب الطبيعية التى نسميها العقل والذكاء، يميل فطرة للبحث عن حقيقة الخلقة ، وهو قادر على الاستدلال على وجود الخالق والإيمان به ، ولـكن لا يمكن أن يتجاوز فى فهم حقيقته ما تَفهم الساعة من حقيقة الساعاتى .

إن العقل السليم بتصديقه بالقيوم الأزلى الخارج عن المكوّنات ، مسببا أول ، يَروِى ما يشعر به من التعطش إلى استقصاء سر الخلقة ، ويدفع كل ما يرد بالخاطر من أنواع الشبه والتناقضات ؛ ومهما قال الفلاسفة ، فإن تصور مكوِّن للمكوّنات على غير ماهيتها ، أمر لا يخالف العادة . والأمر أن وجودا أزليا على غير ماهية الأشياء ، ينبغى أن يكون فوق إدراك الإنسان الذى يعتبر فانيا من جهة حياته الدنيوية .

وهذه النتائج الفلسفية موافقة لتعاليم القرآن الـكريم ، الذى يقول : « ليس كمثله شىء » . ويقول : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، دالًّا بذلك على أن الله تعالى لا يماثل الأشياء ، وأنه إله واحد حىّ سرمدى . ويقول القرآن الـكريم كذلك : « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » ، دالا بذلك على أن العلم

البشرى قد قدرّته المشيئة الربّانية وحددته ، وأن الإنسان إنما يقدر على إدراك الوجود الواجب ، ولكنه يقصُر إدراكه عن إدراك كنه ذاته .

نستخرج من هذه الملاحظات العقلية :

أولًا ، أنه لا بد من علة أولى ، أو مسبب أول ، لحدوث الكائنات . وحيث أنه ليس فى العدم قوة العِلية ، فوجود هذا المسبِّب الأول ضرورى ، فهذا المسبِّب الأول هو بالتعبير العلمى واجب الوجود .

ثانيا ، المسبِّب الأول موجود بالذات ، وأزلى ، وإلّا يلزم أن يظهر من العدم ، وهو محال وعبث .

ثالثا ، لا يكون المسبِّب الأول مقيدا بقيد أو شرط أو علة ، لأن تقدم هذه القيود والشروط عليه ينافى أزليته ، ومن العبث أن يخلق لنفسه قيودا وشروطا من بعد ، وإذن فالمسبِّب الأول مطلق .

رابعا ، من الطبيعى أن تؤثر العلة فى المعلول ، والتأثير منوط بالقوة ، وإذا ما درس الإنسان عالم الخلقة ، وتدبرها على قدر إدراكه ، واعترف بمسبِّب ومؤثر لحدوثها ، فإنه لا يتحرى دليلا لإثبات قدرتها غير أثارها ، أى الكائنات ، وإذن فالمسبِّب الأول قوى قادر مطلق .

وهناك نكتة مهمة فى مثال الساعة الذى أسلفنا :

من البديهى أن الساعاتى لا يمكنه إيجاد الساعة بمجرد جمع قطع من الفولاذ والنحاس الأصفر كما تتفق ، وربط بعضها ببعض كما يتفق ، بل لا بد له من تعيين حجم الزُّنْبُرُك وشكله وقوته وأبعاد الرقاص ، وقطر التروس (الدواليب) وثخانتها ، وأبعاد أسنان التروس على حساب صحيح ، لما بين الأقسام المتنوعة من نسب ، وهذا يستلزم أن يكون الساعاتى من أرباب الخبرة وأصحاب المعرفة . فهل ترى أن أمر خلقة الكائنات كذلك يُبْتَنى على علم وحساب ؟ وهل المسبِّب الأول ذو علم وسيع وحكمة بالغة ؟ نثبت هذا الآمر فيما يلى :

لقد آمن الفيلسوف الشهير «دِكارت» بوجوده ، بعد أن كان يرى الموجودات كلها بعين الشك ، فقال : « أفكّر فإذن أنا موجود » . ثم إنه لم يقف عند ذلك ، ورأى أن هذا التفكير يدل على أن له واهبا حقيقيا ، وأن ذلك الواهب منبع لا نهائى ، ووجود كامل أزلى ، واستدل بذلك على أن العالم موجود . ويفهم من هذا الكلام أن الحكيم الشهير يتصور أن وجود الكائنات يثبت بالتفكر ، وأن موجِدَها ذو شعور ، أى ذو حكمة غير متناهية . وكما أن الصانعَ والمصنوعَ ليسا من ماهية واحدة ، كذلك الواهب والموهوب لا يلزم أن يكونا من ماهية واحدة . وحيث إن خزانة علم الواجب الحقيقى وحكمته أعلى وأكمل الخزائن ، فإنها تختلف عن جزء الذكاء الذى يتجلى فى الموجودات ، ولن يتصور أى مفكر أن واهب العقل والحكمة هو وجود جامد .

رأى لابلاس فى المسبب الأول

إن لاپلاس المعتبر من أكابر الحكماء فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والمعدود من شيوخ الرياضيين والفلكيين على الأخص ، يقول بعد إيضاح مجموعة الشمس : « إن النظام المحير للعقول ، المشاهد فى حركات الأجرام التى تتألف منها المجموعة الشمسية ، لا يمكن أن يحمل على التصادف . بل التصادف كلمة لا يصح النطق بها فى لُغَة العلم . إن التصادف معدوم ومحال فى هذا العالم الذى نرى فيه كل شىء خاضعا لقوانين الموازنة وقوانين الحساب ، التى عينتها إرادة غيبية ، وحكمة بالغة . وما الشىء الذى ندعوه التصادف إلا محصَّل القوات الغيبية التى لا نعلم عن صورة تأثيرها شيئا ، بل لا نعلم عن وجودها شيئا ، فى حين أنها تحفل حولنا . وبناءً عليه ليس من الممكن حمل هذا النظام الذى نراه فى المجموعة الشمسية على التصادف ، ولا بد من الاعتراف بوجود سبب أصلى عام مُنَظِّم لهذا النظام » . ويبحث الحكيم المشار إليه فى كتابه « نظام العالم » ، فى موضوع حركات السيارات وتوابعها ، وينتهى إلى قوله : إن اعتبار هذا النظام من آثار التصادف لا يصح أن يقال إلا

بنسبة واحد فى أربعة تريليونات . فإذا كان احتمال التصادف مستبعدا إلى هذه الدرجة ، وجب الاعتراف بأن كون الخلقة تحت تأثير التدبير والإرادة على نسبة أربعة تريليونات ($\frac{١٢}{١٠}$ × ٤) من الاحتمالات ، إلى احتمال واحد . وأقرب العلوم لليقين علم الرياضة فإن لم يعتمد عليه لم يكن مجال للشروع فى البحث .

اثبات الوجود المطلق

قد يُستغرب التصدى لإثبات الوجود المطلق بقياس ونسبة ، لـكن كافة المدرَكات البشرية ، إنمـا تحصل بالقياس ، فصحة كل فـكرة و بطلانها أيضا إنمـا يستدل عليهما عقلا بالقياس . بيد أنه كلما زاد التعمق فى المسألة اكتسبت قيمة يقصر أمامها العقل ، فتزول النسبية ، ويثبت واضحا أن الخليقة خاضـعة لتدبير وتصرف أزلى . ويحسن أن نقف عند حساب لاپلاس قليلا ، لنعطى بعض معلومات مجملة عن المجموعة الشمسية .

إن السيارات الموجودة فى المجموعة الشمسية تدور حول الشمس ، والتوابع المنتمية لـكل سيار (الأقمار) تدور حول سياراتها متتبعات لمداراتها على شكل قطع ناقص ، وفق القوانين التى اكتشفها « كپلر » و « نيوتُنْ » رصدا وحسابا . وحيث إن السيارات والأقمار كالشمس مالـكة لقوة جاذبة ، ولذلك تؤثِّر بعضهن فى بعض تأثيرا متناسبا تناسبا معكوسا لمربّع المسافة التى بينها ، فإن محاركها يصيبها خلل متنوع ، ويؤدى تكرر ذلك الخلل وتراكمه إلى تغيير المحارك وسقوط السيارات على الشمس ، والتوابع على متبوعاتها ، أو إلى خروجها من المجموعة الشمسية ، أو تصادم بعضهـا ببعض ، وحدوث أنواع المد والجزر والإعصار على سطوحها ، أو غير ذلك من الاختلالات والأخطار . وقد اهتم علماء الهيئة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بجميع هـذه الاحتمالات الهائلة ، واستنتج لاپلاس بعـد درس الجداول الرصْدية المضبوطة منذ عشرين قرنا ، أن مجموعتنا

الشمسية مصونة من أمثال هـذه المخاطر ، و بيّن أن التوازن حاصل — بالرغم من أنواع التـذبذب والتموج — من وقوع تلك الاضطرابات فى صورة سلبية و إيجابية ، ومضرة ومفيدة .

وقد أمكن فى الزمن الأخير وضع معادلَة بالحساب التفاضلى ، لتعيين جوهر[١٥] وسرعة ومسافة ثلاثة أجسام متحركة ، كالشمس والأرض والقمر ، بحيث يكون أحدها فى المركز ثابتا جاذبا ؛ وأحدها مشوشا ، والآخر متشوشا . بيد أنه ظهر بعد ذلك أن الرياضيات العالية غير كافية لوضع دستور يضمن النظام والتوازن لأكثر منها . أما القدرة الفاطرة فقدعينت جسامة الأجرام الموجودة فى المجموعة الشمسية ، وكثافتها ، و ثَبَّتَت أقطار مداراتها ، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة ، ولـكنها حكيمة ، وعيَّنت مدة دوران السيارات حول الشمس ، والتوابع حول السيارات بأدق حساب ، بحيث إن هـذا النظام المستمر منذ تريليونات من السنين ، بل أكثر ، يستمر إلى ما شاء الله ، ما لم يظهر سبب خارجى .

هذا النظام المستند إلى حساب يقصُر عقل البشر عن إدراكه ، والذى يضمن باستمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يُعد ولا يحص من أنواع المخاطر المحتملة ، لا يمكن أن يُحمل على التصادف فى نظر لاپلاس إلا باحتمال واحد فى أربعة تريليونات . وما أدراك ما أربعة تريليونات ! إنه عدد مركب من كلمتين ، ولـكن لا يمكن أن يحصيه المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلا ونهارا على أن يعد فى كل دقيقة مئة وخمسين عددا[١٦] .

لقد كان المعلوم من حركات السـيارات والأقمار فى زمان لاپلاس عبارة عن ٤٢ ، وكان لايتجاوز عدد السيارات الصغيرة المعلومة بين المريخ والمشترى أربعة ، والحال أن الرصدات الأخيرة دلت على أن أجزاء المجموعة الشمسية يتجاوز الألف . فإذا أجريت عملية الحساب الاحتمالى المبنى على ٤٢ حركة على ألف حركة ، بلغت نتيجة النسبة حدا لا يمكن أن يتصوره العقل . ثم إن هناك أمارات قوية على أن

بعض الكواكب الثابتة سيارات كسيارات الشمس ؛ والدليل على هذا أنه يشاهد فى قبة السماء كوكبان أو ثلاثة من الكواكب المضيئة يدور بعضها حول بعض ، وما هى إلا من السيارات التى لم تخمد إلى الآن . وعدا هذا يوجد بعض الكواكب التى يضعف ضياؤها أحيانا . ويقول علماء الهيئة إن بعض هذه الكواكب يجرى على وجهة تحولات طبيعية كيميائية ، أو أن جسما مظلما أى سيارا قد حال بيننا و بين هذه الكواكب المذكورة . إن أمثال هذه الحوادث السماوية نادرة ، ولكن هذه الندرة الظاهرة نفسها تدل على الكثرة ، لأن حيلولة جرم فى جسامة الزُّهرة أوالأرض ، لا يمكن أن يقلل ضياء الكوكب فى صورة محسوسة ، بل ينبغى أن يكون الحائل فى حجم المشترى على الأقل ، أوأ كبر منه ، وكذلك ينبغى أن يكون سطح مَحْرَك هـذا السيار منطبقا على خط الشعاع الممتد بين الأرض والكوكب حتى يحول بينهما . لأنه إذا وقع انحراف بقدر واحد فى الألف من الثانية بين سطح مَحْرَك سيار مفروض فى أقرب مجموعة لنا ، و بين خط الشعاع الواصل يستلزم التباعد بينهما بقدر ٢٠٠٫٠٠٠ كيلو متر ، وحينئذ لا يمكن السيار أن يحول دون رؤية الكوكب وتقليل ضيائه . على حين أن سيارات الكواكب فى السماء يمكن أن تتحول سطوح محاركها إلى تسعين درجة ، فيكون تحقق شرط الانطباق ضعيفا جدا . و برغم هذا فإن مشاهدة أمثال هـذه الحوادث تدل دلالة قوية على أن كثيرا من الكواكب ، لها مواكب كمواكب الشمس ، ومن جهة أخرى ثبت فى نتيجة التحليل الطيفى ، أن من الثوابت ما هو فى عُمْر شمسنا ، ومنها ما هو أضوأ وأقدم منها ، ولا يمكن أن يُحمل ما يرى من النظام فى حركات هـذه المنظومات منذ مليارات وتريليونات من العصور ، إلا على قوة مدبرة أزلية ، كما هو الأمر فى مجموعتنا الشمسية . بيد أنه كلما زاد عدد المجموعات زادت الاحتمالات ، لا فى سلسلة عددية ، بل فى صورة سلسلة هندسية . وسأشرح هذه الكيفية لغير المتوغلين فى الرياضة بمقال ربما لا يعتبر ممدوحاً :

إذا أردنا مثلا أن نسحب ورقة معينة من ٣٢ ورقة من أوراق اللعب ، كان احتمال سحب تلك الورقة واحـدا فى ٣٢ . ولـكن إذا أردنا أن نسحب تلك الورقة من مجموعة أخرى قد أجيـد خلطها لم يكن احتمال الفوز عليها بنسـبة ٢ × ٣٢ أى ٦٤ ، بل كان الاحتمال ٣٢ × ٣٢ = ١٠٢٤ . فإذا أردنا أن نسحب تلك الورقة بعينها من بين أوراق يبلغ عددها ٥٤ بضم ٢٠ ورقات من جنس آخر ، كان احتمال الوصول إلى تلك الورقة ١٠٢٤ × ٥٤ أى واحـــدا فى ٦٥ ألفا وهلم جَرًّا[١٧] .

فإذا فرضنا وجود خمسة وعشرين كوكباشبيهة بمجموعتنا الشمسية ، وقريبة منها من حيث القدم ، فى مَجَرَّتنا المحتوية على المليارات من الـكواكب ، وصرفنا النظر عن سياراتها الصغيرة ، وقبلنا أن احتمال هذا النظام الموجود بين كل منها هو بنسبة واحد فى تريليون ، كان هذا الاحتمال لخمسة وعشرين كوكبا $\frac{١}{(١٠)^{١٢ \times ٢٥}} = \frac{١}{(١٠)^{٣٠٠}}$

أى أن المقام فى هذه النسبة يحتوى ٣٠٠ مرتبة ، ومدلول هذا الرقم لا يتصور فى الخيال[١٨] ، فإذا كان هناك مليون من الـكواكب التى لهـا سيارات كمجموعتنا الشمسية ، كان المقام فى هـذه النسبة مكونا من اثنى عشر مليونا من المراتب ، وهذا ما لم يمكن تصوره وتصويره بأى حال .

ولما كانت قبة السماء تتجلى أمام أبصارنا بعظمتها وهيبتها ، فإنا قد نكتشف شيئا من أسرارها بما يتعلق به علمنا من بعض قوانينها ، ونقف على نكت كهذه محيرة للعقول . بيد أن أمثال هذه النكت الدقيقة تتجلى حتى فى أحقر الموجودات . ولا مشاحَّة أن دقائق الخلقة المتجلية فى عالم الروحيات والحيويّات ، أعلى بكثير من كل ذلك . وقد بينا فى إحدى حواشينا السالفة كيفية تشكل ذرات الأجسام وقطر البروتونات فى أتوم الإيدروجين ودور إلـكترون ، حاملا لـكهربية سلبية حول هذا البروتون المحتوى على الـكهربية الإيجابية ، وقطر پروتون الذهب أكبر

من هذا بثمانى عشر مرة ، ويدور حوله خمسة عشر إلكترونا . ومع هذا قطر أتوم الذهب مع إلكتروناته يعادل عشرة آلاف أمثال قطر البروتون[١٩] ، (ولا ينبغى أن يظن أن الأتوم مع توابعه شيء كبير ، بل هو ثلاثة من عشرة مليارات من المتر) . ونسبة القطر الوسطى لمدار السيار الأخير فى المجموعة الشمسية وهو نبتون ، يكاد أن يكون على هذا القدر بالنسبة لقطر الشمس [فقد كشف أخيرا سيار آخر أبعد من نبتون] .

يظهر من ذلك أن بعض هذه الأتومات الصغيرة بدرجة خارجة عن حدود التصور ، لها توابع متعددة كتوابع المشترى ، ولبعضها إلكترون واحد كالقمر للأرض . إذن فالأشكال والتركيبات التى نراها كلما تقدمنا نحو أعظم محسوساتنا ، واقعة كذلك فى أصغر ما تعلق به علمنا . « فاذهب وقس ما هو بحر الخليقة ! » .

وكذلك فإن القوة المكنوزة فى هذه الأتومات عظيمة إلى درجة لا يتصورها العقل ، كما دلت على ذلك الكشوف والحسابات الأخيرة ، و يقول الأستاذ الحكيم جُسْتاف لو بون فى كتابه «تطور القوة» : إن القوة المكنوزة فى جرام واحد من المادة يعادل «٥١٠» بيليون من الكيلوجرامترات [والكيلوجرامتر : هو القوة الفعالة الكافية لرفع الكيلوجرام من الثقل إلى متر] أى أن تلك القوة تعادل قدرة سبعة بلايين حصان بخارى [وكل حصان بخارى يعادل ٧٥ كيلو جرامتر] وقد حسب الحكيم الرياضى الفرنسى « بكرل » فى كتابه عن نظرية « آينشتين » أن القوة التى تستخرج من تحطيم جرام من أتومات المادة يمكنها أن ترفع ثلاثين مليونا من الأطنان (الطنّ يساوى ألف كيلوجرام) إلى ذروة برج إيفل [ارتفاعه ٣٠٠ متر] ، وهذا يعادل ٩ تريليونات كيلوجرامتر ، أى «١٢٠» بيليون من الحُصُن البخارية ، وهذه القوة لا تصل إليها جميع البواخر والآلات البخارية الموجودة فى الدنيا كلها . وهذه المقادير ، بالرغم من الاختلافات ، ليست فرضيات شخصية ، بل هى مستندة إلى تجارب وحسابات دقيقة .

أوَ ليس فى ظهور الأجزاء المادية متوازنة هادئة دون تعديل ماهية ، آثار باهرة لحكمة بالغة كفيلة بنظام المجموعة الشمسية ، فى حين أنه كان من المحتملات الطبيعية حدوث اضطرابات ومصادمات متقابلة بين الكهيربات الدائرة بسرعة كسرعة الضوء و بين كهيربات الأتوم ؟

ولا يقف الأمر عند ذلك ؛ فإن اتحاد أتومات الإيدروجين بمقادير مختلفة فى صورة قويمة ، يؤدى إلى حدوث أتومات أجسام بسيطة يتجاوز عدها التسعين ، وتتألف ذرات الأجسام البسيطة باتحاد بضع أتومات من نوع واحد ، وذرات الأجسام المركبة بامتزاج أتومات من أنواع مختلفة ، و ينشأ من ذلك مواد مركبة معدنية وعضوية لا يحصرها العد . ومع أنها جميعا من عنصر واحد فى الأصل ، وهو الإيدروجين فلكل منها خواص تختلف عن خواص الأخرى . والأجسام البسيطة و إن كانت تتجزأ من نفسها ، فإن علم الإنسان وقدرته لم يجدا سبيلا إلى تحليلها إلى الآن . وأما الأجسام المركبة فإنها عند تحليلها فى دائرة القوانين المعلومة يضيع مقدار ضئيل من أجزائها الأصلية ، وتعود إلى حالها الأولى ، وتواظب كهيرباتها على الدوران حول مداراتها القديمة . و إذا ما تكهرب الجسم تفترق أكثر الكهيربات من الأتوم الذى تنتمى إليه ، وتتجمّع حول القطب السلبى ، فإذا زال السبب الداعى للتكهرب تعود الكهيربات وتأخذ الأتومات شكلها الأصلى . و بوقوع الحوادث الكهيربية بصور أخرى ، يزول قسم من الكهيربات ، وتتحول الأتومات لتكون ما يقال له « إيون » ، وهنا لك تحصل تيّارات وأشعة متنوعة .

فهل يمكن إذن أن يحمل على الصدفة استقرار الأتومات على حالها الأصلى بتغير قليل بعد هذا الامتزاج والتركب والتكهرب ، وتأديتها إلى حوادث صالحة للخلقة ، وتطورها وتزيُّنها ؟ أجل ، هل يمكن حمل ذلك على تصادف أعمى ؟ إذن فأصغر أتوم آية باهرة كالنظام الشمسى من آيات القدرة الإلٰهية ، والحكمة السبحانية . وكل ما فى الكون من أصغر أتوم إلى أكبر شمس شاهد عادل ،

و برهان قاطع على وجود البارى تعالى . وكأن كل أتوم كصفر على يمين مقام النسبة التى وضعها لاپلاس لإثبات واجب الوجود بلسان الرياضة ، وتمجيده بها . « يُسَبِّحُ له ما فى السموات والأرضِ وهُو العزيز الحكيم » . صدق الله العظيم .

وفى كلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ على أنَّهُ الوَاحِدُ

***

إنى لأرجو العفو من قرائى لشغلهم ببعض الأرقام الموهومة . إنما أردت بهذه الصورة إثبات أن إنكار وجود الخالق المتعال ليس بعلم وعرفان ، بل هو جهل محض ، وعمى بصيرة ووجدان ، و إعطاء علم إجمالى بأسرار الخليقة ودقائقها ، لمن لم يدرس من القراء الكرام العلوم الحكمية .

ثم إن لهذا الحساب الاحتمالى موقعا عظيما فى حياة البشر . فإن ناپليون كان يقول إنه إذا رأى للظفر احتمالين من ثلاثة احتمالات ، عزم على الهجوم فى الحال . [وعلى هذا يجوز أن يقال إنه « حرصا وغرورا » لم يُراع هذا الاحتمال فى محاربة الروس سنة ١٨١٢ وحملة لاروتير سنة ١٨١٤ فمنى بهزيمة] . وكثير من التجار والماليين إذا رأوا للربح احتمالين ، ولمقابله احتمالا واحدا ، فإنهم يخاطرون ببعض ثرواتهم ، و إذا تحقق عشرة احتمالات فى مقابلة احتمال واحد ، فإن أشد المترددين والمتحرزين من الناس ، بل أهل التقوى منهم ، يخاطرون بما ملكت أيديهم فى المخاطرات . والتجارة مبنية على الحساب الاحتمالى . فشركات التأمين و بعض كبار محالِّ القمار مثل مونا كو مؤسسة على احتمال الربح بعشرين أو ثلثين فى المئة ، إن خسروا أحيانا فإنهم ينتهون إلى الثقة الكبيرة ؛ و بهذا السبب تدوم هذه المؤسسات النافعة والضارة . والذين يختارون احتمال القليل طمعا فى الربح الزائد ، يخسرون آخرا ، و يشتهرون بين الناس بالتبذير وسوء الأخلاق .

وهكذا الحال فى الأمور الاعتقادية . فالذى يتعامى عن الاحتمال القوى ، الذى هو قوىّ فوق ما يتصور ، و يبنى سعادة نفسه وقومه الأخروية على الاحتمال الأضعف ،

فهو منكر تبعا لهواه ، وميلا إلى المنافع والشهوات الدينوية ، فهو سفيه كل السفه ، كما هو جاهل ضرير ، وتعذيبه فى الآخرة لا يكون منافيا للعدالة .

فى السطور المتقدمة قد ذكرت الأجرام والأجزاء على الانفراد ، ولكن لو نُظِر بنظر الإمعان إلى جميع الأجسام المتولدة من امتزاج أجزاء الكائنات بعضها ببعض ، ومن اتحادها وتركُّبها وانحلالها وتصادمها ، وتموجها واهتزازاتها ، و إلى آثارها ، و إلى مناسبات الحوادث بعضها مع بعض وعلاقتها ، و إلى نظامها وانتظامها المتكفل ببقاء مملكة الخليقة وتطورها ، صار مخرج نسبة « لاپلاس » غير متناه — فليقل المتعصبون من الرياضيين ما شاءوا — فبناء على هذا يتحقق بصورة قاطعة وجوب وجود مؤثر مدبر حكيم قادر مطلق ، فيما وراء الحجاب .

اعتراض الماديين

لكن على خلاف هذه البداهة العلمية يدعى المنكرون « أن القوة والمادة ، أو الأثير الذى (٢٠) تكتسبان منه الوجود ، أزلى ، وأن المادة والقوة تدخلان فى أوضاع وتركبات لا يحصرها الحد منذ الأزل مصادفة ، وهذه الأشكال والتركبات تظل مدة طويلة لا تشبه شيئا ، ثم تتصادم مع غيرها فتتبدد ، ثم تتجمع . بيد أنه قد تتولد خلال الأوضاع والتركبات المحتملة التى لا يحصرها عد ، بعض علاقات ندعوها قانوناطبيعيا ، وكلما حصلت تلك القوانين تطورت الأشكال بتأثيرها ، و بلغت حالة مستقرة . وعلى هذا النحو تظهر الموجودات والحادثات فى العالم » .

إن ما أوردنا من الأدلة والحسابات فيما سبق ، لا يدع مجالا لأن يقنع أحد من أصحاب العقل والفهم بمثل هذا الادعاء ، بيد أنه يصعب نقضه بإثبات عكسه . والحق أن قوة السفسطة الوحيدة هى فى استنادها إلى المسائل التى يصعب استقصاؤها . و يعرف العالمون بمقدمات العلوم أن كثيرا من البديهيات يصعب إثباتها وتعريفها بالمنطق واللسان ، ولكن يعتقد الوجدان صحتها . وكذلك يصعب إبطال السفسطة التى يظهر بطلانها تمام الظهور ، و يشمئز منها العقل السليم

والطبع السليم ، بيد أنى سأستعين بمثال أورده « الأب مورو » من كملة أهل العلم ، فى الرد على هذه السفسطة [٢١] : لنفرض أن عددا من الآلات الموسيقية مطروحة على الأرض ، كما اتفق ، تترنم بذاتها دون أن يكون لها موقِّع ومدير ، بمقامات موسيقى الفارابى أو سَمزائى دده أو بتهوفن أو جونو ، من الألحان اللطيفة المؤثرة ، وتترنم من حين إلى حين بأصوات الجاز باند الحديثة المزعجة ، هل يقبل العقل أن تصدر هذه النغمات بمجرد هبوب النسيم دون أن يكون هناك ترتيب مستتر ، أو منظم ماهر ؟ لا جرم أنه لا يقبل أحد مثل ذلك الادعاء الباطل . فإذا كان الأمر كذلك مع هذه الآلات الموسيقية ، فهل ترى هذه الآلات التى لا يتجاوز عدها العشرات ، أعظم خطرا وأجل أمرا من مملكة الخليقة المملوءة بما لا يُحصى من أجناس المخلوقات ، وأنواع الموجودات ، وما يلازمها من الحركات والسكنات ، والاهتزازات والمناسبات والمصادمات والأفكار والمكالمات ، حتى يُحمل أمرها على التصادف ؟ !

إن صدق قضية من القضايا يتبين بقبول العقل والوجدان ، و بموافقتها للطبيعة والفطرة ، و إلا كانت سفسطة .

ظهور ذوى الأرواح فى الكواكب

أما ظهور ذوى الأرواح على الكرات ، فهذه المسألة لا تجد دعوى المنكرين المستندة إلى الأزلية مجالا للتطبيق هنا ؛ أولًا ، لأنه من المتفق عليه أن للكرات عمرا محدودا . وثانيا ، لأنه من المحقق أن الحالة النارية التى كانت عليها الأجرام فى بداية نشأتها ، لم تكن قابلة للحياة الحيوانية والنباتية . وثالثا لأن أهل العلم كما ذكرنا فيما سلف ، و إن لم يصلوا إلى حقيقة المادة ، قد كشفوا أكثر أسرارها ، وعلموا بكثير من دقائقها ، ولكنهم لم يجدوا فى جميع الأجزاء المادية إلا حركة قسرية تابعة لبعض القوانين والخواص ، ولم يجدوا فيها خاصة تدل على الآثار الحيوية ،

والتفكر والإرادة الذاتية ، ولم يمكنهم خلق أى عضوية كانت مع ما تيسر لهم من أنواع التحليل والتركيب ، وكل ما يبنيه الماديون على ما يتوهمونه من الاكتشافات التى ستقع فى المستقبل مردود بالوجوه . ورابعا يعتبر أرباب العلم ولا سيما الدكتور پاستور المشهور ، أن الحياة يمتنع ظهورها قبل أن تكون جرثومة ، ولهذا يقولون « إن الحياة تلد الحياة » ؛ إذن فظهور الحياة فى العالم الجسمانى يدل على احتياجها إلى واسطة لدنيّة غير مادية .

قد يقول المنكرون إزاء ذلك : « نعم إن الحياة لا تظهر من تلقاء نفسها فى الوقت الحاضر ، وهذا ثابت بالتجربة ، إلا أن ذلك كان محتملا قبل مئات الملايين من السنين ، حينما كانت الأرض حاوية للعناصر الغنية الفياضة ، وكان من الممكن أن تتولد الحياة بنفسها » . لكن كيف يجوز لهؤلاء — الذين يعتمدون على العلم ولو ظاهرا ، ويحتجون به فى إنكارهم — تكذيب نتائج التجارب العلمية ، وإبطال دلائلها بمجرد الاعتماد على الاحتمالات ؟ إنا نسأل جميع الحقوقين ، وكافة المناطقة ، قائلين : « فى أية محكمة يسمع مثل هذه القضايا التى تركت المجربات والمثبتات ، وبنيت على المحتملات والممكنات ؟ » .

من أجل ذلك يقول بعض العلماء الذين يحكمون ببطلان هذا الرأى : إن البروتوپلازم الحامل للحياة قد انفصل من الكرات التى كانت مسكونة من قبل ، متعلقا بأهداب الغبار السماوى المنتشر فى الجوّ ، ووصل إلى الأرض ، ظل مدة طويلة طائرا فى الجو ، ثم نزل بتيار مساعد إلى سطح الماء ، وهنا لك أحدث أول جُرْثومة تناسلت منها النباتات والحيوانات وتطورت[٢٢] .

ونحن نقول بازاء هذه الفروض : ألم تمر تلك الكُرات التى فرض كونها مسكونة قبلَ الأرض من الحالة النارية ؟ وهل كانت المادة التى تركبت منها غير المادة الموجودة لدينا ؟ إذا كان الأمر كذلك ، كان مصدر الحياة عالَمًا غير العالم المادى الذى نعرفه . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، أى إذا كان الحال على نحو كرتنا ،

وجب أن تفاض فيها أول نفحة من نفحات الحياة من تلقاء نفسها ، لا من عالم مادى بل من عالم لَدُنِّى ، بواسطة قوة غيبية ، وعلى كلا التقديرين يلزم الاعتراف بعالم غيبى ، وقوة مدبِّرة معنوية ، غير هذا العالم الذى ندركه .

وإذا آمنا بوجود مسبِّب أول لحدوث العالم ودوامه ، واعترفنا بأزليته وقدرته ، وتحقق لنا بهذه الأدلة العلمية والمنطقية أن مملكة الخليقة مبنية على الحكمة ، وجب علينا أن نصدِّق أنَّ هذا المسبِّب متصف بكمال الحكمة . وإذن يثبت عقلًا وعلما وجود خالق ، حكيم ، عليم ، مريد ، على النحو الذى جاءت به الأديان .

يقول بعض المعترضين إن اجتماع الحكمة والقدرة وأمثالها من الصفات فى المسبِّب الأول مُخِل بوحدته (والجهمية والمعتزلة ينكرون الصفات الإلٰهية من هذه الوجهة) ولكن هذا الذهاب باطل . فإن كون إنسان ما ذكيا وقويا وجميلا وكريما ، لايستلزم أن يكون ذلك الإنسان أربعة أشخاص ، وكذلك الشمس ، هى كبيرة وجاذبة وحارة ومنيرة ولكنها واحدة . وإذا ما تناولنا بروتون الإيدروجين ألفيناه أولا صغيرا للغاية ، وثانيا ألفيناه حائز القوة الكامنة الكبيرة ، وثالثا ألفيناه — كما يقال الآن — غير قابل للتجزئة ، ورابعا ألفيناه حائز الكهربية الإيجابية . فهل كون البروتون حائزا لهذه الأحوال الأربع ، مخل ببساطته ، أو مؤدٍ لأن تكون له أربع هويات مختلفة ؟ إن التعمق فى الفاسفة ينبغى ألَّا يؤدى الإنسان إلى التفكير خارج مقتضَيات الطبيعة الإنسانية ، وتدل مشاهداتنا واعتياداتنا على أن اجتماع الصفات والأعراض لا يستلزم تعدد الذات .

***

بيد أن العقل البشرى مع تصديقه هذه الحقائق قد يقول : نعم ، لابد لكل مصنوع من صانع ، ولكن لابد كذلك لكل أثر صنعة من مادة أولية . فالمهندس المعمارى أو الميكانيكى لن يستطيع أن يوجد شيئا ما لم يستمد من الطبيعة جميع ما يلزمه . إذن فما هى المادة الأولية للتكوين ؟ ينبغى للإنسان أمام هذه الوسوسة

أن يفكر ويقول : « إن جسمى ليس إلا أنموذجا حقيرا بين أنواع المصنوعات الربانية ، التى لا يحصيها العدّ ، وعقلى الذى يفكر ولكن يعجز عن إدراك كنه ذاته ، ليس إلا أثرا من آثار القدرة الفاطرة ، وذرة من نور حكمتها التى تغشّى الكائنات ، ولا أتصور أن خير آلة مما أقدر على اختراعها بفضل تدبير العقل ، وقوة أعضاء البدن ، تستطيع أن تفهمنى جد الفهم ، وتستقصى ما ينطوى فىَّ من دقائق الصنعة . بيد أن كل شىء بالنسبة لغير المتناهى فى حكم الصفْر وفى حكم لا شىء . وبما أن الآثار المحيِّرة للألباب ، تدل على أن القدرة والحكمةَ الإلهية غير متناهية ، أفلا يكون نصيبى من إدراك الخلقة فى حكم الصفر ؟ فكيف يجوز ويحق لى أن أدعى بأننى أستطيع أن أصل إلى أسرار خالقى وصانعى تمام الوصول ؟ وكيف يمكننى أن أدرك مادة الكائنات وهذه المادة ليس فى طاقتنا إدراك ماهيّتها . وإذا كان الإنسان يستطيع بقوة فنه استخدام الكهربا ، وهى من لطائف الموجودات التى لا تصل إليها اليد ، ولا تدركها الأبصار ، واستكمالَ احتياجاته المادية ، فهل يُتصور أن يعجز خلاقُ الكائنات فى أمر ما ؟ » فحينئذ يجد ما يزيل ارتيابه ، وما يسكِّن اضطرابه(٢٣) .

عقيدة الحكماء فى الله

لقد أطلنا البحث بتفصيل نظريات لابلاس وحساباته . بيد أن هناك من الحكماء المعتقدين بالألوهية من هم فى درجته إن لم يكونوا أعلى منه . وقد بحثنا عن أقوال « دكارت » و « هرشل » فى هذا الموضوع فيما سلف . وكذلك كان « نيوتُن » وهو من أكبر الرياضيين والفلكيين وأشهرهم ومن المعتقدين بالله ، بل كان من الزهاد المتقين . ومن المتواتر أن « داروين » الذى يُعد من مبدعى فلسفة التطور ، كان يستشير أحد الرهبان الإنجليكان من أصحابه ، قبل أن يقرر آراءه ونظرياته فيما يختص بتأليفها بالعقائد الدينية . ومن الثابت أن « پاستور » المشهور

بوضعه علم البكتريولوجيا ، وبا كتشافاته النافعة وخدمته العظيمة للطب وغير ذلك ، مما جعل الإنسانية مدينة له بالشكر ، كان من المؤمنين بالله .

وهذا الفيلسوف سبنسر الذى أكمل نظرية التطور وإن لم يضعها ، مع أنه لم يكن معدودا من المتدينين ، كان يعتقد أن للخليقة سرا مطلقا لا نهائيا ، وحيدا متعاليا عن الإدراك ، وأن هذا السر الأعظم من شأنه أن يرسل من يعمل على إصلاح العالم . وهذا الحكيم وقد جُمِعت مؤلفاته الفلسفية فى عشر مجلدات ، يقول فى مبحثها الخاص بـ « ما لا يعرف » (Inconnaissable) عن إمكان التأليف بين الدين والعلم ، ويقرر أننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك ، وأن الأديان كانت أولَ من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقنتها ، ولكنها نُشرت فى أول الأمر ممزوجة ببعض الأباطيل ، ثم زادت هذه الأباطيل شيئا فشيئا ، حتى وضعت العقائد الدينية على هذا النحو . ومن حيث إن العلم والدين يتحدان حول هذا الأساس المتين ، أى الإقرار بهذه القدرة المطلقة التى لا تدرَك ، فمن الممكن إذن تأليف ذات بينهما . ولو أن هذا الفيلسوف أمكنه أن يستقصى الدين الإسلامى ، وأن يعرف أن الإسلام يصف خلاّقَ الكائنات بقوله : « كل ما خطر ببالك وهو هالك ، فالله سوى ذلك » ، لأقر بأن الإسلام دين خالص فى أساسه وصاف .

وتحدث هنرى پوانكارى وهو من أكبر الرياضيين من المتأخرين وأشهرهم ، فى مقاله عما يبذل الفلكيون من الجهود بلا انتظار نفع مادى أو تحقيق أمل دنيوى لما يتجشمونه من المشاق والمتاعب . ثم قال : « إن هذا السعى وهذه المشقة إنما هو خدمة لأمر عظيم وهذا يثير الروح ، فيقربها إلى خالقها » ؛ كما قال فى مقال آخر : « إن ما فى هذا العالم انتظاما واتزانا لا يمكن أن يُحمل على الصدفة » . فهل تتضمن هذه الأقوال شيئا غير الاعتراف بالخالق ؟

وقد كتب كميل فلامار يون الذى توفى حديثا فى كتابه « الله فى الطبيعة » ،

ما ننقله على النحو الآتى : « إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات ، فإن الله يتجلى لنا بمفهوم روح دائم موجود فى حقيقة كل شىء . ليس هو سلطانا يحكم من فوق السماوات ، بل هو نظام مستتر مهيمن على كافة الموجودات والحادثات ، وليس هو مقيما فى جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة ، بل إن الفضاء اللانهائى مملوء به ؛ فهو موجود مستقر فى كل نقطة من الفضاء وفى كل لحظة من الزمان ، و بتعبير أصح هو قيوم لا نهائى منزَّه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعاقب . . . . ليس كلامى هـذا من جملة عقائد ما بعد الطبيعة المشكوك فى صحتها ، بل من النتائج القاطعة التى استُنبطت من تلك القواعد الثابتة للعلم كنسبية الحركة وقدم القوانين . إن النظام العام الحاكم فى الطبيعة ، وآثارَ الحكمة المشهورة فى تكوين كل شىء ، والحكمة البالغة المبسوطة المنتشرة كضياء الفجر والشفق فى الهيئة العامة ، لا سيما الوحدة التى تتجلى بقانون التطور الدائمى ، تدل على أن القدرة المطلقة الإلهية هى الحافظة المستترة للكون ، هى النظام الحقيقى ، هى المصدر الأصلى لكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها » .

لم يكن قائل هذه الأقوال متدينا ، لأنه كان ينكر الموسوية والعيسوية ولا يعرف الإسلام ، ولكن كان هو وأمثاله معتقدين بوحدانية الله ، فكانوا موحِّدين . أليس قول الحكيم « إن الفضاء اللانهائى مملوء به . . . هو موجود مستقر فى كل نقطة من الفضاء ، وفى كل لحظة من الزمان » بتصديق ، بألفاظ أُخَر ، للرب الذى نؤمن به بنص القرآن أنه محيط بكل شىء ، وأقرب إلينا من حبل الوريد ، قديم ودائم ؟ أوَليس رؤيته الحكمة فى التكوين والوحدة فى قانون الطبيعة واعترافُه بأن القدرة المطلقة الصمدانية هى المؤثرة والحافظة الحقيقية للموجودات ، بإقرار وتسليم بالصفات الإلهية التى جاء بها الإسلام ؟

ومما يستحق الذكر أنه يلاحَظ فى كلام فلاماريون أن الله تعالى حاضر بذاته فى كل مكان ، وهذا يوافق الفلسفة الوجودية ، وفى الجملة عقيدة أهل التصوف فى

حين أن علماء الإسلام الحقيقيين يَرَوْن أن كيفية الحضور والإحاطة تكون بعلم الله وقدرته ، وأن الذات الإلهية فوق الإدراك على الإطلاق فى كل خصوص ، ولذلك يجتنبون تطويل الكلام فى هذا الموضوع . والحق أن افتراض وجود الله فى كل نقطة من الفضاء ، قد يؤدى إلى التصور والاعتقاد بأن الهوية الربانيةَ عبارة عن أثير أو قوة أو روح أو فكر ، وهذا ليس من شأنه أن يوضح سرَّ الخليقة ، كما أنه يخالف الاعتقاد الأصلى الإسلامى الذى يقول : « ليس كمثله شئ » و « لم يكن له كُفوا أحد » ، ويجعل ذات الله تعالى فوق القياس وفوق الإدراك على الإطلاق . والإسلام مع أنه يأمر بالإيمان بوجود الواجب و بصفاته السلبية والثبوتية ، لا يدعى النفوذ فى ذات الله وحقيقته .

وهناك غير ما ذكرنا بين الأسلاف والمعاصرين من الحكماء مَن يؤمن بالله و بوحدانيته ، بحيث إذا نظر الإنسان إلى أقوال هؤلاء المدققين والمفكرين ، وأنعم النظر فى آرائهم ، ثم نظر إلى من يتبرءون من دينهم بغير علم ولا درس ، تبعا لأهوائهم وانقيادا لما يسمونه « الموضة » فحسب ، يحار حيرة عظيمة . وأنا لا أستشهد بأقوال حكماء الغرب إلا إلزاما لهؤلاء ببراهين مشاهير المفكرين ، الذين لا تربطهم بديننا أية رابطة ، وبهذا تتضح حقّية اعتقادنا ، ويبين فضلها واضحا جليا « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

آراء الماديين فى الله

قد يعترض المعارضون بأنى أخص بالذكر أقوال الروحيين من العلماء ، وأهمل الماديين . ولكنى أرى ، مع نقصان تدقيقاتى أن أدلة الرُّوحيين أقوى من أدلة غيرهم ، وليس موضوع كتابى مقايسةَ الأفكار الفلسفية المتخالفة . ومع هذا فإنى أزيد على ذلك أن أكثر الفلاسفة الماديين استفادوا من معاصريهم من الرياضيين والفلكيين والكيميائيين والطبيعيين فى وضع نظرياتهم الإلحادية ، فى حين أن

أصحاب هذه التجارب والاكتشافات كانوا مؤمنين بالمسبِّب الأول ، وهؤلاء الذين ذكرت أسماؤهم فيما سلف أكثرهم من المتبحرين فى العلوم والفنون . ثم إن مقارنة هذه الآراء ومباحثتها أمر يترتب على أولئك الذين يتجردون مما توارثوه من الاعتقاد عن أجدادهم ، قبل أن يتخذوا قرارهم النهائى . فهل فعل المنكرون الذين ظهروا بيننا ذلك ؟ ومع هذا فإنى أذكر وأناقش بعض الماديين اجتنابا لسوء الظن بأنى ألتزم أحد الفريقين . ولكن تتبع جميع الآثار الفلسفية وتلخيصها أمر غير هين ، ولهذا أكتفى بنقل ما يأتى من كتاب فلاماريون (الله فى الطبيعة) مع بعض آرائى الشخصية . ولا شك أن هذا الحكيم الشهير لم يحرِّف أقوال المعارضين ، ولم يسند إليهم ما هم منه براء .

يقول بوخنر Buchner عميد الماديين فى العصر الماضى ، فى كتابه (القوة والمادة): « من الممكن إرجاع ظهور الأجرام السماوية وانتشارها وحركاتها إلى أصول بسيطة من الممكنات مادةً فلا يبقى إذن محل للاعتقاد فى قوة خالقة مشخصة »[٢٤] ، فى حين أنه لا يمكن استقصاء أى سر من أسرار الخلقة استقصاء تاما ، وأصحاب أشهر النظريات الخاصة بخلقة العالم (Cosmogonie) يحملون تكوُّن العالم على سبب مجهول ، أو على سر لا يُعلم ، أو على قدرة مسبب مدرِك ، ولم يذكر حكيم من الحكماء تلك الأصول البسيطة التى يبحث عنها بوخنر . حقا أن هناك من القوانين المكتشفة ما يجله الماديون ، ولكن يعترف مكتشفو هذه القوانين أن لها واضعا حكيما ، ومن هؤلاء نيوتن وهرشل ولاپلاس و پوانكارى وفلاماريون وكم من أطواد علم الفلك والرياضة ومن أصحاب المذاهب والاكتشافات فى تلك العلوم مَن يؤمنون بأن للعالم خالقا .

أما بوخنر فيتعمد الإلحاد والإنكار قائلا : « إن ما يشاهَد من عدم الانتظام فى العالم ، وما يقع من القضاء والاضطراب فيه ، يقوِّض دعائم النظرية التى تستند إلى تأثير مؤثر تابع للقوانين ، حتى لو كانت نتيجة الذكاء البشرى » ، فى حين أن جميع

أرباب العلم يقفون حائرين أمام دقة النظام الذى يرونه فى الكائنات . ثم يقول ذلك الفيلسوف : «إذا أمكن حمل خلقة العوالم ، أى الأماكن المقتضية للناس والحيوانات، إلى قوة مشخِّصة مفكِّرة ، فينبغى استقصاء هذه النقطة : ما اللزوم للفضاء الخالى الوسيع الذى تسير فيه الشموس وتوابعها ؟ وما السبب لكون السيارات الأخرى من مجموعتنا غير مسكونة (وهو ما لم يتحقق بعد) .

إن بعض الماديين يرون فى كون سرعة الضياء فى الثانية ليست أكثر من ٣٠٠ ألف كيلومتر ، وفى كون القمر ليس له حركة محورية ولذلك يقابل الأرض بوجه واحد ، ما يدل على نقص الحكمة البالغة ، و يتخذون ذلك وسيلة لإنكار سر الخلقة . وكل ذى ضمير يفهم ماهية هذه السفسطة التى تعادل فى غرابتها الدعوى « بأن ليس هذا العالم على النحو الذى أريده ، فلا خالق له » أليس قبول هذا الادعاء الغريب بلا أدنى تأمل ، أغرب ؟ !

ثم يتصدى بوخنر لإثبات إلحاده قائلا : « لا يمكن أن يفهم أحد أن الكائنات يديرها ذكاء سرمدى مع وجود قوانين ثابتة للطبيعة ، لأنه لا يمكن تأليف هذا بذاك ، و ينبغى إما أن تسيطر تلك القوانين أو يسيطر ذلك العقل الأبدى» . هل يدل وجود القوانين فى مكان على وجود واضع وحافظ لتلك القوانين ، أم يقتضى عدمه ؟ يظهر أن الرجل يظن الخالق الكريم مَلِكا مستبدا من أمثال نيرون ، ولذلك يتصدى لإنكاره أو خلعه ، فى حين أن الذين اكتشفوا قوانين الطبيعة من أمثال « كپلر » و « نيوتُن » يؤمنون بواضع تلك القوانين ، بكل إجلال وتكريم .

إن المنكرين الذين كفروا بالله يصورون الطبيعة التى يريدون تأليهها كما يلى ، فهى على قول فوخت : « القوانين الطبيعية وحشية وغير قابلة للانحناء ، فهى لا تقر لا بالخُلق ولا بالشفقة » . وعند فوربباخ « لا تجيب الطبيعة دعوات الناس وتظلماتهم ، وتردها كلها إلى أصحابها بلا رحمة» . فليشاهد المحدَثُون من الأخلاقيين ، الذين يحاولون إنكار وجود الله لإنذاره المنكرين والمشركين والمجرمين بجزاء

الآخرة ، كيف يتصور الماديون معبودَهم الطبيعةَ ، وكيف يصورونها ؟

ويمكن أن يُلخص رأى الماديين فى القوة على هذا النحو ، يقول مولسكوت : « ليست القوة إلٰها محركا و مهيجا ، أو وجودا مستقلا عن جوهر الأشياء المادية ، بل خاصة مرتبطة بالمادة بأتم ارتباط فى صورة دائمة (وقد سقطت هذه النظرية بعد التجارب الأخيرة) ، والقوة التى لا تكون مرتبطة بالمادة ، ليست إلا فكرا واهيا . فالآزوت والكربون (فحم) والإيدروجين والأكسجين والكبريت والفوسفور الداخلة فى العضوية البشرية ، مالكة لهذه الخاصة التى هى مرتبطة بها ارتباطا أبديا . و بناء عليه فالمادة حاكمة على الإنسان » . وينبعى إزاء هذا الادعاء أن نسأل مولسكوت : بأية مادة يرتبط الضياء والحرارة والكهربا التى تصل من الشمس إلى الأرض ، وتظهر تأثيراتها على الأرض ، والتى ينبغى اعتبارها لذلك فى حكم القوة ؟ .

يقول بوخنر « إن الإنسان محصول المادة ، وليست له خاصية فكرية على النحو الذى يصوره الروحيون » . ويقول « بروسيه Proursais » : إن الإنسان عبارة عن الأعضاء البدنية ، ومجموع فعاليتها ، وليست النفس الناطقة ، أى « أنا » ، شخصيةً مخصوصة ، بل هى حال ونتيجة مشوَّشة لقوى متخالفة ، يمكن أن تسند إلى أية كيفية أو قابلية من كيفيات المادة وقابليتها . والذكاء والحساسية عمل من أعمال الأجهزة العصبية ، كما أن تحويل المأكولات إلى الكيلوس والدم من أعمال الأجهزة الهضمية والتنفسية . وما الروح إلا نظرية واهية ، لا تستند إلى أية مشاهدة ، ولا يمكن الاستدلال عليها بأى بحث وتحقيق ، بل هى فكرة مجردة عارية عن كل معنى ؛ والاعتقاد بأن فى الإنسان شيئا غير مجموع أعضائه عبث ، كجميع أبحاث مابعد الطبيعة » . ويقول بوخنر : « ليس العقل والفكر والروح موجودات مستقلة ، بل هى محصّلة قوى متخالفة ، أوهى محصول التأثير المشترك للمواد المختلفة ، التى تحوى القوات والخواص العديدة » . ويقول تيسو : « العقل قوة من قوى المادة

ولـكن ليست تلك القوة بسيطة ، بل هى مجموع القوى البسيطة للمواد التى تتحد لتشكيل العضوية البشرية . وما دامت المادة لا تكون فى الجسم البشرى ، فلن يبلغ العقل حالة حادثةٍ ، ولـكن فى المادة ميل طبيعى للدخول فى هذه العضوية وتشكيل العقل » .

أسألـكم بالله ، ما معنى هـذه الكلمات ؟ و إلى أى حساب أو تجربة يستند الذين يقولون هذا الكلام ؟ وهل يصح الاعتماد على هذه الأقوال أكثر من الاعتماد على حكايات ألف ليلة وليلة ؟(٢٥) يقول بوخنر أيضا : « إن الـكبد والـكليتين تفرز مادة مرئية ، دون أن نعلم نحن بذلك . وأما الحركة الدماغية فلن تكون خارج إرادتنا وإدراكنا . والدماغ يفرز قوة بدل المادة . ويجيب كميل فلاماريون قائلا : « ما معنى إفراز القوة ؟ ولماذا لا يفرز الدماغ كيلو مترات أو فراسخ ؟ » وأنا أزيد على ذلك فأقول : مِن حيث إنه لا روح ولا نفس ناطقة ، فمن الذى يشعر بما تفرزه الحركة الدماغية ؟ ومن الذى لا يشعر بها ؟ وما معنى كلمة « نحن » التى يستعملها ذلك المتكلم ؟ ويبدو أن الفيلسوف يقر مرغما من قبيل إنطاق الحق بـ « أنا » الذى ينكرها وقد أنكرها سابقا ؟ ثم إنهم كانوا يقولون إن القوة لا تنفصل عن المادة ، فأين مادة القوة التى يفرزها الدماغ ؟

قال فلاماريون : إنه قرأ فى جريدة طبية مقالة فيها : « الفكر : تركيب يشبه حمض فورميك ، والتفكر تابع للفوسفور ، والفضيلة والصداقة والشجاعة ما هى إلا تيارات كهربية للعضوية الإنسانية » ، وقد سجل فلاماريون هذا الكلام فى كتابه مستهزئا . من الغريب أن البرهان الوحيد الذى يسرده الماديون لإثبات دعواهم هو قولهم : « كل فكر لا يمكن إثباته بالتجربة والحساب فهو مردود » . ولـكنهم لا يقولون لنا إلى أى حساب رياضى ، و إلى أية تجربة علمية يستندون لإثبات تلك الآراء . لقد ذكرنا فى مقدمة هذا الـكتاب أن فى النصرانية دستورا يقول « أومن به لأنه محال » . والظاهر أن الذين يعتقدون تلك الأقوال يقولون « نؤمن بها ، لأننا لا نفهمها » .

هذه أيها المنكرون أقوالُ زعمائكم وأدلتهم وسفسطةُ أساتذتكم التى تؤمنون بها ، بلا إمعان فى فكر ولا نظر ، ولا تدقيق ولا مطالعة . إن ما يدَّعيه هؤلاء من أن دعواهم ونظرياتهم علمية ٌ ليس من الحقيقة فى شىء . فليس من الممكن بالحساب والتجربة إثبات أن حدوث المجرات والشموس والكرات ، واستمرار نظام الكائنات مبنىٌّ على المصادفة ، وأن فكر البشر وذكاءه ليسا إلا اهتزازات الأجزاء المادية وإفرازاتها . ولو كان الأمر كما زعموا لما كان فرق بين نظرياتهم وبين الاعتقاد بأن جوبيتر يسيطر على العالم من ذروة أوليمب . ثم إن نظرية مبنية على مجرد النفى والإنكار تثقل على الطبع والوجدان ، وتخالف الشعور ، بل إن مثل تلك العقيدة تدعو إلى اليأس ، وتقوض دعائم الأخلاق .

لاشك فى أنه لايجوز الإيمان بآلهة تهوَى الغانيات من النساء ، وتبطِش بالرُّقباء ، أو تحكم على أولاد آدم بالبغض والخصومة آلافا من السنين ، بل ما دام التناسل على ظهر الأرَضين ، لتفاحة اقتطفها آدم دون رضا صاحبها ، وغير ذلك من أنواع الآلهة . وأما الحىُّ القيوم ، القديرُ الحكيم ، الرحمن الرحيم ، الذى لاتدركه الأبصار ، فالإيمان به من مقتضيات الفطرة ، وأمرٌ معقول علمى . فإن كون كل مصنوع له صانع ، أمرٌ لازم طبيعةً ، وحتمٌ عقلا وعادة . وآثار الحكمة فى الصنعة تدل على اتصاف الصانع بالعلم ، كما أن عظمة الكون وفخامته تستلزم جلال صاحبه وكبرياءه .

بحث نظريات الإلحاديين

بعدَ أن ألقينا نظرة على أقوال الفلاسفة الماديين فى القرن التاسع عَشَر ، يقتضى أن نبحث نظريات الإلحاد التى يبنونها على أحدث الاكتشافات . وأتخذ أساس بحثى فى هذا الموضوع الدكتور جُستاف لوبون ، المعروف بأبحاثه وتجاربه فى جميع شعب العلوم الطبيعية . وهذا الأستاذ يميل إلى الإثباتيين ، ويستخف بالمذاهب

الفلسفية القديمة ، وحتى بالمادية العصرية ، لأنه مفكر مستقل الرأى ، وهو لهذا السبب يعتبر من العلماء المحايدين ، غير المرتبطين برأى ثابت . ثم إنه لا يبدأ فى نظرية التكوين كأكثر الحكماء ، من السحابيات وأكوام الشُّهُب ، بل من حدوث القوة وتشكل المادة .

تدل النظريات التى يبنيها جستاف لوبون على تجارب وتحقيقات كثيرة ، ويحاول إثباتها بأقوى الأدلة فى كثير من كتبه على « أن المادة والقوة تنشأان من الأثير ، وتعودان إليه ، وأن الأتومات تتولد من الزوابع السريعة الدوران ، التى تحدث فى داخل الأثير ، وأن الأثير غير قابل للوزن ، وغير مادى » . وهذه الفرضية تستدعى الاعتراض الآتى قبل كل شىء ، وهو « إذا كان الأثير غيرَ مادى ، وغيرَ قابل للوزن فى صورة مطلقة ، فإنه لا فرق بين استخراج مادة قابلة للوزن منه و بين إيجاد شىء من لا شىء » .

والحق أنه ما دام الاستناد على العقل والعلم يلزم أن يقبل أن حاصل ضرب الصفر فى عدد محدود يكون صفرا ، وتكاثف الشىء غير الموزون يلزم ألّا يؤدى إلى حصول وزن . فإن تجاهل العلماء الذين يرفضون بل يستهزئون باعتقاد العلماء الإلهيين ، الذين يقولون : « إن الخالق خلق العالم من العدم » الحقائقَ العقليةَ والمتعارفات الرياضية ، أمر جدٌّ غريب . يقول العلماء الإلٰهيون : « إن الله تعالى خلق الكائنات بقدرته وحكمته التى تفوق إدراكنا » ولكنهم لا يزدرون البديهيات العقلية ، والأحكام العلمية ، بدعوى اكتشافهم سر الخليقة .

ويتصدى جستاف لوبون لإثبات كيفية تكاثف الأثير بسرعة الدوران ، متمثلا بما تكتسب الأجسام الخفيفة من الصلابة ، عند ما تدور بسرعة عظيمة . حقًّا أن كل كمية ، مهما صغرت ، تزداد قيمتها بتكبير مضروبها ، أو بتكثير أمثالها ، ولكن الصفر لا يكتسب قيمة إلا إذا ضرب فى اللانهائى ، فى حين أن أهل العلم يقولون إنه ليس فى الكون سرعة مادية أكبر من سرعة الضوء[٢٦] . و بناء

عليه لا تكفى هذه الفرضيات لإثبات تكاثف الأثير غير القابل للوزن .

وللتخلص من هذا الاعتراض ينبغى تعيين مقدار ودرجة المادية والكثافة القليلة التى يمكن أن تكون موجودة فى الأثير . إنه بناء على بعض الحسابات ، لو كان الأثير ألطف من الهواء بتريليون مرة ، لوجب أن يتبدد هواؤنا النسيمى ، وأن تبلغ الحرارة عندنا وفى القمر ٣٨٫٠٠٠ درجة بسبب ما يحدث من الاحتكاك بين هذين الجرمين و بين الأثير والمقاومة التى تعمل عليهما . [وحرارة سطح الشمس عبارة عن ٥٠٠٠° إلى ٦٠٠٠° درجة] . والحال أن هواءنا النسيمى باق منذ ملايين من السنين ، وكرتنا الأرضية والقمرية عارية عن مثل تلك الحرارة الشديدة المحرقة . ثم إن جُستاف لوبون يقول : إن السحابة التى أحدثت مجموعة شمسنا ألطف من الهواء بسكستليون مرة $(١٠)^{٢١٠}$ فى حين أن للسحابيات كثافة ، لأنها حاصلة من اختلاط الغازات المتشكلة من بروتونات كثيفة للغاية ؛ ومن تصادم هذه السحابيات بعضها مع بعض أو مع أكوام الشهب يحدث الاختلال والحرارة العظيمة التى تحدث منها العوالم . أما الأثير فلا يقوم بمقاومة محسوسة فى سير الأجرام السماوية . فبناء على هذه الحسابات والملاحظات لا تكون مبالغة إذا قيل إن نسبة كثافة الأثير للهواء هى $\frac{١}{١٠^{٢٠}}$. و بناء على هذه النظرية يُحتاج لحصول كيلوجرام من الماء ، إلى حجم من الأثير أكبر من الشمس بعشرة آلاف مرّة ، وهو حجم أكبر من الأرض « ١٫٣٠٠٫٠٠٠ » مرة ، مع أن كيلوجرام من الماء بالنسبة للأرض كمية حقيرة للغاية ، لأن الناس الذين يعيشون على الأرض والحيوانات والبواخر والماكينات البخارية تستهلك كل يوم تريليونات من الكيلوجرام دون أن تشعر منابع المياه والأنهار والأبحار بشىء من جراء ذلك الاستهلاك . إذن فمن أين ينبع الأثير الذى يكفى لتشكيل كافة العوالم؟ ربما يقال تجاه ذلك « إن مسائل الخلقة المرتبطة بالأزلية واللانهائية ، لا يصح

البحث فيها عن المقدار والمقياس عددا و بعدا وزمانا » ، ولكن هذا القول لا يزيل الشبه ، ولا يحل العُقَد .

فى الفيزيقا بديهة معروفة باسم واضعها ، يقال لها قانون كَرْنو : لنفرضْ وجود حجرتين متجاورتين ، درجة الحرارة فى إحداهما ٣٠° وفى الأخرى ٢٠ ، فإذا وصّلنا الحجرتين بفتح الباب الذى بينهما ، سرت الحرارة من إحدى الحجرتين إلى الحجرة الباردة ، فإن كانت الحجرتان متساويتين حجما هبطت حرارة ٣٠ خمس درجات وارتفعت حرارة الأخرى من ٢٠° إلى ٢٥° درجة ، وحدث التوازن بينهما على هذا النحو . ولكن لا يمكن أن تهبط حرارة إحدى الحجرتين من ٢٠° إلى ١٥° وأن تصعد حرارة الأخرى من ٣٠ إلى ٣٥° ، ومن حيث إن هذا المثال يمكن تطبيقه على جميع الحوادث ، فقد وضع كَرْنو قانونا عاما وهو : « أن سير القوى يقع من الضغط (Tension) العالى إلى الضغط المنحط » ، وهذا القانون من البديهيات كما اتضح من المثال السالف الذكر .

ومن حيث إنه لم يكن فى الفضاء قبل ظهور الكائنات المادية شىء غيرُ الأثير ، وكان هذا الموجود لطيفا للغاية ورا كدا وباردا (درجة الحرارة فوق الطبقة النسيمية هى « — ٢٧٣ » تحت الصفر) ، أفليس هذا الأمر يخالف القانون البديهى السالفَ الذكر ، أن ينشأ فى حضن هذا الأثير بروتونات أكثف (منفردة) من الهواء بكتريليون مرة $(10)^{18}$ وأكثف من الأثير على الأقل $(10)^{48}$ مرة ، وظهور الكواكب النارية إلى آلاف من درجات الحرارة من تركب تلك البروتونات وامتزاجها ؟

قد يسرد الحكيم المتفنن إزاء ذلك احتمالا آخر ، إزالة للتناقض ، أن القوانين التى كانت عند ظهور العالم واعتلائه قد تنعكس فى عهد فساده وانحطاطه ، ولكن إذا أنكِرت البديهيات العقلية والقوانين العلمية بناء على الاحتمالات ، لا يبقى مسند للمباحثة والمناظرة ؛ وظاهر أن الحكيم المشار إليه تأمل ذلك بعين الإنصاف ، إذ يقول فى النهاية : إن تلك الزوابع قد حدثت بتأثير سبب غير معلوم ، وقوة مجهولة . ونحن نوافقه على هذه الحقيقة

نظرية الأتوم

وإذا قبلنا ، بصرف النظر عن هذه الاعتراضات المحقة ، أن أتومات الإيدروجين ، حدثت على ما يقول هذا الحكيم ، وتتبعنا سلسلة التكوُّن ، رأينا أنه باتحاد بعض هـذه الأتومات ينشأ أتومات الأجسام البسيطة (ويتفق متأخرو الحكماء على أن العناصر نشأت من امتزاج أتومات الإيدروجين فى صورة يتعسر تحليلها حتى الآن) وتبقى هذه الأتومات منفردة فى بعض الأحيان ، وتتحد أحيانا ، فتتشكل الذرة (المولكول) ، ثم تنشأ الأجسام البسيطة من اتحاد ذرات من جنس واحد بتأثير الجاذبة والدافعة ، تاركة بينها مسامّ كبيرة نسبة لجِرمها . وتنشأ الأجسام المركبة من امتزاج أتومات الأجسام البسيطة المختلفة فى نسب مختلفة ، وتنشأ المواد العضوية والأملاح وغيرها . وهـذا الارتباط القويم بين أتومات الإيدروجين لتشكل العناصر ، وامتزاجُ أتومات الأجسام البسيطة لحدوث الأجسام المركبة (ويمكن فكها وتحليلها بالأصول الكيميائية) وكل ذلك نتيجة توافق فى ماهيات مختلفة ، ولكن ما حقيقة هذه التوافقات ؟ لو كانت نتيجة جاذبية بحتة للزم اتحاد الأتومات بمجرد ظهورها ، ولزم أن تتشكل من كافة الأجزاء كتلة واحدة . . فقوانين التوافق بين الأتومات ووقوع الامتزاج بينها فى نسبة معينة ، لا تزال مجهولة لدى الحكماء .

يُفهم بالتحليل الطيفى أن السحابيات حدثت من اختلاط غازات الإيدروجين والهليوم والنبوليوم ، وأن بعض الكواكب والسيارات حدثت من انجذاب أجزاء السحابيات إلى مراكزها وتكاثفها ، أو من تصادم السحابيات بعضها ببعض ، أو بأكوام الشهب . ويشاهد أن كل مجموعة كوكب تحافظ على استقرارها بقوانين الجاذبية ، ولكن ما أصل القوة الجاذبة التى تشكل الأجسام وتكثف السحابيات ، وتثبت السيارات حول الشموس ، والأقمارَ حول السيارات ؟ وهذا أيضا مجهول .

تظهر النباتات والحيوانات بعد ما تتكون السيارات وهبوطِ الحرارة إلى الاعتدال فوق سطحها . فما هى القوة النامية والحيوية التى فيها ؟ يقول جُستاف لو بون مجيبا عن ذلك : « فى الوقت الذى نعجز فيه عن إيضاح السبب فى سقوط حجر ، لا يجوز البحث فى حوادث الحياة ، فهذه مسألة ينبغى أن تُتركَ لأهواء علماء ما بعد الطبيعة » .

يظهر من كل ذلك ، أن العلم و إن كان قد اكتشف أشكال الأشياء وظواهرها وعلاقات بعضها ببعض ، و بعض القوانين التى تخصها ، إلا أنه لم ينفذ نظره فى كنهها وحقيقتها ومنشئها ومبدئها ، وأما الدين فإنه لا يعارض ما اكتشفه العلم عن المكونات والحادثات من أسباب ظاهرية ، بيد أنه يرى فوق تلك الأسباب الظاهرية قوات غيبية مؤثرة تنتهى إلى « ذى القوة المتين » . و إذن فالدين والعلم متحدان إلى حد ما فى مسألة التكوين ، ولكن جستاف لو بون ، و بعض العلماء لا يرون هذه القوات المجهولة فوق الإدراك ، ويدعون أنها سيمكن حلها و إدراكها ، فلذلك يمتنعون عن الاعتقاد فى مسبب الأسباب ، ومن هنا ينشأ النزاع والجدال .

هؤلاء المنكرون يقولون : ليس الخالق إلا موجودا موهوما خلقه الناس فى عقولهم ، على نحو ما يفكرون . حاشا وكلا ! وهم يَنْسون أن الإنسان لا يكاد يدرك نفسه ، حتى يشعر بذلك الوجود بدافع وجدانى فِطرىّ ، و يبحث عنه . و إذا ما استثنينا بعض الغافلين المعاندين ممن يحاربون ضمائرهم ، رأينا الإنسانية بأجمعها متحدة فى هذا الشعور . إنما يعجز العقل البشرى عن إدراك ماهية هذا الوجود القدسى ، وعن تصور حاله وشأنه ، فتتملكه الحيرة ، و ينشأ من ذلك أنواع الخلاف .

فكيف إذن يستقصى حضرات الفلاسفة المنكرين أسرار الخلقة ؟ وكيف يوضحونها ؟ إن الأثير وهو مصدر الموجودات فى نظرهم شىء غير مادىّ ، وغير موزون ، ثم إن له أساسا ماديا يصلح أن يكون قِوام جميع المكوَّنات ! فهو من جهة لطيف إلى الغاية ، ومن جهة أخرى صلب إلى الغاية . وله قوة وقابلية لنقل الجاذبية

وأمواج الضياء والكهربا وما عداها من السيالات ذوات السرعة المختلفة المندفعة من كل الجهات بلا انقطاع ، بيد أنه عاجز عن أدنى مقاومة لأصغر الأجرام المادية السماوية وأعظمها . هو نصف إله ، جامع الأضداد ، أبو العجب . وهذا هو الوهم والخيال بعينه . استعملتُ فى شأنه تعبير نصف « إله » لأن هذا الشيء الذى يُعتبر مصدرا للعوالم ، محتاج إلى قوة مجهولة من الخارج لتحركه ، ثم إنَّ تجشُّم ما يصدر عنه واستقرارَه ، محمول على المصادفة لا على إرادته !

إن فكر البشر يقبل و يدرك كون الشيء فوق الإدراك ، لأن الإنسان يجد حوله ما لا يدركه حالا ومستقبلا ، فهو يعترف بضميره و بدلالة شعوره وتجربته ، وما مر عليه من الحوادث ، بوجود أشياء خارجة عن إدراكه . فهل الإيمان بقدرة فاطرة فوق الإدراك أوفق للفطرة أو تخيل مجموعة من الأضداد وافتراضها سر الخليقة ؟!

ومع هذا ، فإنى لست من الذين يَرَوْن وجود الأثير وظهور العوالم منه خارجَ الإمكان . ولكنى أرى فيه لاهوتية حتى تكون لها هذه الخواصّ ، وحتى أراه كصورة مبسوطة ومنتشرة للقدرة السبحانية ، لأن الأعراض والأوضاع التى تسند إليه ، فيها من التضادّ والتناقض ، ما يخالف تعقلنا الفطرىّ ، وما يغاير أحكام علومنا اليقينية . ومن حيث إن إدراك البشر لا يسع مثل ذلك الوجود الجامع للأضداد ، فمن الضرورى اعتباره لاهوتيا ، وفوق الإدراك ، حتى لا يُظن أنه عبَث .

ثم إن العقل لا يقبل إمكان ادعاء الكشف علما عن كُنْه السبب الذى حرَّك الأثير منذ زمن طويل لا يحيط به التصور . ولكن الأمر كما ذكرنا فيما سلف ، أن المدعَيات المجردة يصعب جرحها عقلا ومنطقا ، لعدم استنادها إلى سبب معقول ، فأمرها إلى العقل والطبع السليم ، يقبلانها أو يردانها .

إن « جستاف لو بون » لا يكتفى فى أمر التكوين باعتقاد دينى بسيط ، و يؤمل إمكان كشف المجهولات جميعها يوما ما ، ولذلك يشجع الناس على تحرى الحقيقة ،

مشيرا إلى أن فى ذلك فوائد عظيمة ، كتوسيع العلوم والفنون والتعمق فيها ولكن هل من دين يؤمن بالخالق ، يمنع معتنقيه من تحرى الحقيقة وتوسيع نطاق المعلومات ؟ لا توجد أمثال هذه الأحكام فى مذهب من المذاهب ، ولا سيما الإسلام ، فإنه يدعو إلى الاستدلال فى الإيمان ، ويحفز الأمة إلى اكتساب العلم والعرفان ، بكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية .

وهناك جماعة من الفلاسفة ومنهم « سبنسر » السالف الذكر ، يعتقدون فى سرٍّ غير مُدْرَك ، ترجع وتنتهى إليه جميع الأسباب والقوات العاملة فى تكون العوالم ، ويبجلون ذلك السر كلما مر ذكره . ويُرى هذا الرأى قريبا من الاعتقاد الإسلامى فى أول الأمر . إلا أن هؤلاء الفلاسفة يقعون فى الإفراط والمبالغة فى مفهوم « فوق الإدراك » ، فيقولون بأن إدراكهم لا يتسع للصفات الإلهية التى تؤمن بها الأديان ، فينكرونها . ولكنى لا أدرى لماذا لا يقبلون ما تؤمن به الأديان من الصفات ، فى حين أنهم ينعتون ذلك السر الأعظم بأنه فوق الإدراك ، و بأنه المطلق ، والوحيد ، أى أنهم يسندون إليه الصفات . والصفات التى يؤمن بها دين الإسلام فى الخالق المتعالى عن إحاطة العقول ، هى صفات يلزم من فقدانها وجود أضدادها [٢٧] ، فإذا كان الشىء غير أزَلىّ وأبدىّ كان حادثا وفانيا . و إذا لم يكن قويا وقادرا كان ضعيفا وعاجزا ؛ و إذا لم يكن حيا وعالما كان ميتا وجاهلا . فهل السر الذى يعتقده الفلاسفة كذلك ؟ و إذا لم يكن كذلك فليكن لهم وحدهم [٢٨] .

يُستنتج من هذه البيانات والملاحظات ، أن المنصفين من الحكماء الطبيعيين يقبلون و يسلمون بتأثير بعض قوى خفية فى الأصل والأساس ، مع تأثيرات الزمان فى أمر تطور أنواع المكوّنات أو انحطاطها ، وليس بين هذا الرأى و بين التعاليم الدينية خلاف . والدين الإسلامى مع أنه يخبر بأن بعض القوات الخفية الإلهية عاملة فى أمر الخلقة ، فإنه لا ينكر أبدا تأثير الزمان فى الانقلابات الكونية .

لكن بعضا من هؤلاء الحكماء كما ذكرنا آنفا ، وعلى رأسهم الدكتور جستاف لو بون ، يؤملون اكتشاف هذه القوات المجهولة وحقائق الأشياء يوما من الأيام . و بعضهم — وينبغى ذكر سبنسر على رأسهم — يرون فى أمر الخلقة سرا لا يُعلم ، ولا يمكن أن يحيط به الإدراك . ولو استطاع العلم اكتشاف مسألة واحدة تتعلق بأصل الأشياء وماهيتها لصح عقد الأمل على نحو ما يأمل الدكتور جُستاف لو بون . ولكن ما فعلَه العلم إلى اليوم ، هو عبارة عن إيضاح الحوادث والحركات والسكنات — مستندا إلى الأسس التى وضعها وافترضها الحكماء من تلقاء أنفسهم — دون أن ينفُذ فى كنه شىء أو فى ماهية قوة . لا شك أن العلم قد ارتقى ارتقاء عظيما فى زماننا ، واكتشف كثيرا من الأشياء ، بيد أن كلّ ذلك خاص بالأشكال والحادثات ، ولكنّه لم يقترب بتاتا من المسائل المتعلقة بالأصل والجوهر ؛ فلا حق له فى أن يدعى قائلا : «قد اكتشفنا هذا السر أو ذلك ، وسنكشف غيره وغيره حتى نصل إلى أصل الأصول فى آخر الأمر ، فالأصوب والأوفق للعقل ، الفكرةُ القائلة إن فى أمر الخلقة سرا عاليا يعجز الفكر والذكاء البشرى عن الإحاطة به .

وإذا ما قُبل وجود القوات المجهولة ، فليس مما يغاير العلم قبولُ القوة المنظِّمة (Force régulatrice) التى توحِّد وتنظِّم ما بها من التأثيرات المنفردة والمتفرقة فى هَدَف واحد ، أى فى تكون هذا العالم واستقراره وتطوره .

والعلم الذى يرى حاجة إلى مثل هذه القوة المنظِّمة والمصوِّرة فى الحياة الحيوانية ، إنما يعترف بعجزه عن الوصول إلى حقيقتها(٢٩) . ولا ندرى كيف يُستغنى عن مثل هذه القوة العالية فى أمر تكوُّن العالم . بل إنه ليس هناك مانع علمى من الاعتراف بمثل هذه القوة الفاطرة التى ينبغى أن تكون مسيطرة على سائر القوى ، وأن تكون سببا أصليا لها .

ثم إن العلم يعلَم أن كل نطفة حاملةٌ حمولة خصائص الجِبلَّة ، والحمولة محتوية على لُبّ الأوصاف التى سيحملها كل ذى روح ينشأ منها . إذن ، فبأى حق

يجوز الإدعاء بأن القوة والعلة الأصلية للتكوين تكون محرومة الحياة المنبثة فى المكوّنات وما لها من الأوصاف . و إذا تقوض هذا الادعاء لم يبق فى يد المنكرين سند لإنكار الصفات التى ترشد إليها الأديان عن خالق المكوّنات جلّ شأنه (٣٠) .

ومن تأمل هذه الملاحظات بروح الإنصاف ، يعترفْ بأن ليس بين العلم والدين وخاصة الدين الإسلامى خلاف أساسى فى أمر التكوين .

* * *

إنه مما يُتخذ وسيلة للتعريض بالدين ، عبادةُ الله والخوف منه . و إذا كان الشعر البديع ، والتأليف النفيس ، والتصوير الجميل ، والتمثال الرائع ، والاختراع النافع ، والاكتشاف المهم ، والمنقبةُ الحماسية ، والخدمةُ الوطنية ، تُلقى فى قلوب الناس احتراماومحبة لفاعلها ، فكيف يُعتَبر من العبث تقديسُ الإنسان خالقَ العوالم وحافظها ، والمنعم على نفسه ؟ وقلب الإنسان يفعم شكرا وثناء لمن يحسن إليه بأقل جميل ، فكيف لا يَحْمَدون من وهب لهم نعمة الحياة بالدعاء والعبادة ! والناس يجتنبون ارتكاب المناهى والفواحش والقبائح خشية من الحكومة والمحكمة ، فكيف لا يخافون أحكم الحاكمين وعالم الغيب والشهادة . وما هو الحظ فى إنكار مثل هذه الأحكام والعقائد الدينية المكنونة تحتها الفوائدُ الاجتماعية والاستهزاء بها ؛ وما السبب والضرورة لإنكارها ؟ لا أفهم ذلك .

ثم إن الطبيعيين يقولون كما ذكرت آنفا : إن العلم والفلسفة واجبهما الفحص عن أسرار الطبيعة بالأبحاث العقلية ، والتجارب العلمية والعملية ، فينبغى لهم أن يجتنبوا ويتباعدوا عن التفسيرات البسيطة المستندة إلى ما بعد الطبيعة ، وإلى النظريات المتعالية عن الإدراك ، أى العقائد الدينية . وإن كان قولهم هذاخاصا بهم ، مقصورا على أنفسهم ومساعيهم فلنسكت عنهم . وأما الأمر الذى لا يرون الاشتغال به لازما فبيان الرأى والنقد فيه مغاير للمنطق والإنصاف . وعلى هذا يكون السعىُ إلى إبطال العقائد المقدسة التى قد أدّت وظيفة منهاج السلامة منذ آلاف

السنين ، بالهجوم على الأسس الدينية ، والإخلالِ بالقواعد الأخلاقية فى ضمنها ، وإفساد الشبان و إضلالهم فى النتيجة ، ظلما عظيما و إثما كبيرا على القائلين به ، ولا سيما جُسْتاف لوبون ، فإنه ليس من منكرى الحقيقة التاريخية ، وهى أن « المدنية قد نشأت من الدين » .

الماديون عندنا

والآن يجدر بنا أن نتكلم قليلاً عن الفلاسفة الماديين الذين نشئوا بيننا :

عرفت فى الأيام الأخيرة رجلا معروفا بين جماعة المثقفين . وانتقل الحديث بيننا إلى موضوع توارث خصائص الجِبِلَّة ، أو النزوع الجِبِلِّى (أنا أستعمل هذا التعبير مقابل Atavisme وهو توارث الأبناء والأحفاد للخواص المعنوية من الآباء والأجداد) وكان منى أن أوردت كلمة لكميل فلاماريون عن الروح ، فاستغرب هذا المثقف كلامى ، وقال : وهل للروح وجود ؟ ولم يكتف بهذا ، بل زاد الطين بلة بأن استأنف حديثه قائلا : « يتكلمون عن الروح ، و يبحثون عن الخالق ، دون أن يفكروا فى أن هذه العوالمَ وهذه الدنيا التى نعيش فيها أزلية ، ولا محل للبحث عن خالق لها » . ويُستدل من هذه الكلمات على أنه يجهل علم الهيئة ، وأن اشتغاله بعلم طبقات الأرض ناقص سطحى ، كاشتغاله بالفلسفة ؛ إذ لو كان له بعض المعلومات الابتدائية لَعلم أن للشموس وتوابعها عُمُرا محدودا ، وأن من الشموس ما هى فى سن الشباب ، وماهى فى سن متوسطة، وماهى طاعنة فى السن كشمسنا، وأن فى مجموعتنا الشمسية أجراما على أحوال مختلفة ما بين نارية (كالشمس) وقريرة (كالقمر وأمثاله) ولعلم بما مر على قشرة الأرض من الأدوار ، ولعلم أيضا أن كلَّ معرَّض للتحول حادثٌ وفان ، ثم إنه لو تتبع رقى العلم لَعلم أن أحدث النظريات تقول على خلاف الاعتقاد السائد إلى وقت قريب : إن المادة لا بد فانية زائلة . فلما أشرت إلى ذلك انتقل بالبحث بكل لباقة إلى موضوع التوارث ، وعندئذ

سألته عن الشيء الذى تنتقل به الخصائص من الأجداد إلى الأحفاد ، بطنا بعد بطن ، لأننا إذا اعتبرنا الهوية الإنسانية عبارة عن المادة ، فجميع الذرات والأتومات التى فى البِنْية الحيوانية تنحل وتتبدل فى مدة قصيرة ، فاعترف بالعجز ، مع أنه كان من الممكن أن يجيب بجواب مّا ، غير أنه صرح بأن رأيه فى عدم وجود الروح لم يتزعزع مطلقا ! وأما عن الخالق جل شأنه فقد قال : بما أنه لا يمكن إثباته علميا فلا يدعى عدمَه ، ولا يصدق وجودَه ، وعبَّر عن رأيه هذا بكل غرور . وقد كان هذا الرجل من المدرسين !

إنه ليتضح من أقوال هؤلاء الناس أن ليست لهم فكرة صحيحة شاملة فى العلم والإثبات العلمى والتجريبى ، فإن العلوم الرياضية تثبت دعاويها بالحساب ، والعلوم الحكمية يُبَرهن على أحكامها بالتجارب ، وثمة أيضا علوم اجتماعية تتقرر مباحثها وأحكامُها وقواعدها بالدراسات التاريخية ، والمشاهدات اليومية ، والقياساتُ والاستدلالات والمباحثات النظرية ، بل بالسنوحات الوجدانية . والمباحث الاعتقادية داخلة فى الصنف الأخير ، أى فى العلوم الاجتماعية . ولكن هؤلاء المثقفين لا يريدون أن يحمِّلوا أنفسهم مشقة إثبات دعاويهم الواهية بالاستدلال العقلى فى إثبات الخالق والروح ، بل يريدون إثباتهما بالتجارب التى تقع فى المعامل العلمية . ويالها من مغالطة عمياء وضلال مبين !

وكنا نتباحث مرة مع رجل مُدَّعٍ للعلم ، فانتقل بيننا الكلام من قول الفيلسوف دكارت « إنى أفكر فأنا موجود » ، إلى بحث الفكر والروح ، فقال لى الرجل : « ما دام الدماغ موجودا فى الرأس بكمال عظمته ، أفليس من العبث الانقياد لأمثال هذه الأوهام ؟ ولِمَ نطلب فى الظلمات الشيءَ الموجود فى رأسنا ، وأمام أعيننا ؟ » فأجبته عن ذلك قائلا : « أمرادكم من الدماغ المخُّ المادى الذى نتغذى نحن بما يخص الحيوانات ، ويتغذى بعض الوحشيين فى أفريقية أو أوستراليا بما يخصنا منه ؟ » فقال : « نعم ، إن الفكر والعقل مكنوزان فى حُجَيْرات الدماغ ،

ومنقوشان فى تلافيفه» ، فطلبت منه الدليل ، فخاطبنى كأنما يقرر لى درسا فى التشريح ، قائلا : « إن للدماغ ارتباطا بكافة أعضاء البدن ، وكل نقطة منه ، وإنَّ التأثر الذى يحدث فى أى عضو من أعضاء البدن من جراء تأثير خارجى ، ينتقل إليه باحساس الحاسة ، ثم ينقل الإرادةَ الحاصلة بهذا السبب إلى الأعضاء ، فإذا طرأ مرض أو انقطاع على الحجيرات الدماغية التى تمثل الحواسّ الإنسانية ، أو الأعصاب والأوردة التى تربطها بأعضاء البدن ، اختلت الملكة أو الحاسة التى تمثلها اختلالا مؤقتا أو دائما » . وقد كنت أعلم بكل ذلك بتفصيلاته ودقائقه . بيد أننا لو صرفنا النظر عما اكتشفه العلماء من الدقائق ، وما صادفوه من أسرار الخلقة فيما يختص بمسائل الحس والإدراك والإرادة ، وقبلنا هذه الكلمات بكامل بساطتها ، فهل يكون ذلك برهانا على أن الحقيقة الحيوانية والشخصيةَ البشرية عبارة عن قطعة اللحم التى نسميها الدماغ ؟

إذا نظرنا إلى جهاز تلغرافى رأينا اللاقطة والمرسلة مرتبطتين بأسلاك إلى البطارية الكهربية والخطوط التلغرافية ، وتستمد أسلاك الارتباط قوتها من البطارية ، فتتلقى الأخبار من الخارج أو ترسلها إليه ، فإذا انقطع أحد تلك الأسلاك أو انكسر أحد المسامير التى تربط تلك الأسلاك بالجهاز فلا سبيل للمخابرة . وفى هذا تمثيل بسيط للدماغ المادىّ فى الجسم البشرى . فهل يتصور أن حقيقة المخابرة التلغرافية عبارة عن هذا الجهاز ؟ لا شك أن الذى لا يعلم شيئا عن النظريات الكهربية قد يبحث عن عواملَ أخرى لهذه الكيفية ، ولربما ينتقل فكره من جهة إلى عامل المخابرة أو إلى المهندس الذى بنى تلك المؤسسة ، أو إلى المخترع الذى اخترع التلغراف ، أو من جهة أخرى إلى البطارية الكهربية أو الأجزاء الكيميائية التى فيها . بيد أن الفكر يصل بعد إنعام النظر إلى السيال اللطيف أو إلى القوة التى نسميها الكهربية التى لا نعرف ما هيتها .

وهناك مثال أوضح من ذلك وهو : أن الزنبرك يؤدى إلى حركة تروس

الساعة ، والرقاص يتكفل بانصراف قوة الزنبرك فى دائرة التدريج ، وتنتظم الحركة . وإذا استقصينا الأمر وجدنا أن الساعة تمشى من جراء قوة المرونة المنطوية فى الزنبرك ، وأن تأثير الرقاص منبعث ومتولد من قانون طبيعى . وفى باطن كل شىء سيالٌ لطيف على نحو هذه القوة الخفية . وكذلك العقل والروح . إن البشر لم يكد يكتشف الكهربية من آثارها حتى كوَّن عنها فكرا ، واستعملها فى مصالحه ، فى حين أنه أدرك الحياة منذ ظهوره ، ولم يكوِّن فكرا عن كنهها ، ولهذا سيبقى كنه القوة الغيبية التى نسميها الروحَ مخفيا إلى النهاية . إن الجسم والأعضاء وفى عدادها الدماغ ، كأجهزة دائرة التلغراف والزَّنبُرك والرقاص . أما النفس والروح فكالكهربية والمغناطيسية والمرونة وأمثالها من اللطائف المكنونة فى الطبيعة ، ولكن الروح لَدُنِّيَّة قُدْسية أكثر من كل ذلك . أظن أن الأديان تتصور الروح هكذا . فهى لا تفرض الروح شيئا مجسَّما كالدماغ المادى ، الذى يكتسى غطاء ساحرا يخفيه فى ناصية من الجسم ، ولا شك أن ما تقول الأديان أسمى وأوفق للعقل . فإن الذين يزعمون أن الشخصية البشرية عبارة عن الدماغ ، مثَلهم كمثل الذين يظنون أن حقيقة التلغراف هى اللاقطة وأمثالهم من خفاف العقول . ومع هذا فإنى أريد أن أذكر هذه الأمثلة تفهيما أن وراء الأشياء والحادثات حقائقَ خفية ، ولا أريد أن أقول إن الروح أو النفس الإنسانية مطابقة لهذا التصور . فلا محل للاعتراض لأنه لا جدال فى التمثيل .

وكان لى صديق من الأطباء الأذكياء الحاذقين ، توفى قبل سنين . وكان يعتقد أن كثيرا من منابع الحياة مجتمع فى الِبنْيَة الحيوانية ، وأنه ليس لعموم البدن روح منفردة ، وأن الحياة الحيوانية هى مجموع القوات الحيوية الموجودة فى حجيرات البدن ، وكان يشبِّه كيفية الحياة بثقل الجسم الجامد ، وهو عبارة عن مجموع ثقل الأتومات التى يحتوى عليها هذا الجسم ؛ ويشبِّه الروح الحيوانى بمركز الثقل ، ويرى أن لكل حجيرة حيوانية كافة الأحوال والخواص المندمجة

والمشهودة فى الحياة ، بمقدار جزئى لا يكاد يُشعر به فى حال انفرادها ، ولكن تظهر آثار الحياة باتحاد بلايين البلايين من الحجيرات فى الجسم الحيوانى .

وهذا القول من الفرضيّات المعلومة للماديين بتعبير آخر ، ويُرى أوفق للعلم من رأى المنكرين الذين سبق ذكرهم آنفا ، ولكن يظهر عند التعمق أنه أيضا ليس بمطابق للحقيقة ، لأن الأجسام الجامدة ، سواء كانت من حيث مقدارها أو مركز ثقلها ، مرتبطة بأجزائها ارتباطا شديدا وتابعةٌ لها بصورة قطعية ، وهذه الأجزاء إن قلّت أو كثُرت ، تغيرت صورة تركُّبها بتغير الثقل العمومىّ للجسم ، وموضع مركز الثقل ، والجسم ما دام حافظا جسميته وحائزا مقدارا من أتوماته مجتمعة ممتزجة ، لا يزول عنه الثقل ولا يتغير مركزه . والحال أن الأمر بعكس ذلك فى الجسم الحيوانى ، فالقسم الأعظم من أجزاء البنية الحيوانية والحجيرات يتبدل دائما ، وليس للحيوان ذى الروح علم بذلك ولا هو متأثر منه . حتى إذا مات الحيوان بسبب من الأسباب والحجيرات موجودة ببدنه ، ظلت هذه الحجيرات محافظة على حياتها مدة يسيرة ، ثم تحول بعضها إلى الهيكل العظمى ، و بعضها إلى الجماد ، وانفسخ بعضها بعد زوال ارتباطه بالبدن ، وانقلب إلى حشرات أخرى .

فيُفهم من هذا أن ما فى الجماد من مركز الثقلة ومحصلة القوى تابع كلّها للأجزاء ، وحياة الحجيرات فى أبدان الحيوانات تابعة لحياة تلك الحيوانات . فعلى هذا لا تشبه العلاقة التى بين الحياة الحيوانية و بين الحجيرات البنيوية ، الرابطة التى بين الجسم الجامد و بين أتوماته أصلا ، فهما متضادتان تضادا تاما ، و بناء عليه فتشبيه الدكتور غير موافق وقياسُه قياس مع الفارق . وكذلك إذا قُبل فى الحجيرات ماهيةٌ حيوية غير مادية ، فالتمسك بما يتعذر إثباته بالحساب والتجربة من الفروض للحياة الحيوانية لا يُفهَم سببُه وحكمتُه .

نظرية موناد

ونظرية «موناد» التى وضعها «لايبنز» فى العناصر الحيوية ، خليق بالقبول إلى حدمًا . لكن يلزم على هذه الحال أن يكون «الموناد» شيئا مغايرا للأتومات المادية مغايرة تامة وأن يكون توليده بالنفوذ فى العضوية النباتية والحيوانية بتقدير الله وتدبيره ، وهذا أمر أقرب للعقل ، وإلاّ ، أى إذا كانت العوالم حاصلة من «الموناد» ، وحادثة من اتحادها واجتماعها بالصُّدْفة فيلزم ألّا يكون فرق كبير بين الجمادات والحيوانات .

ويمكن أيضا أن يكون الموناد حدث من الأثير ، لكن على أسلوب وصورة غيرأسلوب تشكل الأتومات والإلكترونات(٣١) .

ويحسن بنا أن ندرس مسألة الحياة ، مستفيدين من هذه الوسيلة : إنه من الأمور الواقعة عند تشكل النطفة فى رحم الأم ، أن الأجزاء المادية تتراكم وتتركب فى صورة منظَّمة مطردة على أنموذج معين لإيجاد الجنين . ولا شك أن هذه الكيفية ليست من آثار التصادف الأعمى . بل إن هذه الحالة والكيفية التى تتكرر على هذا النحو كنتليونا أوسكستليونا من المرات فى العام فى جميع التولدات الحيوانية ، لا بد أن تكون تابعة لقانون وقاعدة ، والقانون والمصادفة ضدان لا يجتمعان . ولا يمكن حمل هذا التشكل على مهارة النطفة وحذقها . و إذا تصورنا النطفة ذات روح فى حالة بُدائية ، كان من العبث القول بأنها فى حالتها الابتدائية تفعل ما لا يمكن أن يفعله وما لا يمكن أن يفهمه ذو روح فى حال كماله . فمن المحال أن تتشكل النطفة وتتطوّر جسما حيوانيا دون أن تكون خاضعة لمؤثر معنوى . كما أنه لا يُتصوّر حلول الأجزاء المادية التى تجول فى الماء والهواء فى الرحم بواسطة التنفس والتغذى ، واجتماعها حول النطفة بميلها الطبيعى ، وتدبيرها و إرادتها لتشكيل الجنين ، لأن الاكتشافات العلمية تدل على أن الأجزاء المادية تتحرك حركة قسرية خاضعةً لقوانين معينة

ولكنها مجردة من الإرادة الذاتية . والكيميائيون يركبون هذه الأجزاء المادية على النحو الذى يريدونه ، وفى النسبة التى يعينونها ، لاستحضار المواد المتنوعة والأملاح ، بل الحجيرات ، ولكنهم لا يستطيعون إنتاج أبسط الآثار الحيوية . أما افتراض أن الأجزاء المادية تكتسب حالة غير مادية لتشكيل العضوية ، فهو قبول للروحانية . والعلماء باعترافهم أن الماديات والروحيات ليست مشتركة المقياس ، يسلّمون بكون هذين الموجودين يختلفان تمام الاختلاف فى ماهيتهما فى هذا العالم ، إلا أنهما قد يتحدان فى مصنع القدرة الإلهية ، لأنهما من آثار مُنشىء واحد ، ومن صنع صانع واحد[٣٢] .

إذا تقدمنا فى بحثنا خطوة أخرى ، رأينا أن الطفل لا يكاد يولَد حتى يريد أن يحافظ على حياته ، فيطلب الغذاء . ومن حيث إن الطفل البشرى لا يكاد يولَد حتى يقابَلَ بعناية خاصة ، فإنه يكون عند تولده فى غاية العجز . ولا يقدر على إفادة ألم جوعه أو ألم اغترابه من العالم العالى الذى هبط منه ، إلا بالبكاء . أما المهر والحَمَل وأمثالهما فبعد التولد بدقائق تقوم وتَدْرُج وتشم الأطراف ، حتى تصل إلى حِضن أمهاتها ، ثم تجدّ وتكدّ حتى تجد أثداء أمهاتها ، وترضع ألبانها ، بتحريك شفاهها بأصعب الحركات التى قد تصدر منها فى طول حياتها على هذا النحو . وتتناول غذاءها ، وكلُّ ما تنال حين تولدها من المعونة المادية هو لحس أُمّهاتها . ولا يتصور أن قد علمتها أمهاتها فى أذانها ما ينبغى لها أن تفعله ، لأن كلا منهما عاجز عن إفهام هذه الحركات الدقيقة بعد ما يكبر أيضا . ومنذ نشأة الجنين فى رحم أمه ما كان يقدر أن يقوم على أرجله ، وما يتناول غذاءه بفمه بل بسُرته . فمن ذا الذى علم هذا الحيوان كل ذلك[٣٣] ؟

إن القول بأن الغريزة (الحسّ الطبيعى) تفعل هذا ليس إلا كلاما عاميا لا قيمة له . فإن اعتبار أن الغريزة التى لا يمكن إنتاجها فى المعامل ، ولا الحصول عليها بالمعادلات الجبرية أساسا للحياة ، يعادل فى غرابته استكناه أسرار الخلقة ،

وسلسلة الأسباب لا من مبدئها بل من وسطها ، لأن الغريزة أمر حادث ، فلا بد من عطفها على علة متقدمة .

فكيفية الحياة ليست محصول الأجزاء المادية، أومحصول القوة المادية المرتبطة بها ، أوحصيلتهما ، كما أنها ليست محصل القوات الحيوية التى فى الحجيرات البدنية ، بل هى أثر سرٍّ عميق وحكمة لدنيّة . ويتبين من ذلك أن الملاحظات التى أوردناها فيما سبق عن السبب الأول تنطبق على هذه المسألة ، وأن الحياة التى ليست إلا قسما من أقسام ذلك الكون ، راجعة إلى المسبب الأول بعينه ، ومنتهية إليه . إنه لا بد من الاعتراف بأن نفحة من نفحات القدرة والحكمة لمسبب الأسباب ، هى التى أوجدت الحياة ، وما يسميه الروحيون موجودا لطيفا ، هو هذه النفحة الإلهية . وهذا يطابق بيان القرآن الكريم الذى يقول : « وَنَفَخَ فيه من رُوحِهِ ، وجَعَلَ لكمُ السمعَ والأبصارَ والأفئدة » .

إن نشوء الحيوان من جهة جثته وقوته البدنية سريع ، بيد أن قواه الفكريةَ لا تتكشف ، بل تنحصر ملكاته فى حفظ حياته و إبقاء نسله ، وكلما كبِر تناول بدل اللبن الشعيرَ والحشيشَ ، ثم يشعر بالحاجة إلى التناسل ، ويفهم المخاطر ويحسها فيتجنبها ، ويشعر بالحلو والمر ، والوجع واللذة . وقد يتلقى تربية بسيطة من الإنسان بفضل حافظته ، وكل شىء عبارة عن ذلك .

أما الإنسان فنموه البدنى بطىء ، بيد أن خواصّه الروحيةَ كثيرة ، ومستعدة للنمو والظهور ، ومتقدمة نحو التطور الفكرى ، وليس هذا التطور مقصورا على المحافظة على الحياة وطلب اللذات . والإنسان يتلذذ بكل بديعة من بدائع الطبيعة ، ويتأثر من كل حال من حالاتها ، وهو مُقْدِم ، مدبرٌ فى أمر جلب النفع ودفع الضر ، متحرٍّ لأسرار الخلقة والحياة ، متفكر فى حقيقة الكائنات والحادثات ، وقد أدى تحفظه وانتفاعه واستقصاؤه على هذا النحو، إلى اختراع الكتابة والمنطق والحساب والعلوم والفنون والصنائع .

وهذا الفرق العظيم بين الإنسان وسائر الحيوان محل تأمُّل وملاحظة ، لأن الإنسان من حيث جسمُه ومعيشته وتناسله قريبٌ من سائر الحيوان ، وخاصة من ذوات الثدى ؛ فهل هذا التفوق العظيم ناشىء من القوة الفكرية ومن روح غير الروح الحيوانية ، أو من تطور الروح الحيوانى ؟ فهذه المسألة مختلَف فيها بين الحكماء .

فأما علماء الإسلام فذهبوا إلى أن فى الإنسان روحا إنسانية عدا الروح الحيوانية المانحة للحياة ، ونفسا ناطقة ، وهى منشأ التعقل والتفكر . والقرآن العظيم لم يبين هذه الجهات بأمره الجليل [ويَسئلونك عن الرُّوح قل الرُّوح من أمرِ رَبِّى] ، وهذا يجعل حقيقة الروح من الأسرار . فعلى هذا يلزم أن تكون الروح مما لا يُدرَك ولا يفنى ، تبعا لمنبعها . وعقل الإنسان لا يمكن أن يتلقى شيئا سوى هذا فى الروح .

وأما الفلاسفة والحكماء الروحانيين الذين أتوا منذ ثلاثة عشر قرنا إلى زماننا هذا ، فعرَّفوا الروح بأنها جوهر روحانى مجرد عن الأبعاد ، ولا يفنى ؛ ولكن إطلاقهم على الروح أنها روحانية كإطلاقنا على الإنسان أنه بشر ، لا يفيد فائدة زائدة ، ولا يكشف عن السر ، والإنكارُ من قبيل الكمية السلبية ليست له قيمة .

إن الرياضة والحكمة والكيمياء والحيويات والروحانيات والتشريح وعلم وظائف الأعضاء وغيرها من العلوم نفذت نفوذا كبيرا فى أسرار الخليقة ، وكشفت عن أسرار ودقائق لا يمكن ذكرها بالتفصيل فى هذا الكتاب ، ولا ضرورة له .

ومع هذه التدقيقات ، ظل السر الحقيقى للخليقة ، والأمر اللدنِّى لحدوث المواليد الثلاثة ، والنشوء والتناسل والحس والإدراك والتفكر والإرادة ، مجهولا ومستوراً .

فإنكار المسبِّب الأول والاعتقادُ مثلا فى الأسباب التالية كحُبيبة القوة ، والأتوم ، والحُجيرة البدنية ، والحس الحيوانى وغيرها ، وهى أمور محسوسة ، متصوَّرة ، مفروضة لم يُكتشَف ما وراءها ، ولم يُعلم مصدرها ، وإسناد قدرة التكوين والإحياء إليها ، لا يصح أن يُعتبر إلا وثنية علمية .

***

قد تبدو هذه التفصيلات عن الروح فى مبحث الإله خارجة عن الصَّدَد ، ولكننا لم نتخذ بحث الروح موضوعا لمبحث منفرد فى هذا الكتاب ، حيث رتّبنا بابه الأول الباحث عن العقائد الإسلامية ، وِفاقا لأركان الإيمان ، فى حين أن الروح مذكورة فى القرآن ، فيجب الاعتقاد بها ، مع أنها ليست معدودة فى أركان الإيمان ، فتعلقها ببحث الإيمان ظاهر من قوله عز وجل : « قل الروح من أمر ربى » .

ثم إن الماديين فى إنكارهم المولى تبارك وتعالى يتعمدون إنكار الروح ، غافلين عن أنهم بإنكارهم هذا ينحطون من منزلتهم ، ويهبِطون بها إلى درك الجمادات ، ولهذا قد استحسنا البحث عن الروح فى هذا المقام .

***

نرجع إلى بحثنا بعد ذلك : إن الأدلة القوية التى ذكرناها فيما سلف مع أقوال الحكماء المشهورين تقنع أرباب العقل والإنصاف بوجوب خالق قدير حكيم مطلق لمُلك الخليقة علما وعقلا ، بيد أن عقل البشر لا يستطيع أن يتجاوز حدودهُ فى إدراك وجود الخالق وإثباته ، ولن يصل إلى سرّ ذات الله ، لأن الإدراك والتعقل إنما يحصل بالقياس . وهذا أمر متفق عليه عند الحكماء والفلاسفة ، فمن المعلوم أن الحرارة تُدرَك بالقياس على البرودة ، والكبر بالقياس على الصغر ، والحسن بالقياس على القبح ، والألوان بقياس بعضها على بعض ، وهلم جرا ؛ وقد تتسع هذه الحركة وتتشعب بالانتقال من البسيط إلى المركب . ولكن الأساس هو القياس والنسبة ، إذن يجب أن يكون العقل البشرى عاجزا عن إدراك الذات المطلقة المنزهة عن الشبيه والنظير . والعلم يعترف بعجزه فى هذه المسألة . فإن الذات الإلهية سرمدية ، كاملة فى أوصافها ، ولانهائية فى حكمتها وقدرتها فى حين أن العقل البشرى المحدود يعجز عن إدراك السرمدية والكمال المطلق واللانهائية . ولا بد من أن يقصِّر عن إدراك السر اللدنِّى الأعظم ، المتصف بجميع هذه الأوصاف . والفلسفة السالمة تسلم بهذه الحقيقة .

مسألة الزمان والفضاء

لما ورد ذكر الأزلية واللانهائية تبادرتْ إلى الذهن مسألة الزمان والفضاء ، فلهذه المناسبة استحسنتُ أن أذكر كلمات فى هذه المسألة التى جرت فيها المباحثات بين الحكماء من قديم الزمان . ولما كان وجدان البشر الفانى بذاته قد ألِف أن يرى الأشياء كلها حادثة وفانية ، واعتاد أن يتحرى فى الكائنات كلهامبدأ ومنتهى ، فإنهما إذا ذُكرا له استقصى بمقتضى طبيعته ، ما قبلهما وما بعدهما ؛ وكل متفكر يحس فى نفسه هذه الحال . فهذا الاستقصاء يدل على أن عقل الإنسان لا يحيط بالأزلية والأبدية ، و إذا ذُكر مبدأ ومنتهى وعُيِّنا فلا يقنع بهما بل يَفْحَص عما قبلهما وما بعدهما ، و يسترسل فى ذلك ، أى لا يقبل محدودية الزمان أيضا . و إن كان الناس اتخذوا لتقدير الزمان مبادئ مختلفة للتاريخ ، وعينوا مدة الزمان بالثانية والسنة والعصر والقرن ، ولكنها أمور اعتبارية . ولما كانت أفعال الأشخاص والجماعات وحركاتهم حادثة وفانية موقتة ، محدودة كذواتهم ، مالوا غالبا إلى تحديد الزمان بالتمثيل ، فأكثر حركات أهل إستانبول وأشغالهم اليومية محصورة فى أوقات قدوم البواخر والقُطُر ورجوعها ؛ ومُدد بقاء الجماعات والدول والحكومات وتواريخهم تابعة للحوادث ومعرضة للانقلابات ، فهى لأجل ذلك محددة . وأما الخلَّاق الأزلى ، القادر المطلق ، الفعَّال لما يريد ، فكما أنه لا يمكن أن يتقيد بقيد وشرط فإنه لا يمكن كذلك أن يتقيد بزمان . و بما أن الخلق والتكوين من صفاته الأزلية ، فإنه يلزم أن يكون الزمان الذى يحتوى على شئون الخلقة أزليا وأبديا ، أى لانهائيا . الإنسان الفانى يدرك أجزاءه المحدودة ولا يقدر على أن يدرك كله ، ولكن إذا وجدت أجزاء شيء فلا يجوز أن يكون الكل مفقودا ، وهذا الكل موجود بين الأزل والأبد ، أى أنه غير محصور ، فعلى هذا الزمان والدهر المطلق واللانهائى موجود . وقد حَسَب علماء الإسلام الزمان مخلوقا لأن ظهوره يحتاج إلى

حركات وسكنات المخلوقات وتوالى الحادثات ، ولكنه و إن كان مخلوقا إلا أنه امتداد سرمدى ، على تعبير شيخ الإسلام المرحوم موسى كاظم أفندى .

وهذه الملاحظات جارية بعينها فى الفضاء . فمثلا لو قيل لرجل حصل على شهادة الكفاءة على النظام القديم . واشتغل بعدها بالزراعة أوالتجارة : «إن الضياء يقطع فى الثانية مسافة ثلاثمائة ألف كيلو متر ، أى يدور حول خط الاستواء سبع مرات ونصف مرة فى الثانية ، [إن فارسا لو قطع فى كل يوم مسافة ثمانية فراسخ ، أى أربعين كيلو متر بدون موانع أرضية ، و بلا انحراف ، لقطع هذه المسافة فى ألف يوم] ، والثوابت التى نراها يوجد بينها ما هو أكبر من الكرة الأرضية بملايين و بلايين من المرات ، وهناك كواكب تبعد من الأرض ٤٥٠ مليون من السنين الضوئية ، ستمكن رؤيتها إذا بلغت الآلات الرصْدية حد الكمال(٣٤) — لو قيل له هذا لتحير من هذا الخبر العجيب . ولكنه يسأل نفسه بعد هذه الحيرة عما وراءه . ولقد قيل له إن هذا المُلك ملحوظ امتداده ليتحرى حدوده ومنتهاه ؛ فوجدان البشر مجبول على أن يتحرى حدا للمكوّنات ، وهو الحقيقة على أغلب الاحتمال . فالمجرة ، أو عموم الكائنات المجرّيّة التى هى على قول آينشتين متناهية ولكنها غير محدودة ، لو سارت من ابتداء خلقتها إلى الأبد بالسير السريع ، أو ابتدأ فى التكون عالم آخر بعيد عن المجرة التى نراها ، بتريليونات سنة ضوئية ، هل يتصور لهذا مانع ؟ لا شك أنه لا مانع من ذلك ؛ فعلى هذا يلزم أن يكون الفضاء غير متناه . إن قيل إن الفضاء خلاء وعدم ، فالجواب عنه أنه يمكن أن يفسَّر الفضاء فى هذا الموضع بالمكان، مقابلا للزمان ، فعدم المكان يكون بعدم إمكان استيعابه للمكين ، لا بالخلو ، فهذا الحال لا يتحقق فى شأن الفضاء . العالم كله بهيئته العمومية(٣٥) متحرك على أغلب الاحتمال ، والحيز أو القسم الفضاء الذى شغله أو سيشغله فى أزمنة مختلفة موجود ، فبأى حق يُنكَر مجموع هذه الأحواز ؟ قال «الأب مورو» : إن الشىء القابل للمساحة والتعداد وله أجزاء معينة

ومنفردة ، لا يمكن أن يكون غير متناه . وهذه الدعوى قد سعى صاحبها لإثباتها بالأقيسة المنطقية ، وليس لى قدرة على الجواب عن مثل هذه المناظرات ، ولكن الحكيم إذا سلم بالأزلية فهو مجبر على أن يقبل عدم تناهى الشىء الذى فرض تكرره وتماديه من الأزل ، فحينئذ هو مجبر على أن يسلم بلانهائية مجموع الأحواز الذى تشغله المجرات أو العوالم التى حدثت من قبل ، أو التى تحدث من بعد .

و إنى لأذكر المثال الآتى لتقريب فكرة الفضاء : تمتد ابتداء من القرية المبنية على أنقاض المدينتين التاريخيتين ، سَبأ ومأرب ، والكائنة فى المنتهى الشرقى من بلاد اليمن إلى سواحل البحر المحيط الهندى ، و إلى حضرموت والحَسَا وسواحل خليج البصرة ، أراض جرداء وخالية ليست بها قطرة من الماء ، فلو ضل رجل الطريق ووقع فيها ، ثم خرج منها سالما بوجه ما ، ورجع إلى القرية ، وسئل عن أحوالها ، لقال إنها أراض خالية من حى متنفس . ولكن إذا أصلح سد مأرب ، وسقى قسم من الصحراء بإجراء المياه فيمكن فيها المرور والعبور ، ويمكن أن تحدث فيها ، كما فى السابق ، مدن كثيرة وغابات أشجار . تحتاج الدواب الأرضية للدوس بأرجلها ، والعمران البشرى لوضع الأساس ، والنبات والأشجار لتمديد وتعميق عروقها ، إلى أراض صالحة ، وسطح الأرض مما يُحتاج إليه . والموجودات الجوية سابحة لا تحتاج إلى مسند . فعلى هذا القياس يلزم أن يكون الفضاء اللانهائى موجودا ، لأنه مَسِير للكائنات الموجودة به ، ومَحَلّ لتجلى صفة التكوين الإلهية (٣٦) .

فيستنتج من هذه التفصيلات أن الله تعالى مسبب الأسباب وكل شىء ، موجود سرمدى فى كل آن من الزمان ، من الدهر الذى ليست له بداية ولا نهاية ، و إرادتُه وعلمه وقدرتُه جارية ولاحقة وسارية بلا مانع فى الفضاء الذى ليست له نهاية . وهذه الملاحظات والنتائج تستلزم أن يكون كنهه تعالى متعاليا ومنزها عن إحاطة عقل البشر به ، لأن الإنسان بحسب صورة تعقله عاجز عن إدراك الأبدية والأزلية والمطلقية وعدم التناهى ، ومع هذا لا يقدر أن يتصور الابتداء والانتهاء والمحدودية

فى العالم وفى الخلقة ، و يستحيل فيه ذلك . فالعلم يثبت وجود المسبب الأول ، و يصف عظمة شأنه على قدر الإمكان ، و يظهر عجزه عن إدراك كنهه وسرّ ذاته ، و يختار السكوت عنه مفوضا أمره إلى النقل ، أى إلى الدين .

كررت كون الذات الإلٰهية فوق الإدراك فى صورة قد تُورث القارئْ الملل . ولكن الاختلافات كلها نشأت من هذه المسألة ، فلذا كان تكرارها وتأكيدها واجبا . فإن الإنسان غير قادر على أن يمتنع عن تأمل ما لا يفهمه . فمن الناس من يظن أنه عرف حقيقة الخليقة ، و يذهب إلى العقائد الباطلة ؛ ومنهم من يصل إلى حد إنكار ما لا يدركه ؛ ومن هذا ينشأ الإشراك والإنكار . فهذان هما الإفراط والتفريط ، وهما نتيجتا الاستعجال فى الحكم ببادئ الرأى ، أوفرط الاعتماد على العقل والعلم والاغترار بهما . وأما المعتدلون الذين يُعَينون منصفين حدود قوة إدراكهم ، وقابلية تفهمهم ، فلا يتجاوزون عنها ، وقد قنعوا بوجدانهم بالذى قدروا على إدراكه مع سعى فى تعمق الفكر ، و بهذا يصلون إلى الحقيقة .

***

و يُستنتج من خلاصة ما بسطته إلى الآن من الأدلة العقلية والعلمية عن المسبب الأول :

أولا — أنه واجب الوجود وواحد . (ودليله العقلى نظرية العلة الأولى) .

وثانيا — أنه أزلى . (لأن تقدم المسبِّب الأول على كل موجود ، وامتناعَ أن يخلق ذاته من عدم ، أمران طبيعيان وظاهران) .

وثالثا — أنه مطلق . (لأنه غير معلول ، برئ من كل شرط وقيد ، ومنزه عن الشريك) .

ورابعا — أنه حاضر وناظر فى كل مكان . (Ubiquité) (لأنه نافذ فى جميع الموجودات علما وقدرة ، وحاكم حافظ لانتظام العوالم . و يصف فلامار يون الخالقَ تعالى ، اقتباسا من نظرية نسبية الحركة وقِدم القوانين ، بأنه موجود مستقر فى كل لحظة من الزمان ، وفى كل نقطة من الفضاء) .

وخامسا — أنه عليم وحكيم . (أثبتنا هذا بالحسابات الرياضية للابلاس) .

وسادسا — أنه قدير . (إذا سُلِّمت المواد المتقدمة تُقبَل القدرة المطلقة السبحانية ، استدلالا بآثار خلقته) .

وسابعا — أنه لا يموت . (لأن العلم والحكمة والقدرة الفعّالة لا تقوم ولا تتحقق إلا بالحياة) .

وثامنا — أنه باعتبارحقيقة ذاته فوق الإدراك . (قد أُثبت ذلك تكرارا) .

وهاك العقيدة التى يعلِّمها الإسلام عن الخالق المتعال ، فالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، متَّفِقة على أن الله تعالى :

١ — واجب الوجود ، أحد ، صمد ، لم يلد ، ولم يولد .

٢ — قديم ، دائم .

٣ — فعّال لما يريد ، لا كُفُؤ له ولا نظير له ، أى أنه مطلق وفوق القياس .

٤ — محيط بكل شىء ، أقرب إلينا من حبل الوريد . أى حاضر ، وناظر بعلمه وقدرته فى كل مكان .

٥ — عليم وحكيم ، لا حدّ لعلمه وحكمته .

٦ — قدير ، لا نهاية لقدرته

٧ — حى وقيُّوم .

٨ — منزَّه عن إحاطة العقول به .

فيُرى أن الإيجابات العقلية والعلمية موافقة ومطابقة للتعاليم الإسلامية. إلا أن الأديان تثبت لله تعالى بعض أسماء وصفات لتقريب الوجدان البشرى إلى ذات الربوبية ، وتحمّل الإنسان وظائف وتكاليف باسم البارئ تعالى . وسابحث عن الوظائف الدينية فى المستقبل . أما الصفات فإن كانت تصور تبجيل عظمة الله تعالى وجلاله فى حدود العقل ، فتُقبَل ؛ وإلا فلا . وإذا صُوِّر الله تعالى بحسب آرائنا

— حاشا لله — وأسند إليه ما يشبهه بنا أو بسائر مخلوقاته ، فإن ذلك يكون شركا وإلحادا ؛ « سبحانه وتعالى عما يصفون » . وهذا النظم الجليل برهان قاطع فى هذا الباب . والقول الحقُّ المنقولُ عن بعض الصدّيقين : « العجز عن درك الإدراك إدراك ، والبحث عن سر ذات الله إشراك » يجب اتباعه .

الصفات الثبوتية والسلبية التى لقّنها دين الإسلام فى شأنه تعالى معقولة كلّها وطبيعية ، والتعليمات المحمدية بصفائها الأولىّ منزّهة عن كل الأباطيل ، والقرآن العظيم أثبت بالآيات البينات ، أن جناب الخالق الذى لا نظير له ، ليس له كفوء ، وهو منزّه ومتعال عن الأفعال والطبائع والتأثرات البشرية . ومع هذا يعترض بعض المتفكرين على الدين لقبول بعض الأوصاف ، كالحياة والإرادة والقدرة والعلم والحكمة والرحمة التى تتصف بها ذواتُ الأرواح ، ولا سيما الإنسان ، فى الصفات الإلهية ، ويحملونه على إثبات نوع من المشابهة بين الخالق والمخلوق — حاشا لله — ويدّعون أنه إما ميل إلى هذا الظن الباطل والضلال (كالمشبهة والمجسمة) ، وإما وقوع فى التناقض بين تنزيه الخالق وتشبيهه بالمخلوق . ولكن يتبين بتعمق الفكر أن كلا القولين ليسا بصواب . فالأديان لا تقبل فى ذات الله تعالى إلا وجود كمال هذه الأوصاف فى البشر . والحق أن الاقتناع بأن خلقة العالم ليست أثر المصادفة ، يدل على الإيمان بوجود خالق مريد وقدير وحكيم ؛ لكن الخواص التى فى المخلوقات كالإرادة والقدرة والحكمة متجلية من منبع أصلى بمثابة ذرة ، ونسبة هذه الذرة إلى ذاك الكل لا تشبه نسبة الذرة الضيائية إلى الشمس ، لأن الشمس فانية ومحدودة . والمنبع الأصلى الراجع إلى الخالق تعالى سرمدى ومطلق ولا نهائى ومنزّه عن كل قياس ، ومتعال ، فعلى هـذا لا مشابهة بين قدرة البشر وذكائه المحدود ، وبين قدرة الله سبحانه وحكمته البالغة ، وقس عليه البواقى .

وقد انتشر بين الجهال مثل هذه العقائد الباطلة ، وأساطير وخرافات من

معتقدات الأقوام المختلفة العتيقة ، بسبب الاختلاط الذى حدث من سرعة انتشار الإسلام ، حتى إنها ، مع الأسف ، أدرِجت فى بعض الكتب ، وتدخلت فيها تخيلات الشعراء أيضا . وسنبحث عن الأفكار والظنون الباطلة الغريبة التى ظهرت فى الإسلام . وفى اعتقادى أنه يجب على علماء المذاهب والفرق المختلفة ، أن يجتمعوا ويتذاكروا ، ويزيلوا هذه العقائد الغريبة والظنون الباطلة من بين المسلمين . وبهذا المشروع يُرجى أن تزول الاختلافات المذهبية أيضا ، أو على الأقل أن يزول ما تولد منها من المخاصمات .

فلسفة وحدة الوجود

والآن حان لنا أن نسرد بعض ملاحظات على فلسفة وحدة الوجود (Pantheisme) . ظهرت هذه الفلسفة فى الهند ، فى صفة عقيدة دينية ، وانتشرت فى الشرق الأقصى ، وتركت أثرها فى الشرق الأوسط ، ثم دخلت مصر وبلاد اليونان باسم الفلسفة . ولما كانت الأزمنة الأخيرة نشرها ووسعها مشاهير الفلاسفة ، أمثال اسپينوزا وفخته وهيگل . بناء على هـذه العقيدة ، الخالق والمخلوق واحد ، وكل موجود جزء من الوجود الحقيقى ، ومن الكل المطلق ، وتجل من تجلياته ، فهو ينفجر من هذا المنبع الكلى ، ويسير فى الأكوان ، ثم ينصَبُّ فيه ، ويرجع إليه .

بما أن التصورات والمباحث الخاصة بسر الخلقة ، لا يمكن إفهامها حق الفهم ، فمن الضرورى إيضاحها فى صورة تمثيلية على قدر الاستطاعة . وحينما كنت أدرس الفلسفة فى شبابى ، طالعت كتابا فيه تشبيه للمناسبة بين ذات الخالق والمخلوق ، بالمناسبة بين البحر وأمواجه وحُبيباته ، ويقول : كما أن هذه العوارض ليست غير البحر ، كذلك الكائنات ليست غير الكل المطلق ، ويريد بهذا إيضاح هذه العقيدة . ولكن أليست التحولات التى فى سطح البحر ، هى أثر الرياح على سطحه ، وأثر

الأسماك السابحة فى داخله ؟ إذا قبلنا حدوث المصنوعات من تأثير الشىء الذى فى داخل الكل وخارجه ، فقد اعترفنا بوجود مؤثر . فعلى هذا يكون تحرى كنه هذا المؤثر والمسبب الأول ، واكتشاف علاقاته بالمخلوقات، مالا يمكن أن تتعلق به قوتنا الفكرية . وهذه الكيفية على ما ذكرناه آنفا ثابتة بالعلم .

فى مثل هذه المباحث لا مناص من الاعتراف بالعجز ، فإن أُومِنَ بالمحرك والمؤثر الحقيقى أو بالسر الأعظم ، فكل التحيرات فى أمر الخلقة جَمَعها فى قدرته ، ومَنْع العقل وكَفُّ اللسان من تحرى كنهه ، أوفق للحكمة .

ومع ذلك هذا المذهب الفلسفى نظرا لما كان فى ظهوره ، نزيه ولطيف وملائم لتخيلات الشعراء ، ولهذا أخذ أشكالا جذابة للقلوب فى لسان الشعراء ، ودخل فى بلاد الإسلام من الشرق والغرب ، وصار مقبولا عند بعض الفرق والنحل . كما أن القواعد التى دوِّنت ونُشِرت باسم « تيوصوفى » بلغات أوربا المختلفة ، نتيجة هذه الفلسفة ، فكذلك عقيدة وحدة الوجود عند المتصوفة فى الإسلام فإنها ، قريبة من هذه الفلسفة .

لئلا يبقى محل لسوء التفهم ، أرى لزاما أن أذكر قبل كل شىء ، أن الطرق الصوفية الجادة والمعتبرة فى الإسلام ، تعتقد وجود المطلق بمعنى الإله ، وتقرُّ بما بينه و بيننا من الصفات الثبوتية والسلبية ، وتؤمن بالنبى والكتاب ، وتتبرأ دائما مما زيد على تعاليمه من الخرافات ، لكنها تعد ما سوى الله غير موجود ، وهذا ينافى العقل والمنطق . لأن إنكار المخلوقات ، بعد تصديق الخالق والخلقة لا يتفق والمنطق . والحق ، أن الله الخالق المتعال ، هو الموجود السرمدى ، و بهذا الاعتبار هو الموجود الحقيقى . والكائنات كلها حادثة فى الظاهر ، متغيرة فانية هالكة ، ووجودها لا يعد شيئا بالنسبة إلى الأزلية ، ومع هذا لا يجوز أن يقال : إن آثار قدرة الله وآياته ليست بموجودة ، فلو كان الأمر كذلك لحسب الإنسان نفسه والتكاليف المعنوية والقوانين

الأخلاقية كلها معدومة ، وانتهى بذلك إلى أسوأ النتائج ، ولا تكون الفلسفة والعقيدة البشرية صادقة حقا إلا إذ كانت نافعة ، و إلا فهى باطلة .

ومن حيث إن الأشياء من مخلوقات الخالق الأزلى ، ومن محصولات قدرته وقوته اللانهائية ، ومن آياته وأدلته الباهرة على وجوده السرمدى ، فلا يمكن أن تُعَدّ وتعتبر معدومة ، ولو كانت معرضة للتغيُّر والفناء ، فإن أعمارها لا يمكن إنكارها مهما كانت قصيرة .

وأما اعتبار الصوفية الأشياء مِرآة للذات الإلهية ، فينبغى حمل مثل هذه التعبيرات على المجاز والاستعارة . إنى لم أنتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية ، ولكنى قرأت فى شبابى وحفظت أبيات وعبارات ، أتذكرها الآن بكمال الشوق والتلذذ ، وهى أمور لا يمكن إثباتها بالمنطق والعلم ، ولا تدركها العقول المتوسطة ، إلا أنها تثير القلب من تصور معانيها المجازية ، وتتلذذ الروح منها . فلهذا لا يجوز أن تَعُمّ مثل هذه الأحكام فى أمور الدنيا السوادَ الأعظم ، ولا ينبغى ذلك .

ولا يجوز أن يُدَّعى بأن التصوف خارج عن الحقيقة الدينية الإسلامية ، ومن رجاله الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، ومولانا جلال الدين الرومى ، المبجلان اللذان يجلهما أكابر علماء الإسلام .

ومن أهم الغايات فى المذاهب والأديان صيانة الأخلاق . وقد كان مصيرمذهب وحدة الوجود بعد ظهوره فى الهند وانتشاره كدين ، إلى أن نُشرت العقيدة بأن الذين يحسنون العمل من بين ذوى الأرواح يتقدمون فى إحراز الدرجات العاليات شيئا فشيئا ، حتى يصلوا بالتطور التدريجى إلى الكل المطلق ، والذين يسيئون العمل من المذنبين ، يعودون إلى عالم الشهود فى أسفل منزلة ؛ ومِنْ هذه العقيدة ، تولدت عقيدة التناسخ . و بيننا بعض النحل والملل الابتدائية ، مايذهب إلى هذا المذهب ، كما ظهر المؤمنون بهذه العقيدة فى خارج العالم الإسلامى حتى بين الحكماء .

***

إن الإنسان مهما عرف هُوِية أبناء نوعه ، يعجز عن النفوذ إلى ما فى ضمائرهم وعن الوقوف على نياتهم ، فالتصدى للاستفهام عن مراد الله سبحانه وتعالى الذى نعترف بالعجز عن إدراك سر ذاته ، على قصد الإنكار ، يكون مردودا . والتصديق بالآية الكريمة « لا يُسئَل عما يفعل » يكون ضروريا من الضروريات العقلية . ويلزم أن تُحفظ هذه النتيجة لتكون مدارا للاحتجاج والاستناد فى الملاحظات الآتية .

٢ — وملائكته

والاعتقاد بالملائكة الكرام من شروط الإيمان في ديننا . وقد ذُكر اسمُ الملائكة مرات في القرآن الكريم . ويُفهم من كل ماذُكر من صفاتها ومناقبها ، أنها موجودات لطيفة ، لا تُرى بالعين في الأحوال العادية . ولكن لاتحول الجدران الأربعة دون حلولها . وأما فعاليّتها فسارية آنِيًّا إلى أبعاد شاسعة وأرجاء كثيرة . فلذا يلزم أن يكون الملائكةُ موجودات لطيفة . ومع ذلك لا يمنع كون الملائكة موجودات لطيفة من أن تُحدث في الدماغ البشرى إحساسًا بوجودها ، أوتأثيراً فيه بأسلوب ملائم للعقل البشرى .

يشعر علم الطبيعة دائمًا بالحاجة إلى واسطة لطيفة لتأثير بعض القوى والحالات ، كالحرارة والضوء والكهربا وانتشارِها . وعلى ذلك فليس من المستحيل — كما يقول المنكرون — أن يكون للناظم الحقيقى لأمور العالم ونظامه ، وسائطُ تنفيذيةٌ لطيفةٌ في المعقولات والنفسيات والمعنويات ، كما في المشهودات والمحسوسات . إنه غريب جدا أن يُقال باستحالة بعض الأمور الغيبية ، بعد النظر والبحث في في عظمة الخليقة ودقائقها ، وتصوُّر مؤثر حقيقى لها ، والإيمان به .

يفرض الحكماء ، كما سبق ذكره بالمناسبة ، لتفسير الحادثات الطبيعية ، واسطةً لطيفة إلى حد لاتتأثر بالجاذبية ، ويسمونها الأثير . وبناء على هذا الفرض الذى يعتمد عليه كثير من موضوعات الطبيعة ومباحثِها ، بتنقل الضوء والحرارة والكهربا وغيرها من القوى الطبيعية ، وتنتشر بوساطة تموجات هذه القوة اللطيفة — كما ينتشر الصوت بالتموجات الهوائية — غير أن تموجات الأثير تختلف في طول كل شعاع من الأشعة المكوِّنة لألوان الشمس السبعة وسرعته [٣٧] ، كما تختلف أبعاد تموجات الحرارة والكهربا وبعض الأشعة الكيميائية والطبيعية .

و بناء على هذا يهتز بعض الأثير دائما بموجات لا عدد لها متداخل بعضها فى بعض ، وتحدث الرؤية وكثير من الحادثات الطبيعية من هذه التذبذبات والتموجات ، فتنتقل إلى حواسنا . فالواقف فوق قمة « چامليجة » ناظراً إلى أطرافه أو موجها نظره ليلاً إلى الكرة السماوية ، يصل إلى حدقة عينه ، بناءً على هذا الفرض ، كثير من أشعة المبانى والأشجار والسفن وآلاف من الكواكب مختلفة اللمعان ، أو بعبارة أصح ، تصل أشعة ترسلها الذرات الخارجية المحيطة بالأشياء الواقعة تحت نظره ، من جهات مختلفة ، ولا يحدث أىُّ تشوش واضطراب فى تلك الساحة الصغيرة من هذه الموجات ، التى لا يحصرها العد ، والتى تختلف فى الطول والسرعة لكل شعاع من تلك الأشعة ، ولا تختل الرؤية ! فكيف يصدِّق الذين يشاهدون مثل هذه الأحوال دائما ، هذه النظريةَ — لتسميتها علمية — ولا يصدقون القوى والأحوالَ الغيبية ، ويرونها مستحيلة .

وثمَّة أمر آخر ، وهو أنه يلزم لأجزاء الأثير التى تنفذ فى كل مكان ، ألّا تغيِّر أماكنها حتى تكونَ أساساً لكل هذه الموجات ، أى يقتضى أن يكون الأثير أصلبَ من كل الأقسام الصلبة ، وأشدَّ من الفولاذ ! على حينَ ثُبت أن ذرات جميع الأجسام ، ومنها الأجسام الصلبة ، متحركة بحركة دائمة رَقْصية متزايدة السرعة على حسب درجة لطافتها (الحركات البراونية (Mouvements brauniens) ، ومع ذلك ليست لهذه الهوية الرقيقة (أى الأثير) أدنى مقاومة لحركات مالا يحصى من الأجرام الجسيمة المتحركة فى الفضاء ، والأحجار السماوية ، والشهب والغبار السماوى . كما أن حركات هذه الأجرام ومرورَها الدائم منذ الخلقة ، لا تبدِّد هذه المادة الغريبة الهشة اللطيفة إلى أقصى حد ! هكذا يصدِّق علماؤنا المحدَثون ، بلا تحقيق ولا مناقشة[٢٨] ، هذه الفرضية العلمية الحافلة بالغرائب والمتناقضات — لتسميتها علمية — ويستهزئون بما ذكرَته الكتب السماويةُ من الموجودات اللطيفة ، بله الإيمان بها ! وخليق بأمثال هؤلاء

أن يخاطَبوا بهذا المِصراع للشاعر التركى فضولى : « إنك تمل بكأس الجهل والغفلة فلا تدرك نفسك ! » . إنى أعتقد أن ذكر الكتب السماوية لهذه الموجودات والسيالات الرقيقة فى زمن لم يتخيلها فيه العلم بعدُ، خليق بأن يُعد من المعجزات .

وخليق بالتنبيه خاصة أن الحكماء الذين أحسُّوا حاجة إلى هذا الأثير لتفسير كثير من الأحوال والأحداث الطبيعية ، اعترفوا بكونه غير قابل للوزن ، (Impondérable) ، وثمة أسباب صحيحة لهذا . ولكن القولَ بعدم قابليته للوزن ، يعنى كونَه غيرمادى ، لأن ثقل المادة من الضروريات العلمية ، حتى إن ثقل ذرات الإيدروجين حُسبت وقُدِّرت عند العلماء . والحق أنه لا يمكن التأليف بين تلك المتناقضات إلا بالقول بعدم مادية الأثير . إذن فالحكماء يقولون بوجود غير مادىٍّ ، ويجعلون الحسَّ بعالم المادة والشهادة ومشاهدتَه منوطا بتوسط هذا المحيط غير المادى .

ومثل هذا الفرض العلمى إذا أُنعم التفكير فيه، انتفى عن المرء العاقل الفاضل ، الميل إلى وادى النفى والإنكار والانحرافُ فى أمور كثيرة .

* * *

وبهذه الطريقة نفسها يمكن فرض الجن والشيطان من قبيل سيالات رقيقة ، أوموجودات لطيفة . فبينما المرء خالى الذهن ، إذْ تطرأ عليه أفكار وهواجس ضارة ؛ ومن لاحظ نفسه لم ينكر هذا الحس . وأى عجب فى تسمية ما يُلْقِى هذه الأفكارَ والهواجسَ بالشيطان ، فما وجه الاستغراب فى هذه التسمية والاستهزاء بها (٣٩) .

إن المعلومات فى الأزمان الأخيرة عن المغناطيسية الحيوانية ، والإحساس بالشىء قبل الوقوع ، والتأثر والتأثير من بُعد (Télépathie) والتلقين (Suggestion) وما شاكلها من الغرائب الفكرية والنفسية ، تفوق كثيرا المعلومات عن القوة الكهربية قبل قرنين . فبأى شىء تحدث هذه الأحوال الغريبة ؟ والعلم يبحث عن واسطة لطيفة حتى للجذب والدفع بين ذرات كل جسم ؛ أما يتصور الذين

يسمّون المتفننين عندنا ، وسائط خفية لمثل هذه الأحوال الروحية ؟

ألّف كميل فلاماريون الذى قضى زُهاء أربعين أو خمسين عاما فى بحث المؤثرات الروحية ، والقوى الخفية وتأثيرها ، كتبا عديدة فى هذا الموضوع ، وقال فى كتابه القوة الطبيعية المجهولة : « إنا نحيا فى عالم لم يستكشف بعد ، تقوم فيه القوى النفسية Forces psychiques بتأثيرات لم يُستكشف بعد استكشافا حقيقيا ، ص ٥٩٩ » . وقال فى موضع آخر : « لا أقول إن الأرواح اللطيفة كالجن ، غير موجودة ، بل ثمة أسباب كثيرة للاعتراف بوجودها ص ٥٩٣ » .

بناء على ما ذكرت سابقا من قول لا پلاس ، يحفل هذا العالم حولنا بكثير من القوى الخفية . والإدعاء بعدم وجودها لعدم إحساس حواسنا الظاهرة بوجودها ما هو إلا مكابرة(٤٠) ؛ فقد كنا منذ قرن نكاد نجهل الكهربا جهلا تاما . ولو تحدث رجل فى ذلك الوقت عن إمكان المخابرة بلا واسطة من ألوف الكيلو ميرات فى لحظة غير منقسمة ، لعُدَّ وليًّا بلا شك . على حين أن هذا الحادث جِدُّ بسيط عندنا اليوم . وبالرغم من نقص معلومات أجدادنا عن القوة المغناطيسية فى القرون الوسطى نقصا شديدا ، كانت هذه القوة موجودة فى العالم ، مؤثرة فيه ، وكان قطب الأرض المغناطيسى قائما فى النقطة التى فيها اليوم ، وكان الجو النسيمى ، بل الجسم البشرى أيضا ، متأثرا بالحزمات المغناطيسية التى ترسلها الشمس .

إن امرءا مولودا أكمه يعيش إنسانا ويختلط بالجماعة البشرية ، وقد يكون فيها عضوا نافعا أو ضارا ، ولكنه يجهل كثيرا من البدائع التى نراها ونشاهدها . فهل يقال إن قبة السماء الزرقاء غير موجودة لعدم رؤيته إياها ؟ وألا توجد فى العالم نغمات مشجية مثيرة لوجد أرباب الإحساس والعشق ، لأن أصمّ لا يسمعها ؟ وكم من مكتشفات يستكشفها البشر كلما زاد تطورا ! ؟ وسيكتشف كثيرا كلما اتسع ذكاؤه ورقّت حواسه ونضجت . إلا أنه سوف يظل محروما من كثير من لطائف

الخليقة ، غير أن هذه المخلوقات لا يلزم عدمها لجهل الإنسان بها (٤١).

لا ينبغى أن يُستخرَج من هذه القياسات والملاحظات ، أنى أدّعى استكشاف حقيقة الموجودات اللطيفة التى ذكرتها الآيات ، فإن هذه اللطائف فوق ما ذكرت من الصور والاحتمالات ، وفى ماهية لا تحيط بها دائرة العلوم المكشوفة والمدوّنة . وليس للقدرة الإلهية والطبيعة حد ولا نهاية .

وإنما قصدت بهذه المسرودات إظهار أن التصدى لإنكارها بدعوى عدم قبول العلم لها ، ما هو إلا جهل محض .

٣ — ورُسُلِه

والاعتقاد بالأنبياء العظام ركن من أركان الإيمان ، وشرط من شروطه الأصلية . وليس ماينافى العقل فى اصطفاء بارئ الكون بعض وُسَطاء من بنى آدم ، لإرشاد أبناء جنسهم إلى طريق الحق والهداية ، مع بعض وسائط لطيفة ، لتأمين انظام العالم .

يقول المعترضون على هذا : « كيف يُعنى الله سبحانه مع قدرته وعظمته ، بخير نوع البشر وشرهم ، وهم يحيون حياة أدق الأحياء ، على كرة لا تزيد على حبة رمل بالقياس إلى الكائنات ، فيرسل إليهم رسلًا من أنفسهم ، دون أن يهديهم إلى طريق الحق بنفحة من الإلهام(٤٢) »

ويمكن الرد على هذا الاعتراض فى الوهلة الأولى بالآية الكريمة : « لا يُسئَل عما يفعل » . ودعوى النفوذ إلى الحِكم الإلهية لخالق الكون الذى نعجز عن إدراك سر ذاته ، مردود منطقا . أما إثبات هذه المسألة عقلا ، فإن الله خالقَ الكون قد منح كل مخلوق طبعا وجِبِلّةً واستعدادا خاصا . وكما أن المخلوقات يمتاز بعضها عن بعض ، فإن لكل فرد ولكل شخص من نوع واحد ميزة ورجاحة على سائر الأفراد . وهذه الكيفية من الأمور الظاهرة ومن الحقائق التى أجمع عليها العقل والنقل . ومن جهة أخرى ، إن الخليقة تابعة لقانون أصلى شامل، كما أن سير العوالم ودوامَه وتسلسلَه ، وامتداد نوع الإنسان وتطورَه تابع لقواعد خاصة ناشئة من ذلك القانون . ومن مستلزمات هذا القانون أن حياة ذوى الأرواح ورفاهيتها على ظهر الكرة الأرضية ، قائمة على إزهاق حياة المخلوقات الأخرى ، وربما قامت على إزهاق أرواح أفراد من نوعها . فيهزم القوى الضعيف . ويهلكه فى هذا القتال ، إن هذه الحال التى تبدو مكروهة فى بادئ الأمر ، هى مقتضى الطبيعة وسببُ

دوام الحياة . وقيامُ الحياة على الممات حقيقة ثبتت عند المفكرين بالتحقيق والحساب .
وهذا هو النظام الطبيعي لهذه الدنيا التي هي في حكم ذرة في الكون .

لا نعلم بالطبع كيف تسير الحياة في سائر الكرات السماوية[٤٣] . ولكن النوع البشري أقوى مخلوق على ظهر الأرض بقوة ذكائه . وإذا أطلق استعداده الفطري لتأمين حوائج حياته ومَلاذّه النفسانية على حساب الغير ، وشرَع في تطبيقه بلا قيد ولا حد ، فإنه يكون سببا لكثير من الفساد والفتنة ، وربما كان سببا لانقراض نوعه .

هذا ولو حُدَّ هذا الاستعداد بحس فطري وطبيعي ، فإنه يكون سلبا لإرادة الإنسان الجزئية ، وهو من أشرف المخلوقات ، وتنزيلا له إلى منزلة سائر الحيوان .
وبمثل هذه الأسباب تتحقق حاجة البشر إلى الشرع والشارع .

إن الفرق بين أنواع المخلوقات ، والفرقَ بين أفراد النوع الواحد ، وتفوُّقَ بعضها على بعض ، واضح بين كما قلت سابقا . وبناء على هذا يمكن أن يكون لبعض أشخاص التميز بين أبناء نوعهم ، بقوة ملكاتهم العقلية ، ورقة إحساسهم ، وقد بلغوا مكانة ممتازة في طريق التطور البشري ، استعداد للتأثر بالقوى الخفية والتلقي منها ، أو بالتعبير الديني للوحي والإلهام . فهؤلاء الخواص ظهروا في مختلف عصور تاريخ البشر ، وكانوا دليلَهم إلى طريق الرشد والهداية .

* * *

ويمكن أن يوجه المعترضون لهذا الرأي هذا السؤال : « هل كان هؤلاء المرسلون صادقين في دعوى إرسالهم من الله ؟ » .

إن هذا الاعتراض يفقد قوته بعد التصديق والتسليم وجدانا بإمكان البعث من الله ، وإصابة هؤلاء الرسل الكرام في إرشاداتهم ، وثبوت فائدتها في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك فالرأي الآتي خليق بالتأمل :

يعترف معظم الفلاسفة والحكماء الذين بحثوا في الأحداث العظيمة الكونية

والأحوال النفسية البشرية بأن الأفكار التى كثيرا ما تخطر على بال الناس ، ناشئة من إحساس طبيعى ، وأنها إن لم تكن حقيقةً محضةً ، فهى مستندةٌ على أساس صحيح على كل حال . والحق أن فكرة الرسالة المعنوية كهذه ، تأتى إلى بعض أشخاص قد تعلقت قلوبهم بآمال خاصة ، وانحصرت أذهانهم وأفكارهم فيها ، واقترنت مساعيهُم بالتوفيق ، وهم فى المرتبة الثانية أو الثالثة من عظماء الخليقة ، الذين اعترفت برسالاتهم جماعات بشريةٌ عظيمة . فإسكندرُ وقيصرُ وأوغُست من عظماء التاريخ ، كانوا منهم ؛ كما ثبت من مُذَكِّرات نابليون ، ذهابه إلى هذا الرأى بعد موقعة « لودى » . ولما كان هؤلاء وأمثالُهم من الساعين خلف آمال دنيوية فليُحمَل ادعاؤهم على مقاصد خاصة ، وليُحمَل مقاصد بعضهم على داء العظمة ، ولكن من المشهور المتواتر أن سقراط كذلك كان مقتنعا برسالته المعنوية ، وتشرُّفه بالتلقى والإلهام . وقد ثبت من مناقبه ومؤلفاته براءتُه من الأغراض الدنيوية ومقاصدها . ومن أكابر الحكماء المتأخرين هربرت سپنسر ، ومساعيه شاهد عدلٌ على خلوص نيته ونزاهة نفسه ؛ ذكر هذا الحكيم فى أواخر بحثه الفلسفى المسمى فوق الأدراك Inconnaissable ، تأييدا لفكرة ضرورة الجهر بما يطرأ على مفكرة المرء من عقيدة، وقال : « يجب على المرء أن يَعُدَّ نفسه إحدى الوسائط غير المحدودة للسبب الخفى ، وأن يعلم أن ما حدث فيه من العقيدة هى أثر تلقينه ؛ ويجب أن يَعُدّ حصول هذه الفكرة والعقيدة عنده سببا كافيا لإظهارها ونشرها . ثم قال بعده بأسطر : « كما ينبغى للإنسان الكامل ألّا يستصغر ما يعتقده ، بل ينبغى له أن يُظهر بلا تحرز ما يرى من الحقيقة العُلوية . وبهذه الطريقة — مهما كانت النتيجة — يكون قد قام بواجبه فى العالم . إن حصل التغيير المنشود ، فهو المطلوب ، وإن لم يحصل فهذا الشروع نفسه مفيد » .

يستدل من هذه العبارات أن سپنسر يعترف بأن الناس يمكن أن يكونوا وسطاء لسبب خفى ، أو للمراد الإلهى كما نعتقد ، وأنهم يحصلون على عقائد بتلقين

غيبي يُكلَّفون نشرها ، أو بعبارة أصح أن سپنسر يحس ذلك فى نفسه . إن كون الإنسان موضعا للتلقين الغيبي أحيانا ، صار من الأمور المثبتة بالتحقيقات الأخيرة ، أو كاد . فإنى أوصى بقراءة كتاب « المجهول inconnu » لكميل فلاماريون ، للاستنارة فى هذا الشأن . وعلى هذا لا محل لاستبعاد كون الأنبياء العظام مظاهر للوحى والإلهام بأوضح صور وتأثير (٤٤) .

كذلك رأى جوته ، الشاعر الألمانى الشهير ، أن استلهام الأدباء بعض المصطفَين من الناس ، أدنى إلى الحكمة من تلقى الإلهام من الله بلا واسطة .

فليُتَصور إنسان يحس فى نفسه رسالة غيبية ، فيشرع فى إبلاغها لجمهور يكاد ينازعهم منفردا . وينتهى إلى أن قوما جاهلين متمسكين بعقائدهم أشد تمسك ، ينقادون لقوله . لا يجمعهم حوله بإغرائهم بالمنافع الشخصية ، بل بحرمانهم من كثير من المنافع والملاذّ النفسانية . ولا يكتفى بعدم قصده إلى منفعة دنيوية ، بل يُظهر الاستغناء إلى حد حرمان أولاده من ميراثه الضئيل . ثم ينشر بسرعة العقيدة التى يلقّنها ويعممها فى الدنيا فى زمن قليل ، ويضمن استمرارها ودوامها قرونا طويلة . إن عدم رؤية أمر خارق وقوّة إعجاز فى شخص كهذا ، خليق أن يحْمَل على عمى البصيرة .

سيرة النبي محمد عليه السلام :

ليست مناقب الأنبياء العظام معلومة تاريخيا ، ومسجّلة بالتفصيل . وإذ أن كل حالة من أحوال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته مسجّلة مضبوطة ، فإنى أبادر بتمتيع الأذهان بسيرته النبوية ، لإيضاح الدعوى .

كانت قبيلة قريش التى ينتمى إليها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم منتهيةً إلى إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام ، وممتازة بين القبائل العربية ، وذات مكانة عظيمة ، لاختصاصها بسدانة الكعبة المعظمة ، التى يجِلها العرب منذ القدم ، وحمايتها ولما كان الرسول من نسل بنى هاشم المختصين بسقاية الماء وعمارة المسجد الحرام ،

وحفيد عبد المطلب الذى حاز رياسةَ القبيلة كلها مدة من الزمن ، كان شريفا من كل الوجوه ، إلا أنه كان فقيرا ، ليُتمه من أبيه قبل ولادته ، ومن أمه فى سن صغيرة ، وأميا . قد مضت طفولته عند مرضعته فى الصحراء ، ومضت حياتُه حتى البعثة فى مكة ، وقام بأربع رحلات : إحداها إلى يثرب (المدينة المنورة) ، والأخرى إلى بُصرى بالشام ، والثالثة إلى دمشق الشام ، والرابعة إلى اليمن . اثنتان منها فى سنه الصغيرة ، والأخيرة فى السادسة والعشرين من عمره ، أى قبل أربعة عشر عاما من بعثته . ولما كانت ملاقاته الراهب بحيرا فى سفرَتِه الأولى إلى الشام فى رُفقة عمه أبى طالب ، وهو فى الثالثة عشر من عمره ، فلا يحتمل اقتباسه منه . وقد اشتهر منذ صباه بالنزاهة وحُسْن الُخلق والوقار والاستقامةِ ، حتى عُرِف بين العرب بالأمين .

ولَمّا بلغ الأربعين من عمره ، قام ضد قومه وقبيلته ، بدعوى أنه مرسَل من الله سبحانه وتعالى ، فأعلن بطلان عقائدهم ، ودعاهم إلى الدين الحق .

لا يجوز عقلا ومنطقا أن يغير رجل فجأة مسلك الأمانة والاستقامة الذى عرف به واشتهر حتى الأربعين من عمره ، ويسلك طريق التزوير .

يمكن أن يُعد النبى أسعدَ رجل فى قبيلته حتى قيامه بهذه الدعوة . فهو من أشرف أُسَرِ قريش ، وأحبٌّ الناس إلى القلوب ، لحسن خُلُقِه وأمانتِه ، وثَرِىٌّ بفضل زوجته الكريمة ، وذو عزة ورفعة برياسة عمه أبى طالب . وما إن قام بدعوى الرسالة حتى انقلبت عليه قبيلتُه كلُّها ، بل أحدُ أعمامه أيضا (أبو لهب) . استُعمل معه كل أنواع الإيذاء والجفاء والتحقير والتهديد ؟ ووُعِد فى خلال ذلك برياسة قريش ، والزواج من أجمل بناتهم ، و بتخصيص ثروة عظيمة ، ولكن ما كان منه إلا الإباء ، وردُّ ما وُعِد به من المنافع والنعيم ، والتضحيةُ بكل ما لَه من أسباب السعادة والرفاهية السابقة ، وتحمُّلُ المشاق والمِحَن ، والتوكلُ على الله أمام كل تهديد ، والثباتُ على تبليغ رسالته مُصِرّا . ولا يمكن حملُ هذه التضحية على أمل دنيوى خاص منتظر إذا انتهت الدعوة إلى نتيجة موفَّقَة ، لأن الحياة التى اختارها بعد

الهجرة ، وبعد أن تم انتصارُهُ على قريش وحلفائهم وزاد المسلمون ، وهو رئيسهم الطبيعي ، ثروة وقوة ومنعة ، فقيرةٌ متواضعة إلى درجة لا يمكن مقارنتها بحياة العز والرفاهية التي عاشها قبل البعثة بمنزل خديجة . فأثاث بيته وفرشه أدوات من قبيل الصحون والجرار ، وقطع الحصر ، وأغلب طعامه تمر ودقيق الشعير . وفضلا عن قيامه بشئونه وشئون بيته ، كان من عاداته المألوفة معاونته الشيوخ والعاجزين من جيرانه ، وإيصالُ حاجاتهم إلى منازلهم حاملا على ظهره . تلكم هي الحصةُ من المنافع التي اختص بها نفسه من الانتصار الذي وفق له بعد تلك المحن والمشاق ، والرياسةُ التي ظفر بها ! (٤٥)

قال الشاعر التركي عبد الحميد ضيا باشا :

« كان ذلك الأميرُ سلطانَ الكونين ، يستوى عنده الموجود والمعدوم

لقد خضعت لأمره الممالك ، ولم يكن لثلاثة من القمصان مالك ؛

كان يمضي معظم أوقاته جائعا ، بينما راياتُه تخفُق مظفرة .

قضى معظم وقته مَدِينا ، ولما توفي وجد درعه رهيناً .

كان يؤثر الفاقة ويفتخر بالفقر

لم يمل ذلك الطائر القدسي العش إلى جيف هذه الدنيا ! »

هل يُبحث عن دليل خير من هذا لكمال إيمان هذا الرجل ؟

كانت زوجته خديجة الكبرى رضي الله عنها أوّلَ من أجاب دعوته من حرائر النساء ، ثم أجاب دعوته أبو بكر من الرجال الأحرار ، وعلي بن أبي طالب ابن عمه من الصبيان ، وزيد بن حارثة من المعتقين رضي الله عنهم . ثم دخل عثمان وبعض عظماء قريش في الدين الحق ، إلا أن هؤلاء الأخيرين هاجروا من وطنهم ، عاجزين عن تحمل اضطهاد القبيلة : فهاجر معظمهم إلى الحبشة ، وبعضهم إلى يثرب بلدِ أم عبد المطلب جد الرسول ، تاركين وطنهم وبيوتهم وأموالهم ، مضحّين بكل ما ملكت أيديهم في سبيل الدين . وحُرِم علي ميراث أبيه أبي طالب . ولكن لم يقدر على

انتزاع هذا الشاب الشجاع عن عقيدته ونبيه لا هذا الحرمان ولا الأخطاء الكثيرة التى تعرّض لها . وترك أبو بكر ، وهو رجلٌ ثرى داره ووطنه ، وأنفق ثروته وأمواله فى سبيل الدين . وأما الأنصار ، فلم يكتفوا بإيواء المهاجرين و إطعامهم مكرّمين فحسب ، بل اقتسموا أموالهم بينهم و بين من لجئوا إليهم ضيوفا ، وقاوموا مستميتين هجمات جزيرة العرب كلها وخُدَع اليهود ، وجاهدوا فى سبيل الدفاع عن المهاجرين . إن هذا البذلَ العظيم للنفس والنفيس دليل على قوة التلقين ، ولا تنشأ هذه القوة إلا من العقيدة والإيمان الكاملين ، لأن فكرة غيرمعتَمَد عليها باطمئنان ، لا يمكن تلقينها الغير تلقينا أساسيا كهذا ، بدون إغراء بعوض دنيوى (٤٦) .

ظل الرسول الأكرم ثلاثةَ عشرَ عاما بمكة بعد البعثة ، متحمِّلًا أنواع التهلكة ، صابرا على الظلم مع عدد من أصحابه الصادقين الأوفياء ، برغم مهاجرة معظم أصحابه . إن جهالة العرب وتعصبَهم ، وتمسكهم الشديد بأصنامهم ، وانتقال السلطة بعد موت أبى طالب إلى بنى أميةَ الذين ينظرون إلى منافع مادية من عبادة الأصنام . كل هذا لم يستطيعوا إيقاع أى ضرر بالنبى فى هذا النزاع العديم النظير . وقد حدثت الهجرة إلى المدينة فى أحسن الأوقات . ففى أقل من عشرة أعوام دخلت جزيرة العرب كلُّها فى الإسلام . ثم لم يمض خمسون سنةً حتى دخل شمال إفريقية وسورية و إيران وما وراء النهر ، وأكبر قسم من آسيا المتمدنة حتى بلاد كاشغر فى حوزة الإسلام . وبعد ثلاثة عشر قرنا تؤمن بما بلّغه من الشريعة والدين أمّة يزيد عددها على ثلاثمائة مليون نسمة .

و يبدو لى أن ظهور رجل أمّي من بلد بعيد بجزيرة العرب وانتصاره هذا ، محروما فى الظاهر كل معين وظهير هو بذاته معجزة . ولا جرم أن الإتيان بجملة من العقائد والمبادئ الأخلاقية أُدرِكَ صدقها عقلًا وعلمًا بعد ثلاثة عشر قرنا ، على حين كانت البيئة كلها منغمسة فى ظنون سخيفة ، واعتقادات باطلة ، وتعميم تلك المبادئ ، هو أمر خارج عن الطاقة البشرية .

ظهر مئات من الفلاسفة والحكماء فى عالم المدنية فى الأزمنة الأخيرة . وفى الإمكان الوصول إلى الحقيقة و إثبات النظرية الموضوعة بطرق أسهل ، لتوافر كثير من وسائل العلم وضروب من وسائل النشر والإذاعة ، ومع ذلك مَنْ منهم ترك خلفه أمّة ؟ وحُكم أى فلسفة استطاع الدوام ؟ كنت أتلقى الفلسفة فى أيام شبابى ، فقرأت فى ديباجة مجلة بالفرنسية هذه العبارة : « يتعرض المؤلف الذى يسمّى كتابه بالفلسفة لهذا السؤال : عن أية فلسفة تتحدث ، أعن فلسفة الأمس ، أم عن فلسفة اليوم ؟ أعن الفلسفة التى ماتت اليوم ، أم عن التى ستموت غدا ؟ » . هكذا جميع كتب الفلاسفة الذين يبنون فروضهم ونظرياتهم على مكتشفات العلم والمنطق وقياساته ، سريعةُ الزوال باعترافهم هم أنفسهم . فهل يمكن أن تكون قداسة الأنبياء العظام الذين قدروا على نشر شرائعهم وتمكينها إلى هذا الحد ، محلا للتردد والاعتراض ؟

الاعتراض على النبوة المحمدية

يمكن أن يُعترض على النبوة المحمدية بالاعتراض الآتى : « إن الدين الإسلامى يأمر بتصديق الأنبياء العظام إطلاقا ، و يصدق بنبوة عيسى عليه السلام . فهو إذن معترف بأن النصرانية دينٌ حق . ولكن لم يكد هذا الدين يظهر ، حتى نشأ اختلاف فى أصول كتابه ، فضاع معنى ، ثم لم يمض غير زمن وجيز حتى ذهبت أمته إلى أن المسيح ابنُ الله ، و إلى ربوبيته — حاشا لله — على حين أن ظهور كتاب مقدس وضياعَه مغاير للعقل والمنطق ، كما أن ربوبية عيسى عليه السلام منافية لأصل العقيدة الإسلامية . و إذا كانت العقيدة المحمدية صحيحة ، فتكون المسيحية شبيهة بشهاب أفل مع طلوعه ! » .

والحق أن العقيدة الإسلامية تنكر بتاتا ادعاء المسيح للألوهية . إن ورد التعبير بكلمة الأب عن الله ، فإنها استعملت على ما نعتقد مجازا بمعنى الرب والحامى

والرحيم — كما فى اللغات السامية — . وفى الأناجيـل المتداولة بين الناس اليوم آيات كثيرةٌ تخاطب الناسَ بكلمة « أبوكم الذى فى السماء » . وهذا دليل على أن عيسى عليه السلام لم يقصد بذلك أباه ، بل يثبت استعمال كلمة الأب بمعنى الرب . وأما حدوث التحريف فى الأسس الإنجيلية بعد زمن وجيز[٤٧] فلعله من مقتضيات العصر . فقد كان كل الدنيا تقريبا قائلة بتعدد الآلهة فى زمان بعثة عيسى عليـه السلام . و بلغت العقيدة البشرية الأساسية الفطرية التى بدأت بالبحث عن سر الخليقة وتبجيلها إلى هذه الحال من تراكم الأفكار والظنون الملوثة بالتحريف على التحريف . والشعب الإسرائيلى هو الشعب الموحّد الوحيد فى ذلك العهد ، وكانوا محتقرين من الشعوب المجاورة ، ومغضوبا عليهم . ولا جرم أن العقائد الصحيحة والدينَ الحق الذى بلّغه موسى عليه السلام قد مُنِى بتحريف لضياع التوراة ، وطول الزمن ، حتى بلغ بهم الضلال إلى أن ذهب بعضهم إلى تأليه عُزَير . فكان التوحيد الذى علّمه الإسلام بعد ذلك بخمسة قرون أو ستة ، والذى صدّقته الفلسفة الحالية وسلّمت به ، يمكن — حسب البشرية — أن يكون عسيرا على الأفكار العامة الفاسدة إذ ذاك أن تقبَله فجأة . الحقيقة واحدة لا تتغير ، إلا أن فهم البشر لها و إيمانَهم بها يسير سيرا تدريجيا نحو غاية الإصلاح والتطور ، كما أن إصلاح الأخطاء التى حدثت أخيرا و إزالتَها تابع لقاعدة التدرج واستعداد البيئة .

فإذا قيل إن ضياع الإنجيل وانحراف العقيدة الخالصة المسيحية عن طريق الحق ، كان مبنيا على حكمة سهولة انتشار النصرانية ، فلا يكون زمان ادعاءً بعيدا عن العقل والنقل كثيرا[٤٨] . إن كثيرا من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، تدل على أن الأديان قد وُضِعت لإرشاد بنى البشر إلى السلم والصلاح ومحاسن الأخلاق ، و إلى طريق الحق . فإذا بُحث فى التاريخ فيُحكم بأن النصرانية أحدثت انقلابا كانت البشرية فى حاجة إليه فى ذلك الوقت ، مهما كانت مدة دوام العقيـدة الخالصة .

فلننظر إلى الإمبراطورية الرومانيـة — وهى من الدول المسيطرة على القسم الأعظم من الكرة الأرضية ، حين ظهور النصرانية — التى ملأت أباطرتها أمثال نيرون وهليوجابال الدنيا ظلما وسفاهة ؛ والدولةِ الفارسية التى أدارها أمثال جودرز وهرمز وفرهاد الذين بلغوا أغراضهم بسمل عيون آبائهم و إخوتهم وأولادهم غير مكتفين بظلم الناس ! فهل كانت البشرية تستطيع المثابرة على الخضوع لهم ولحكوماتهم ؟ فهكذا ظهرت النصرانيةُ فى زمن فسدت فيه البشرية ، ومُنِيَت بسوء الخلق ، وانتشرت رويدا رويدا فى الغرب وأوروبا . والواقع أن دماء غزيرة أريقت فى هذه السبيل أولا وآخرا ؛ وذهب كثير من الأبرياء من دعاة العقيدة الجديدة ضحية فى سبيل أفكارهم و إيمانهم ، على أيدى بعض الظالمين والرهبان ، ولكن ظهرت فى الدنيا رويدا رويدا صفوة خلقية جديدة نسبيا ، ووُضِعت أسس للمدنية الحالية بين الموجات المتناقضة . ومن ضروريات القانون الطبيعى لهذه الدنيا أن يتم بقاء البشرية وتطوُّرُها بالصعود والهبوط ، والسلم والحرب ، والتضجر والانبساط ، والسرور والاضطراب ؛ وخلاصة الكلام بالتضاد والانقلاب .

وتعرّض الإسلام لطعنات الملحدين ، لاعترافه بولادة المسيح بدون أب ، فهو يبين أن روح عيسى نُفِخت فى مريم بوساطة ملَك . و إذا نظرنا إلى نظريات الحكماء فى كيفية ورود الحياة من سائر العوالم إلى الأرض ، وآمنا بالله والملائكة ، قانعين بما يُسرد من الأدلة فى ذلك فى بحوثهم الخاصة ، فإن نفخ الروح بواسطة لطيفة يكون على كل حال أقرب إلى العقل مما يفرضونه من الرحلة الجوية لخميرة الحياة . ووقوع الشذوذ فى قانون الخليقة معروف كما سنبينه . فلماذا ينبغى ألا يكون الاعتراف بحالة شاذة كهذه لرجل قدسى أحدث فى العالم انقلابا خارقا ، مزعجا إلى حد إنكار أصل دينى .

ومع ذلك فإن الاعتراض على خلط الأديان بالخرافات حتى تصل إلى تأليه الأنبياء ، أو مقارنتهم بالألوهية باختراع مناقب لهم وحكايات تدور حولهم ، حق وواجب .

إن هذه العقائد الفاسدة القريبة من الشرك ، أو هي الشرك بعينه ، لتفتح بابا تلج منه الشكوك والاعتراضات ، فتنال من القداسة الدينية فى نظر البسطاء .
ومع ذلك أقول هنا جملة معترضة ، إنه إذا كان مثل هذا الإدراك والتفهيم حمقا وضلالا ، فإن الإيمان بهذه الأمور بلا تحقيق على أنها عقائد دينية ، والتصدى لإنكار حقيقة دينية ولا سيما الإسلام ، جهل وقلة ملاحظة مثله .

الخوارق للعادة :

ولما كان طبيعيا أن يترك هؤلاء الأنبياء آثارا عميقة فى ضمائر معاصريهم ، وأن تنتقل هذه الآثار إلى أخلافهم مبالغا فيها ، فإن أفكار البشر ظلت قرونا جائشة بسيرهم ومناقبهم . فكما أن أمة عيسى عليه السلام ألهته بعد رفعه إلى السماء ، فإن عمر رضى الله عنه الذى تقوم أفعاله برهانا على متانته وفضله وعرفانه ، لمّا سمع خبر وفاة الرسول اهتاج إلى درجة تهديد من أخبر بموته بالقتل ؛ وأراد الذهاب إلى عروجه إلى السماء ، ولم يمنع الفسادَ سوى وصول أبى بكر الصديق وتلاوته الآية الكريمة : « وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم » .

ظلت عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ورفعةُ فطرته شاغلةً أذهان البشر ، وظهر كذلك تأثير الاستعداد الشعرى وقوةُ المخيلة البشرية الجِبِلِّية ، فأراد بعض الصوفية استخراج معنى عشق الله لنبيه من صفة حبيب الله . وفى القرآن الكريم آيات كثيرة كقوله تعالى « إن الله يحب المحسنين » و « إن الله لا يحب المعتدين » كما تدور فى أفواه العرب الحكمةُ المعروفة « الكاسب حبيب الله » . ويُفهَم من هذا عدم لزوم أخذ كلمة « حبيب » بمعنى العاشق .

غير أن الناس لم يكتفوا بهذا القدر ، بل اختلقوا كلمة « لولاك لولاك لما خلقتُ الأفلاك » باسم الحديث القدسى ، فافتروا بهذا على الله وعلى حبيبه المتواضع

وأدخلوا فى الإسلام عقيدةً نصرانية فى عيسى عليه السلام .

يجب التصديق والتسليم روحا وقلبا بقداسة نبينا وعظمته ، وإجلالُ ذاته ومنزلتِه بالقياس إلى بنى البشر وكافة المخلوقات ، ولكن كلّ قول وكلّ تصوُّر يمكن أن يتضمن مقارنته بالألوهية فباطل .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وهذه الحقيقة ثابتة بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية .

إن الدين الإسلامى عرّف الله سبحانه منذ ثلاثمائة وألفِ عام ، بما يتفق مع علم اليوم وفلسفته ؛ فالله واحدٌ قادرٌ حكيمٌ أبدىٌّ أزليٌّ متعالٍ ، ومنزه عن إحاطة العقول به . وأما النبى فبشَرٌ مرسَل من الله لإرشاد الناس وهدايتهم . فقد أعلم خير البشر هذه الحقيقة بلسان القرآن حيث قال : « لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم » و « وما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلىّ » ، وبأحاديثه النبوية التى تحدث بها بتواضع تام . والأنبياء مهما علا قدرُهم فإن نسبتهم إلى الربوبية كنسبة وجود معين محدود لما لايتناهى . فالله البارئ المطلق لا يمكن مقارنتُه بمخلوق أو بموجود مهما علا وتقدّس . إن الأنبياء مكلّفون رسالة من الله ، وليس ما يخالف العقل فى تصديق ذلك . ولكن لا تؤدى هذه الوظيفة المعنوية والرسالة الألوهية إلى تصور تبليغ الأوامر الإلهية وجها لوجه ، كما يتصوره بعض الجهال . وإنما تُلقَى هذه الرسالة المعنوية إلى أذهانهم وقلوبهم ، بوسائط لطيفة ، فيقومون بتبليغها بأفعال وحركات بشرية .

ولما كان أولو العزم من الرسل يَدْعون الناس إلى الطريق المستقيم ، مبشِّرين ومنذرين ، لا طوعا ولا كرهاً بقوًى مادية ودنيوية ، قاهرة أوجاذبة ، فإن الأديان المنزلة تمس حقيقة الخِلقة وعالَم الغيب . وليس فى طاقة طائر الفكر البشرى التعمّق فى عالم الإطلاق والسرمدية واللاتناهى . ولا يقدر العقل الإنسانى على التيقن من

الحقائق اللدنّية كما ينبغى ، فلذا لايمكن أدراك مؤدّى التبليغات المعنوية عقلا إدراكا تاما — ولو أنه يلوح لأذهان بعض العارفين — وبهـذا يزول التضاد والاختلاف ، وهما من طبيعة عالمنا هذا ، ويكون عالما منطقيا .

إذا بُحثت المسائلُ الدينية من نقطة النظر هذه زال كثير من الشكوك والظنون ، ويتجلّى فى القلوب الرفق والتسامح وتُقبل الخلافات الفرعية — ما عدا الشرك — بصدور رحبة ، فتتم أمنيةُ السلم والأمن ، وهما غاية الإسلام .

٤ — وكُتُبِهِ

والاعتقاد بالكتب السماوية ركن من أركان الأيمان ، ومن شرائطه الأصلية .
والكتب السماوية تحتوى على ما بلَّغه الأنبياء العظام من الأوامر إلى أممهم عن الله .

ومن معتقداتنا أيضا ضياع كتب الأمم السالفة ، أو تحريفها بمرور الزمن ، وتقلبات الأحداث ، و بقاء القرآن الكريم العظيم الشأن محفوظا ، كما صدر عن الفم النبوىّ ، وهو حقيقة ثابتة تاريخيا .

والقرآن المجيد أثر وحى وتلقين معجز وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لتنفيذ الأوامر الإلهية .

ويقع الوحى كما ورد فى الخبر ، بطرق مختلفة : فإما ينزل مرة واحدة ، كما فى الألواح العشرة للتوراة ، و إما فى الرؤيا أو فى حال اليقظة متتاليا . وقد نزل القرآن الكريم ، وأكثره فى اليقظة ، نزولا تدريجيا فى ثلاث وعشرين سنة . وكان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يبلَّغُ — نظرا إلى إفادته — بواسطة مَلَك متمثل فى صورة إنسان (انظر بحث الملائكة)

بلغت البلاغة العربية أَوْجها قبل بَعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت مكة مجمع الفصحاء والشعراء ، يجتمع بسوق عكاظ بجوار مكة أربابُ الفضل والأدب ، من أطراف جزيرة العرب ، فينشدون قصائدهم ، ويُعلق منها ما حاز استحسان الجميع بجدران الكعبة . ولما بُعِث محمد ، وقد ثبتت أُمِّيَّتُه تاريخيا ، وبلَّغ رسالته ، استُقْبِلت فصاحة الآيات القرآنية بحيرة واندهاش ، وأنزلت المعلقات من جدران الكعبة . وآمن لبيد ، وهو ناظم إحدى المعلقات بالرسول ، مبهوتا بفصاحة القرآن . وحاول المعترضون بأن يأتوا بمثلها فعجزوا . إنهم نظموا جملة

« القتل أنفى للقتل » نظيرة للآية الكريمة « ولكم فى القصاص حياة » ، إلا أن رجحانَ هذه الآية المؤلفة من ثلاث كلمات على تلك الجملة لفظا ومعنى ومن وجوه كثيرة مسلّم به عند جميع أدباء وعلماء الأمم التى مرّت منذ نزولها حتى اليوم .

حاولتْ بعض جماعات نصرانية ولا تزال تحاول حتى اليوم ، الإتيان بمثل ما جاء به القرآن ، وألف بعضُ أعداء الدين مقالا بعنوان « سورة النورين » فى فضل الأسرة العلوية الطاهرة وحقوقها .

لما رَفَع الجيش العثمانى الذى أُرْسِل لتسكين وقَمْع الثورة التى نشبت فى اليمن ، بعد الدستور العثمانى ، الحصارَ عن صنعاء ، وأذيع الشروع فى إنشاء ائتلاف أسامى ، أراد وراق ، قال إنه دانماركى ، الإقامة بالحُديدة ، وأن يشتغل ببيع بعض كتب دينية وتوزيعها . كان غرضه واضحا جد الوضوح ، فلذا حيل بينه وبين نشاطه ، برغم ادعاء القنصل الإنجليزى حمايته له ؛ إلا أن نسخة من « الوحى » — وهو من الكتب التى جاء بها — أحضرت إلى صنعاء .

ينشأ بين الزيديين علماء عظام أفاضل ، ولكنهم برغم صلابتهم الدينية ، لا يُعنون بحفظ القرآن . ففى ذات يوم دُعِىَ السيد القاضى العَمْرى من أكابر علماء اليمن إلى مركز القيادة العامة ، وتُلِيَت أمامَه « سورة النورين » من كتاب « الوحى » جهرا على أصول تلاوة القرآن . وما قُرِئ سطر واحد حتى سد هذا العلامة أذنيه مستغفرا صائحا « هذا ما قرآن ! » . إن الواقفين على دقائق لسان العرب العارفين الذوق القرآنى ، يسلّمون باستحالة الإتيان بمثل آية منها .

فاذا تُلِى القرآن جاش ذوو الإحساس متأثرين بلفظه ومعناه ، لأنهم يحسون قدسية هذا النظم الجليل ، والكلام البليغ ، الذى ينحصر نوعه فى ذاته ، والذى هو ليس بنثرٍ خالص ، مع أنه ليس بشعر موزون .

يعترف أكثر مستشرقى الغرب بفصاحة القرآن ويقدرونها ، ولا يندر فيهم من يدرك معانى القرآن والفضائل الإسلامية ويجلها . ففى الفصل السادس من

كتاب «ماهو القرآن» للأديب الفاضل عمر رضا معلومات نافعة فى هذا الباب .

رأى جوته فى محمد :

وألخص هنا علاوة على ذلك ، بحث « محمد » من كتاب « ديوان الشرق للمؤلف الغربي » [الكتاب ألمانى ، وهذا العنوان مكتوب على ظهره بالحروف العربية] لجوته الكاتب الألمانى المعروف بأنه أكبر شعراء أوربا وفلاسفتها .
وصف محمدا بأنه « رجل خارق للعادة ، وأنه نبى ، وليس بشاعر ، ولم يتحدث فى كتابه عن موضوعات مداعبة مسامع القراء وأذواقهم ، كما يفعل الشعراء ، وإنما حصر كلامه فى غاية مقدسة جعلها نصب فكره ، وأن زبدة القرآن هى الآيات السبع الأولى من سورة البقرة وقد ترجمها ، وأن الغاية المتبعة من الوعد والوعيد اللذين يتكرران دائما ، واحدة فى القرآن كله ، وهذا التكرار إن كان يبدو فى بادئ الأمر مملا ، إلا أن بلاغة القرآن تنتهى إلى انجذاب الإنسان إليها وبهته ، ثم إلى تقديسه إياها» . وقال فى كلامه عن أسلوب القرآن : «إنه واضح وحاسم وعظيم ، مناسب لموضوع الكتاب ومفيد ، وبعضه عال حقا . فإذا ووزنت الملاحظات المتناقضة فلن يستغرب أحد من التأثير العظيم الذى يؤثره هذا الكتاب » . تكلم جوته مختصرا عما دار حول القرآن من المجادلات ، ثم قال مدافعا عنه إلى حد ما « إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد ، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحاجات الفكرية لقوم معتزين بتقاليدهم ، متمسكين بعاداتهم القديمة » . ثم قارن القرآن بالأدب الفارسى الذى كان رائجا قبل البعثة المحمدية ، فنزهه إلى حد التناقض مع موضوعات ذلك الأدب المتهتكة ، وذكر بالحمد والثناء أن القرآن قد قلب العهد العتيق إلى سير الأنبياء ، وجعل قصصه الأسطورية فى قالب مفيد . وأما قصص نوح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام فيراها جوته معجزة !

إن شهادة رجل بعيد عن البيئة التى نزل فيها القرآن المجيد ، غير واقف على

دقائق لغة العرب ، ومحروم ما فيها من الذوق الأدبى ، بهذا الإجلال للقرآن لتُعد برهانا ساطعا لعظمته .

نزول القرآن

من المسلمات التاريخية أن محمدا كان أميًّا ولم يفارق مكة منذ أعوام قبل بعثته ، [وكان يعتكف فى أوقات معينة من كل سنة فى غار حراء بجوار مكة] . وكان أبو بكر أول من اقتدى به من الرجال ، وهو يكاد يكون من سنه . ولم يكن مشهورا بالفصاحة والبلاغة . وأما علىّ فكان لا يزال صبيا (فى الثانية عشرة من عمره) . وأما الذين أسلموا بعد ذلك فقد جذبت أغلبهم فصاحة القرآن و بلاغتُه و براهينه المقنعة . ومنهم عمر رضى الله عنه المشهور بين العرب بالاستقامة وحدة الطبع .

نزل القرآن الكريم فى ثلاث وعشرين سنة . وكانت حياة الرسول فى هذه المدة عارية عن كل أنواع الأسرار الدنيوية . وإذا كان مستبعدا من رجل أمى لم يشتهر بالشعر والإنشاء ، بل لم يزاولهما حتى الأربعين من عمره ، أن يأتى بمثل هذا الأثر البديع ، فإن احتمال إنشائه سرا من قِبَل رجل آخر ، ليس بأقل استبعادا من الإتيان به .

ومن المتفق عليه أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا الآيات القرآنية فى بداية نزولها فى حالتى الوجد والانجذاب . وهذا هو الفرق بين القرآن والحديث ، ولا جرم أن بين أسلوبيهما فرقا عظيما . كما أن مشركى زمانه قالوا : « إنه معلم مجنون » فإن أعداء الدين يقولون حتى اليوم بأنه كان مصروعا لهذا السبب ، أى لتلاوته الآيات القرآنية للمرة الأولى فى وجد وانجذاب . ولن يمكن اجتماع الجنون والحِكم والانتصارات التى وفِّق لها فى حياته ، فى صعيد واحد . إن سُميت حالة

الوجد التى كانت حين تبليغ الآيات ، بالصرعة ، فقد ثبت طبيا تنقيص هذه العلة للذكاء[٤٩] . على حين أن الاتيان بمثل هذا الدين وجمع هذا القدر من الناس حوله متوقف على ذكاء غير عادىّ . وعكس ذلك تكون حالة خارقة للمادة وفوق الطبيعة . وخلاصة الكلام أننا إذا بحثنا فى أية نقطة من نقط النظر تبين لنا تفوق الرسول صلى الله عليه وسلم على بنى نوعه ، وامتيازُهُ عنهم ، وإعجازُ القرآن الكريم .

٥ — واليومِ الآخِرِ

والاعتقاد باليوم الآخر ركن من الإيمان . إن كان المراد من اليوم الآخر فناء البشر وسائر أقسام الكائنات فهذا ثابت عقلا ونقلا . لأن كافة المخلوقات حادثة بذاتها كما أنها فانية كذلك باعتبار أشكالها وظواهرها . ثم إن مُلك الخليقة دائم حتى النهاية ، لأن أبدية الله ثابتة ، وبما أن الخالقية من صفاته الثبوتية غير المنفكة فهى دائمة مستمرة . ولا ريب فى أبدية المسبب الأول الذى ثبتت أزليته عقلا كما ثبتت دينا ، ومتى اعتُرِف بكون هذه الأبدية من الضروريات العقلية والمعتقدات الدينية فلا يمكن تصور مالك بلا مُلْك وخالق بلا مخلوق .

إذا كانت كرة كالقمر مثلا تحرم من القابلية للحياة ، أو تنقلب سحابية نتيجة لتصادم فإن الحياة تظهر فى كرة أخرى فقدت حرارتها . ثم تتطور فى مكانها سحابية تصير مجموعة لشمس وتظهر فى توابعها الحياة . وهكذا تدوم هذه السلسلة متكررة فى طريق تطور غير متناه . إن كرات لا يحصرها عد قد تظهر بعد تريليونات وكتليونات من السنين وتكتسب طبيعة أخرى ، وتظهر قبة السماء فى غير صورتها الحالية . غير أنه يمكن أن تكون المخلوقات والموجودات دائمة مستمرة فى مكان آخر من الفضاء اللانهائى [فى حالة جنة وجهنم مثلا] ، فالعقل والنقل متحدان فى هذا .

أما يوم الحساب وهو قسم من اليوم الآخِر ، فليس بالطبع أمرا يستطيع العقل والعلم إثباته . إذ ليس عند القادمين إلى عالم الوجود ذكرى عن عالم الأرواح ، ولا نبأ عن الراحلين ! ومتى انعدم مدار الاستدلال عجز البشر عن كشف المستقبل عقلا . ولكنى أرجع إلى ضمير كل امرئ فأقول : هل يوجد امرؤ لا يشتكى من بنى نوعه ، ولا يرجو العدالة لنفسه ، أو لمن يراهم مظلومين من سائر الناس ؟! وكذلك هل يوجد من يقتنع بتجلى عدالة تامة مطلقة فى هذه الدنيا ؟ وهل فى

استطاعة القوانين ومؤسسات الضبط والعدالة البشرية ، القيامُ بواجباتها تماما ؟ وإذا أنعمنا النظر بان لنا وجودُ عدل معنوى يحكم خفية فى هذه الدنيا أيضا . ولكن أما نرى فيه أيضا شذوذا محيرا للعقول ؟

فمثلا يئن مسببو الحرب العامة ومسئولوها الحقيقيون ، أو الملايين من الذين أصبحوا جياعا محتاجين ، بينما يمضى أغنياء الحرب حياتَهم فى عز ورفافية وسعادة ، وإذا ماتوا على وثير الفراش دُفِنوا فى قبور ممتازة ، بين تهليل فريق من الغافلين ، وينعم ورثة بعضهم قرونا بميراثهم المادى والمعنوى . أفلا يُنْتَظَر ولو فى زمان ومكان آخر ، عوض لأولئك الملايين من الضحايا الذين قتِلوا فى سبيل هؤلاء الأغنياء ، ولذويهم وأقاربهم الباكين حيارى ؟

فالبشرية المتأثرة الجائشة بمثل هذه الأسباب والملاحظات ، مؤمنة مذ عرفت نفسها ، بهذه العدالة الأخروية ، مترقبة لها ومتسلية بها .

إن إحساسا واعتقادا قد أجمع عليه كافة البشر فى كافة القرون والبطون ، وتأيد عقلا ونقلا ، لا داعى لردّه ، وإنكاره من أساسه .

وإن وُجد امرؤ لايشعر بهذا التأثر لضعف فى إحساسه ، أو لانقياد لعناده ، أو لأنه لايريد الشعور به ، وينكر التبشير والإنذار ، متبرئا من مثل هذا التمنى ، فإنا لا نعدم كذلك أناسا يَعُدُّون أنفسهم نتيجة بعض هُويّات غير مدرِكة ، مجهولة الأصل عندهم أيضا ، فينزلون بالبشرية إلى درجة الحيوان ، بل إلى دركة الجماد ؛ ويعتقدون الروح الإنسانى « هواء يذهب فى الهواء » ! إلا أن الشاعرين بإنسانيتهم يعدونهم ممن وصفهم القرآن بقوله : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » فلا يعيرون سفسطتهم وتعريضاتهم التفاتا .

الجزاء الأخروى

ومع ذلك فقد وصفت المجازاة الأخروية فى بعض الأديان فى شكل جد

غريب ، وصُوِّر الله فى صورة من الشدة والحِدة يقشعرّ منها بدن رجل ميال للظلم بالفطرة . إذْ أنه ليس موضوع هذا الكتاب معارضةَ سائر الأديان ومناقشتَها ، فلا أتصدى لتفصيلات هذا الشأن . والإسلام ليست فيه عقائد مغايرة للعقل والحكمة . ويُفهمُ من الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة صراحة ، أن رحمة الله واسعة محيطة بكل شيء ، وسابقة على غضبه ، وأن الله غنى عن العالمين ، أوامره ونواهيه موجهة إلى نفع عباده ومصلحتهم ؛ وأنه يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك ، وعلى شرط الإقرار بأركان الإيمان ، وأن حقوق الغير يجب إحقاقها على كل حال ، بأدائها أو بإرضاء أصحابها ، وأن العذاب الأليمَ والانتقامَ إنما يتجلى فى حقوق الناس ، وأكثر الصفات تكرارا فى القرآن الكريم هى الرحمن والرحيم ، والتواب الغفور .

ذكر القرآن أنهار الجنة والحورَ العِين التى بها ، والجحيمَ وعذابَها المُهين . إن طريق الحس والإدراك فى الحياة الدنيا يعوقان عن فهم كثير من الحقائق واللطائف ، كما ذكرنا سابقا . ولما كان جزاء المحسنين وعذابُ المسيئين فى عالم الألوهية قد رفع عنه سِتار الجسمانية ، عسيرَ الفهم بكلام دنيوى ، فقد اقتضت الحكمة تشبيهها بما فى هذه الدنيا من ملاذٍّ ونِعَم ، وعذاب ونِقَم . وقد أيَّد هذا الرأى بالحديث الذى رواه ابن عباس : « ليس فى الجنة شيء مما فى الدنيا إلا الأسماء » .

لقد أخبر القرآن بالآية الكريمة « فلا تعلم نفس ما أُخْفِى لهم من قُرَّةِ أعين جزاء بما كانوا يعملون ؛ سورة السجدة الآية ١٧ » والحديث القدسى : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشَر » ، أن الإنسان يعجز عن إدراك ما أخفى من النعم الإلهية جزاء لأعماله الصالحة . كما بشرت الآية الكريمة بأن رضا الله أكبر من نعم الجنة وحظوظها فى قوله تعالى : « ورضوانٌ من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم » .

ولما كان خير جزاء الإنسان نيله لمآربه وآماله ، فيُستنتج نيل الأكثرية من

المؤمنين لما يُتصوَّر فى الجنة من نعيم ، وهم مع اتباعهم للأوامر والنواهى الإلهية ، لم يقدروا على التجرد من العلاقات الدنيوية ، وارتحلوا عنها وعيونهم فيها ؛ وأما من تكمل فى حياته الدنيا ، ونزع نفسَه عن الآمال الشخصية ، ووقف أفكاره وقواه لخدمة الإنسانية وسلامة وطنه ، رابطا قلبه بربه ، فيصل إلى نعم لدنيِّة أعلى .

رأى المفكرين فى التناسخ :

يذهب المفكرون القائلون بالتناسخ — كما ورد فى مبحث آمنت بالله — إلى « أن كلا من الجزاء والعقاب المعنويين ، يتعين بما ينال المرء فى حياته المتعاقبة من الاعتلاء والانحطاط » . ويتصور بعض الحكماء المتعمقين فى علم الهيئة ، إمكان انتقال الأرواح إلى السيارات والمجموعات الأخرى . إلا أن عقيدة التناسخ ليست فى أساسها سوى فرضية خالصة . بما أن الذرات التى يتكون منها الجسم فى تقلب مستمر من حال إلى حال ، وتنتقل من جسم إلى جسم ، فمن الممكن أن تدخل الذرات المنفكة من جسم الميت متفرقة فى بنية طفل أو مُهر أو زهرة . غير أنه لم يوجد قط دليل أو أمارة على تكرر عودة روح ذى حياة وذاته إلى عالم الوجود بعد موته . ولم يعترف دين من الأديان المنزلة بفرضية التناسخ . ولما كان الإنسان ، وهو أكمل الأحياء فى الدنيا ، لا يذكر حياة متقدمة على حياته ، فإنه لا يقدر على إدراك ما ناله من الرفاهية والضجر ، والعزة والذلة ، فى حياته الدنيا ، تقابل أىَّ فعل من أفعاله الحسنة أو السيئة فى حياته تلك . فجزاء أو عقابٌ كهذا غير معتمد على سبب معلوم وحكمة وجيهة ، عبثٌ أو ذميم ، من قبيل إكرام السمك الذى فى البحر ، أو أذية امرئ غيابيا دون أن يكون له علم بذلك — ولو كان مخطئاً — ؛ فلن يستطيع مؤمن أن يسند نقصا كهذا إلى أحكم الحاكمين المقدس . كذلك لا يقدر من له عقل وعلم ، أن يدرك مثل هذه الأحكام والمعاملات العديمة الفائدة ، باسم الحكمة والعدالة اللدنيِّة . ولا يجوز الثقة بأخبار فرضيات لا يمكن

إثباتها بالحساب والتجربة ، إلا على شرط مطابقتها للميول الوجدانية ، والتفكر الفطرى البشرى .

أما الماديون فيعلنون إنكار الروح والوحى ، وعدم فائدة فعل الخير ما دام لا يترتب عليه فائدة فى الدنيا ، ونجاة المسىء بلا عقاب . وهذه حالة ثقيلة على ضمير البشر ، الذى يشعر كل فرد منه بحاجة إلى العدالة و يرجوها . ثم إنه بناء على هذه النظرية يزول الحافز للناس إلى فعل الخير بلا عوض دنيوى ، والمانعُ عن السيئات التى قد تختفى فى ضمائرهم ، والتى يُظَن ارتكابُها ، فتشيع الأنانية والميل إلى الظلم والاغتصاب ، وهذه حالة فكرية خليقة بإفساد الدنيا فى زمن قليل .

يستنتج مما سبق من التفصيلات ، أن هذه العقيدة ، وهى مولودة الفلسفة المادية ووحدة الوجود ، ضلال ومَضرة من كل الوجوه ، وأن التلقينات الدينية عن اليوم الآخر ، والمحكمة الكبرى ، ومحاسبة الناس على أعمالهم ، موافقةٌ للميول الوجدانية ، والتفكرات الفطرية البشرية ، ودافعة إلى الصلاح ، مانعة عن الشر؛ فهى عين الحكمة ومحض الخير .

٦ — وبالقَدَر

خيرِه وشرِّه من الله تعالى

والاعتقاد بالقدر ركن من الإيمان عند أهل السنة . وأعتقد أن كل امرئ يفكر بعناية فى صفحات حياته ويتأملها ، يحس كوْنَه خاضعا لتصرف معنوى . يسعى رجل فى عمل من الأعمال متوسلا بضروب من التدابير ، غير أنه كلما زاد سعيا زاد هدفه عنه بعدا . ثم يُفتح له باب الفرج بيُسر لم يكن له فى الحسبان . ويُبتلى بالفقر والمسكنة رجل قد عُرف بين الناس بالدراية والكفاية ، ويعجز عن سُبل النجاة ، ويفوز ذو جهل وغباء بنعم ومراتب ، وثروة ورواتب . فهل تُحمَل هذه الحالة ، وهى تتكرر دائما وتغلب التدبير والذكاء ، على الصدفة وَحْدَها ؟

إن امرأ باحثا فى حياته وحياة البيئة التى يعيش فيها بحثا دقيقا ، يفهم أن هذه الحالَ مع عدم خضوعها لنظام يمكن فهمه ، ليست أثر صدفة محضة كذلك ، فيحكم بضعفه أمام إرادة غيبية .

ومن جهة أخرى إن السعى والتدبير لا بد منهما للحياة . فنى الناس من فاز بدولة بسبب تافه ، كما أن منهم من أضاع ما فى بيته من بُرغُل وهو ذاهب إلى دمياط للحصول على الأرز . غير أن من لا يسعى إلى مخبز لشراء خبز منتظرا إياه من القدر ، فلا بد أن يموت جوعا .

حدثت الاختلافات بين مفكرى المسلمين من تظاهر هذين النقيضين . فأما الأغلبية من عظماء علماء المسلمين ، فحلوا هذه المشكلة بأن المخلوقات والحادثات كلَّها تابعة للإرادة الكلية الإلهية ، ومنقادة لها ، ولكن الله منح الإنسان إرادة جزئية ، لتكون له دليلا يميز بها الخير من الشر ، والحسن من القبيح .

وأما فريق منهم فقد وضع نصب عينه أمر مسئولية البشر المعنوية ، وتصدى

لإنكار القدر جملة ، مدعيا بأن العبد خالق لفعله ، وتعامى عن عجزه أمام مايصادفه من العقبات فى حياته ، وتغافل عن الشكر لما ينال من العون ، ومال إلى طريق التكبر والاعتزال . وكان الباعث على انتحال هذا الرأى هو ظنهم بأنه لو كان فى أفعال الإنسان حافز معنوى سِوى إرادته الذاتية ، لكان الجزاء والعقاب الموعود بهما فى الآخرة مغايرا للعدالة .

وقال فريق آخر : « كل شىء بيد القدرة الإلهية ، والإنسان خاضع للمشيئة . وكافةُ أفعاله مقدَّرة ومكتوبة فى اللوح المحفوظ منذ القدم » ، فسلبوا الإنسان الإرادة الجزئية ، ودفعوا البشرية إلى الاستسلام والعطل فى هذه الدنيا ، وأسندوا الظلم إلى الله العادل ، إن لم يكن صراحة فضمنا ، من أجل الجزاء الأخروى . وقد نشأ هذا الرأى من خشية الوقوع فى الشرْك ، من تعارض الإرادة البشرية والمراد الإلهى ، فى حين أن البشر مجبول على خاصة تمييز الخير والشر ، فهو مأجور أو مسئول عن أفعال الخير والشر فى الدنيا والآخرة . ويمكن تشبيه الإرادة الجزئية البشرية بما يعطى عامل من سلطة . فكما أن هذه السلطة لا تُسْقِط حق الرئيس الأعلى ، ولا تخل بشرفه وسلطانه ، فإن معاقبة من يسىء استعمال هذه السلطة لا تخالف العدالةَ كذلك .

وعبارة « الأعمال مكتوبة فى اللوح المحفوظ » : تدل على كون العلم الإلهى لاحقا ، ولا يجوز تصور ألواح فى حضرة الله شبيهةٍ بالألواح المستعملة فى المدارس [٥٠] ، فإن العلم الإلهى غير متناه فى السعة والزمان . وكل مقدار محددٍ صفرٌ بالنسبة لغير المتناهى ، فيلزم أن يكون عمر الإنسان ، بل حتى عمر هذه الأرض ، لحظة غير منقسمة فى الحضرة الإلهية . و بعض الناس يكشف المستقبل القريب بالاستدلال ؛ فكون عمر بنى آدم معلوما لعلام الغيوب ومسبب الأسباب ، بل حتى أعمار كافة الآثار والأحداث والأحوال المترتبة على كثير من الأسباب والعلل ، ليس مما يستحق إتعاب الذهن ، وتعذيب الوجدان [٥١] .

ليست الإرادة الجزئية البشرية قادرة على تجاوز حدود النية والاختيار والسعى والتدبير. وفى اقترانها بالفعل يظهر تأثيرقوة خفية ميسِّرة أو عائقة. وهذه القوة الخفية هى مايُسمى القدر فى ديننا. فسواء اقترن سعى المرء بنتيجة أو لم يقترن، فهو مستفيد أو متضرر، مُثابٌ أو معاقب، على حسب حسن نيته أو سوئها: « إنما الأعمال بالنيات ».

إيضاح عقيدة القدر باللعب :

أستمد الجرأة من قوله المنيف: « وما الحياة الدنيا إلا متاع »، فآتى — مع الاعتذار — ببعض أمثلة من اللعب، لإيضاح ماهية هذه الاختلافات.

معلوم أن هناك نوعين من اللعب قد انتشرا فى الدنيا، هما الشطرنج والبليارد. وإن صُرف النظر عما يحدث للمرء من التأثيرات العصبية فى أثناء اللعب بهما، فضمان النصرفيهما، للحذق والتدبير. ويبدو أن هذه الحالَ مؤيدةٌ لعقيدة القَدَرية والمعتزلة. وأما الألعاب التى من نوع الميسر، فالعامل المؤثر فيها الزهر (الفصوص) والحظ، ودخل المهارة فيها محدود، بل مفقود. فهى شبيهة بمذهب الجَبْرية. وبين النوعين المذكورين لعبتا الورق والنَّرْد. يتوقف النصر فيهما على الدقة والمهارة، مع الحاجة إلى الزهر والورق. فحياةُ البشر شبيهة بهاتين اللعبتين الأخيرتين.

ويبدو أن مناظرات الأسلاف واختلافاتهم التى لخصناها آنفا، إنما نشأت من علة المنطق ولعب الكلام. فلو تأملوا رسائل حادثات العالم المنزَّلة من الملأ الأعلى ولاحظوها، بدل أن يتخذوا قواعد منطق علماء اليونان دستورا، لظهر وجود قدرة جزئية تمييزية وتنفيذية للبشر، مع تحديد اختياره وحركاته من قِبل إرادة كلية، وصُدِّق قول أهل السنة.

وحقيقةُ التوكل لم تُفهم عند كثيرين، وهو من الأوامر الإلهية، فأخذ بمعنى أن يترك المرء السعى والتدبير، ويظل واقفا ويداه على خاصرتيه، معتمدا على

عون الله ، فصار بذلك مؤيدا لعقيدة الجبرية فى الأمور الدنيوية . والأمر ليس كذلك . فالتوكل ليس بمانع من السعى والتدبير ، ولا مروّج للكسل والبطالة . إن كلمة « اعقلها وتوكل » — وهى جواب مسكت وحكمة صالحة لتكون دليل النجاة للبشر فى الدنيا والآخرة وقد رد بها الرسول على شكاية أعرابى ترك ناقته وحبلُها على غاربها ، متوكلا على الله — تؤيد هذا القول وهذا الرأى .

فالتوكل حق . وفائدته العظيمة الدنيوية ، أنه حافز على الصبر والثبات ، مع الاعتماد على عون الله ونجدته فى أوقات الحرج والعجز . فهو من هذه الجهة ترياق اليأس والفتور ، وهما سم زُعاف للأفراد والأمم . إنه يقوّى الروح عند شدائد الزمان ومهالكه ، ويزيد الهمة والثبات ، فيمنع بهذا كثيرا من السيئات والمخاطر . ومما يجدر بالذكر أن شيوع حوادث الانتحار فى الأزمان المتأخرة ، ناشىء عن زوال الاعتقاد والتوكل من الأمة (٥٢) .

وموجز الكلام أن التوكل ليس بمانع للتدبير ، وإنما هو بالعكس من ذلك ، عامل مؤثر يطرد اليأس ، فيشجع على السعى والاجتهاد ، ويقوى العزم والثبات .

وغريب أن يعتبر الأوروبيون الشرقيين عامة والمسلمين خاصة ، من أتباع مذهب الجبرية ، الذى اختاره فريق ضال من المسلمين ، فيحملوا انحطاطهم فى الأزمان المتأخرة على الخمول والإهمال الناشئين من هذه العقيدة . وأما إرادة شباننا المتحذلقين الذين درسوا أطرافا من العلوم ، إنكارَ وجودهم التاريخى ، بذهابهم السقيم إلى أن الدين مانع للرقى ، وأن الدخول ضمن الأمم المتمدنة يقتضى الإلحاد ، ففسادٌ ناشىء من الإهمال فى تعليم العقائد ، ومن الغرور والأنانية الناجمين من الجهل المركب .

لا يتصور عمًى وجدانى كحسبان دين مانعا من الرقى ، وهو يحوى دساتير وحِكَما من مثل قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، و « هل يستوى

الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، و« أعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، و« ياأيها الذين آمنوا خذوا حِذْركم » ، و« ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكة » . ومثل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « اِعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » ، و« اطلب العلم من المهد إلى اللحد » ، و« طالب العلم بين الجهال كالحىّ بين الأموات » ،و« فضل العلم أحب إلىّ من فضل العبادة » . وأمثال ذلك .

والواقع أن هناك فسادا وانحطاطا ، ولكن أسباب هذا الفساد والانحطاط الحقيقية ليست فى الدين ، بل فى إهماله .

الباب الثانى

الواجبات والأعمال

أسباب التكاليف والواجبات

الأديان تُحمِّل الأمم نوعين من الواجبات ، أحدهما يتعلق بالخالق جل جلاله ، وثانيهما بالمخلوقات ، وخاصة الإنسان . فتوحيد واجب الوجود وتعظيمُه ، ونفعُ الإنسان لبنى نوعه ، وتخلقه بالخلق الحسن ليتم هذا النفع ، كلُّها واجبات أساسية فى الدين .

إن عدم حاجة الله سبحانه وتعالى لما نقوم به من التسبيح والتهليل ، أظهر من الشمس . و إذ أن القدرة والعظمة الإلهية قد ظهرتا بخلق الكائنات ، ثم وُجد على هذه الكرة الصغيرة مخلوق عاقل مدرك لما فى الخليقة من العظمة والجلال ، فان إجلال صاحب آثار هذه القدرة والعظمة وصانعها ، والتهليل به ، واجب طبيعى على العقلاء ، فيتبين عقلا وقياسا أن المراد الإلهى يتجلى فى هذه الصورة ، وأن بلاغ الأنبياء العظام فى هذا الشأن حق وصادق وطبيعى .

وكلمة الشهادة والصومُ والصلاة كلها لتعظيم الخالق المطلق وتمجيده وتوحيده ، والشكر لنعمه وآلائه . وهذه العبادات نافعة كذلك للقسم الثانى من الواجبات الدينية ، أى القسم المتعلق بأبناء النوع ، ولازمة له . فإن البشر المجبول بحسب فِطرته على تأمين حياته ومنافعه وملاذه ، على حساب سائر المخلوقات وحياتها ، يقتضى أن يكون بطبعه غليظ القلب ظلوما . ومن مقتضيات الطبيعة أيضا زيادة كل خُلق وسجية قوةً وشدةً بالاعتياد المديد . فلأجل إبقاء نزعاته وميوله

فى حالة اعتدال ، يلزم أن يُلْقَى فى القلب نوع من الرقة والخوف والخشية من عدالة حاكم معنوىّ . وإنى أقول مكرِّرا : إن الله سبحانه وتعالى لم يكن عاجزا عن تأمين هذا المقصد بطريقة أخرى ، ولكن هذه الطريقة هى أليق بطبيعة سكان هذه الكرة ، وأوفق لهم .

فوائد الصلاة والصوم

إن قلبا ودماغا فارغين من الخواطر الدنيوية ، وموجَّهَيْن إلى الله سبحانه وتعالى بخلوص فى أوقات معينة ، لَيكونان مَظْهرين للفيوضات المعنوية ، ومُطَهّرين من كثير من دنايا هذه الدنيا . وليس فى الإمكان إنكار التأثيرات المعنوية الحسنة ، لعبادة فى وقت الفجر ، لإنسان انكشفت فيه قابلية التأثر والانطباع والأعصاب تخلصت من تعب يوم سابق بعد نوم لذيذ ؛ وفى وقت الظهر والعصر حين ترهق النفس بمكافحات الحياة ؛ وفى وقت المغرب والعشاء وقد استولى الكسل والارتخاء بانتهاء المشاغل اليومية ، وفوائد تلك العبادة البالغة كلها فى صلاح الجمعية البشرية وسلامتها . وإن الاجتماع مرّة كل أسبوع مع الإخوان فى الدين ، والقيام بالتكبير والاستغفار ، والاستماع إلى نصائح دينية ودنيوية يلقيها أحد الأفاضل ، لا شك فى أنه خدمة لإصلاح الخُلُق .

وللصوم إذا روعيت شروطه ، فائدة فى تزكية النفس من كل الوجوه ، وتهذيب الخُلق . ومن منافعه اختبار المرء بعض آلام فقراء نوعه ، والتحقق منها ، والتنبه لها ، وبلوغه الكمال برياضة نفسه على تحمل المشاق ، وتلكم منافع مادية ومعنوية .

ومن الواجبات الدنيوية على كل إنسان ، إفادة المجتمع الذى ينتمى إليه بخدماته ومساعيه ، ورفعُ شأنه بين سائر الأمم ، والسعىُ لجعله قويا عزيزا ، وهذا العمل واجب دينى أيضا . وقد يتخذ بعضهم هذه النقطة وسيلة ليتحدثوا عن زيادة

ما يحمِّل الدين الإسلامى معتقديه من العبادات والتكاليف ، ويقول بضرورة تنقيص بعض تكاليف ديننا ، بما يتفق مع مقتضيات العصر والمدنية ، مستدلين على ذلك بأن اليهود والنصارى قد خففوا التكاليف الدينية عن الأفراد ، توفيقا لما يقتضى الحال والزمان وسهلوها .

بيد أن الواجبات الدينية الإسلامية ، مع أنها لم تبلغ حدا يمتنع فيه تيسير المصالح الدنيوية ، فإن ثمة مسوّغا شرعيا لتخفيف التكاليف فى بعض الأحوال كالحرب مثلا ، وإسقاطها فى بعض حالات القيام ببعض خدمات خيرية وإنسانية .

بناء على القول الرحيم : « وما جَعَل عليكم فى الدِّين من حَرَج » ، أظن أنه لا مانع من اتخاذ تدابير عصرية — بفتوى العلماء بالطبع — فى أمر العبادات فى جوامعنا ، توفيقا لما تحتاج إليه قواعد الصحة . ومع ذلك فإن المسلمين إذا راعوا الطهارة وفقا للسنة السَّنِيَّة ، فلن يحتاجوا إلى شىء آخر . ومهما يكن من شىء فإن ما يسوقه المعترضون من القيل والقال متظاهرين بالحق ، لا يَحْمل قيمة أكثر من عذر تارك الصلاة !

فوائد الحج والزكاة

الحج والزكاة فريضتان دينيتان لمن يستطيعهما وفى الوقت نفسه لازمتان من اللوازم الاجتماعية الدنيوية . ولما كانت جمعية مدنية لا تسير بلا مال فقد كفلت الزكاة حاجات الحكومات الإسلامية الإدارية [كان بيت المال فى صدر الإسلام عبارة عن الجِزْية المأخوذة من غير المسلمين والزكاة] والإنفاق على فقراء الأمة . وإذا ألقينا نظرة إلى تاريخ الدول الأوربية وجدنا أن أصول جباية الضرائب لم يكن لها نظام مقرر حتى ثلاثة قرون خلت أو أربعة . بل كان فيها أنواع من الضرائب والإعانات الجبرية يطرحها الملوك المحتاجون إلى تنازع مستمر مع بعضهم

بصفة مؤقتة أوّلا ثم يديمونها . فكون المسلمين مُلزَمين بمثل هذا التكليف الاجتماعى منذ بداية الإسلام حكمة محضة .

وكم من الفوائد العظيمة للأمم الإسلامية كان يمكن جنيها من اجتماع أغنياء المسلمين وعظمائهم القادمين من البلاد الإسلامية المختلفة إلى مكة المكرمة فى أوقات معينة ، وتعارفهم وتشاورهم ، ولكن يؤسفنا أننا لم نقدر على الاستفادة من ذلك !

حكمة الحج وزيارة النبى

إن الحج المفروض هو القيام بأداء مناسك معينة فى الكعبة المكرمة وعرفات ، إلا أن زيارة المدينة المنورة والتبرك بزيارة المسجد النبوى والروضة المطهرة ، صارت عادة لأكثر حجاج بيت الله . فلذا أرى أن البحث قليلا فى عقيدة الوهابيين الخاصة فى هذا الشأن لا يخلو من فائدة . فزيارة القبور عند أتباع هذا المذهب ، أو بعبارة أصح عند الغُلاة منهم ، معناها الاستمداد من الأموات ، وهذا شِرْك . و بناء على ذلك فكل أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى التى تبيح هذه الزيارة كفار . ونطق المرء بكلمتى الشهادة يعنى تعهده باللسان والجنان بألاّ يُشْرِك بالله ؛ فلو فرضنا رجلا كالذى ذكرناه زار — ولو على اجتهاد خاطئ — قبر ميت تعظيما له ، فهل تثير هذه الزيارة غيرة البارئ تعالى ، الذى حاولنا جهد طاقتنا إثبات عظمته وجلاله مستدلين بآثاره ، من بعض عباده الميتين ، حتى يطرد عبده هذا المخلص المسكين من دينه الذى آمن به مقرا باللسان ومصدّقا بالجنان ؟ أظن أن الذين يزعمون مثل هذا الزعم يُشَبِّهون أرحم الراحمين بأناس من درجة أفكارهم وطينتهم ، فيرتكبون شركا أبشع . إنى مطمئن يقينا بأن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى قلوب الناس . والآيات الكريمة كقوله تعالى : « أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين » و « والله عليم بذات الصدور » ، والأحاديث الشريفة

كقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » و « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وغيرها ، مؤيدة لهذه الحقيقة .

إن إجلال واضعى الأديان وخادميها ، وحتى القائمين بأعمال مفيدة لشعوبهم وأوطانهم فى غابر الأزمان ، وزيارة قبورهم ، عادة مستحسنة ومقبولة عند الناس من قديم الأزمان . فلا يلزم أن تكون كل حال غيرمأمور بها ممنوعة ، وكل ممنوع كفرا . فإن عدم نسيان أبرار الأمة بعد موتهم حافز للناس إلى القيام بمحاسن الأعمال . والله القادر المطلق لايستكثرعلى عباده المصطفين ، مايعمل لهم من التكريم ، وتصور عكسه إسناد أوصاف إلى الله سبحانه مكروهة فينا — حاشا لله !

وحتى لو فرض أن تعظيم تراب ميت محروم من كل قوًى مادية إثم ، فإن هذا الإثم زلة جد خفيفة ، بالقياس إلى التعظيم المنطوى على الرياء والنفاق والتملق ، فى زيارة الأمراء والوزراء وندمائهم والمقربين منهم ، أو على وجه عام فى زيارة من يقدر على إيقاع النفع والضر فى هذه الدنيا . ويجوز لبعضهم أن يعد الاستعانة بالقبور تعبا بلا فائدة ، وإسرافا فى الأنفاس المعدودة إلى حد ما . بيد أن عدّ مثل هذا الاستمداد البرىء جُرما وشِركا تكفيرٌ للمؤمنين . وإذا اقترن بتعمد ، وقُصِد بدافع آمال دنيوية ، كالحرص على الرياسة وغيرها ، صار كفرا محضا . إن تكفير أهل القبلة والقيامَ لقتالهم ، ولوكان مبنيا على اجتهاد مخلص — ولكن خاطئ — وتشتيتَ الجامعة الإسلامية بهذه الطريقة ، وتعريضها للهوان ، لمن أكبر المعاصى والآثام .

ويظهر من مطالعة كتابى هذا ، أنى أنا أيضا أرى رفع البِدَع والضلالات التى سرت فى الجامعة الإسلامية بمرور الزمان ، وإرجاعَ معتقداتنا إلى صفائها وبساطتها الأصلية ، التى كانت فى القرن الأول . فأنا متفق مع الوهّابيين اتفاقا تاما فى القضاء على بعض ما يدل على الضلال والحمق ، مما نشاهد فى كثير من البلاد

الإسلامية ، من الحفاوة بأشجار وأحجار وقبور ومزارات لا أصل لها ، والاستمداد منها . ولكن على شرط الاعتدال فى الإجراء والتنفيذ ، وعدم البغض والعداوة للمخطئين ، ومحاولة إنقاذهم مما اتخذوه بإحساس مفعم بالشفقة والرحمة ، وجعل الإرهاب آخر ما يُلجأ إليه من الوسائل ، وخاصة اجتناب المعاملات الشديدة المؤدية إلى التفرقة بين المسلمين ، وعدم الإهمال فى تعظيم أولئك الذين يُقر المسلمون بعظمتهم واحترام ، أضرحتهم ومزاراتهم .

عناية الدين الإسلامي بتربية الأخلاق :

إن الدين المبين المحمدىّ يبلّغ ، عدا المواد الخاصة بالعبادات والطاعات ، أوامر ونواهىَ فردية واجتماعية ، متعلقة بالعلاقات والمعاملات الجارية بين بعض بنى البشر وبعض ، ويحمِّل من اعتقده واجبات أخلاقية . فهو آمر بالتخلق بمحاسن الأخلاق بحكم قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقد أمر كل مسلم ومسلمة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، بالعفة ، والحياء ، والأمانة ، والصدق ، والاستقامة ، والكرم ، والسخاء ، والصبر ، والشجاعة ، والتقوى ، والقناعة . والاجتهاد فى العلم والعمل بكل معانيه ، والطهارة ، والنظافة ، والعدل ، والإحسان ، والمروءة ، والعفو ، والرحمة .

وحرم مع أضداد الفضائل المذكورة ، الفحشَ على الإطلاق ، والبغىَ ، والخمرَ فى صورة خاصة ، والمَيْتة ، ولحمَ الخنزير ، والميسر . أليس إدراك أرقى الأمم حضارة بعد ثلاثة عشر قرنا ، ما فى السكر والمسكر من الأضرار ، وشعورها بضرورة منعها ، واكتشاف ما فى لحم الخنزير من الجراثيم السامة المسماة بـ « تريشين » ، دليلا على قداسة الأوامر الدينية ؟ ولا أرى حاجة لإيراد أدلة على مضرة القمار . فإن حال كثير من ورثة الأغنياء ناطقة بها مصدقة . وأما حكمة وجود هذه السيئة فلعلها سلاح انتقام العدالة المعنوية من أرباب الرُّشا وورثتهم فى هذه الدنيا !

ويأمر الدين المحمدى زيادة على ماذكرنا ، بالأدب والرقة والتودُّد فى معاملات المسلمين بعضهم بعضا ، والتوسط فى حل الاختلافات بين الأفراد والجماعات ، والطاعة لأولى الأمر — ما دام الأمر مطابقا للمعروف والشرع — وتعظيم أكابر الأمة ، وأولياء أمور الأسرة ، وينهى عن سوء الظن والغيبة ، والتجسّس والنفاق .

وإذ أن الإسلام أسس أسسا شرعية ومدنية ، فقد وضع عقابا ، وحدد حدودا دنيوية متكفلة بتنفيذ ما تقتضيه جمعية بشرية من الأحكام الأساسية والأوامر والنواهى ، وأرشد الناس إلى الغاية المطلوبة ، وهى المساواةُ فى الجماعة ، والعدالةُ فى الحكومة ، وثبَّت ذلك .

وقد دون علماء المسلمين وفقهاؤُهم أحكاما وقوانين ، لتكون دستورا للعمل فى حل المسائل الحقوقية والجزائية والاجتماعية ، مقتبسين من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وباجتهادهم الشخصى .

ومع ذلك فثمة مُسوِّغ شرعى لتغيير بعض الأحكام الشرعية بما يتفق مع الزمن ، على أن تبقى الأسس كما هى(٥٣) .

أكتفِى بهذا القدر من البحث والتحقيق فى العقائد والأعمال الإسلامية . وكان فى الإمكان إيراد أدلة و إيضاحات كثيرة من الأدلة الفلسفية والكلامية ، والعقلية والنقلية فى هذا المبحث . وقد أراق علماء السلف سُيولا من المِداد فى هذا الوادى . بيد أن قلة بضاعتى تمنعنى من الإكثار ، وقد التزمت اتباع هذه الحكمة : « فى الإكثار عثار » ، لأنى لم أقدر على أن أخلىَ ذهنى من الذهاب إلى أن التعصب لمحاولة تنفيذ الفكر ، بقياسات وأدلة منطقية فيما وراء حدود ما يتعلق به علم البشرية ، وقدرتها فى سر الخليقة ، كان سببا لما نشاهده من اختلاف المذهب ونِفاقه .

إنى أرجو ألّا يُستنتج من إفادتى هذه معنى نقد العلماء السابقين ومعارضتهم ، فقد كانت المحاولات الكلامية ستقع ، بل كان يجب وقوعها . ولكن كما أن

لكل عسر يسرا ، فإن لكل فائدة محذورا . فما أصدق قول الإمام الرازى فى حكمته إذ يقول :

نهاية إقدام العقول عِقال   وأكثر سعى العالمين ضلال

فلمثل هذه الملاحظات ، أختار السكوت عن الخوض فى الكلام عن المسائل التى سوف تظهر وتتشعب . والتى ذكرتها هى المبادىء والأحكام الأساسية للإسلام . وأما الروايات المنقولة إلى الكتب من أساطير الأولين بلا تحقيق ، والمبادىء والمعتقدات الناشئة عن منازعات الفرق ومجادلاتها ، فليست لها صلة بالواجبات البشرية ، من التصديق بالله وتكبيره ، وتكفل سعادة البشرية ، وكلها حكمة وضع الدين وتنزيله . وبالعكس من ذلك يجب البحث عن الزوائد والأباطيل التى ظهرت فيما بعد ، وجرحها بالأدلة القاطعة : نقلية وعقلية ، واقتلاع الروايات المشوشة لأذهان شبابنا من جذورها ، ومنعها عن الذيوع والانتشار . ولكن أمرا عظيما كهذا يفوق طاقة عاجز مثلى .

فصـــل خاص

مقارنة بين الإسلام وسائر الأديان

يتبيّن مما سبق من البيانات والآراء التى أوردناها عند أرباب العقل والإنصاف، وجوب وجود مُسبِّب أول، ذى قدرة لا نهاية لها وحكمة، وحافظ أزلى لتكوُّن هذه العوالم ودوامها وتطورها. أقول عند أرباب الإنصاف، لأن بعض المنكرين المستكبرين يُغمضون عيونهم عن نور الحق معاندين، ويُغلقون أذهانهم دون كل منطق وحساب. ويُصرون على آراء سخيفة، قد استقرّت فى أدمغتهم بما لاندرى من الأسباب، وخاصة إذا كانت تلك الآراء متفقة مع المستحدث من الآراء — فليس ما يُقال لأمثال أولئك الظالمين. أما فى نظر المؤمنين بالله، فليس فى وجود كثير من القوى والوسائط اللطيفة، للمؤثر فى جميع المخلوقات، للمحافظة على نظام العالم، والقوى المشخصة، وفى جملتها رجال مختارون رسلا من عند الله، لإرشاد العباد إلى الطريق المستقيم وهدايتهم — مايتعارض مع العقل والعلم والفن.

بيد أن موضوع الدين يَمَسّ كثيرا من الأمور ذات العلاقة بالخالق، وسر الخلقة، وكيفية الحياة، والحياة الآخرة، وكلها أمورمتعذر إدراكها بأسلوب العقل البشرى، ويتعسر التعبير عنها وفهمها بلسان الدنيا؛ فلذا يمكن حدوث اختلافات فرعية فى أمور الدين، أو بعبارة أصح فى تلقينها — بالرغم من الوحدة فى الأصل — واشتداد تلك الاختلافات بمرور الزمن، وطول الأمد. ومن هنا ينشأ تعدد المذاهب فى الدنيا. وقد بينا فى الفصول السابقة لمناسبات، أن التضادّ والاختلاف من مقتضيات الحياة الدنيا الطبيعية. فعلى ذلك لامحل للحَنَق والشدة إزاء أرباب المذاهب التى لا تذهب إلى الشرك بالله وإنكاره، أى إزاء أهل الكتاب. وقد ثبت هذا الأمر كذلك بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية. ويخيل إلىّ أن اختلافاتنا المتولدة من نظرنا وفكرنا تجد فرصة للائتلاف فى عالم الإطلاق

والسرمدية ، فى تلك الدار الفسيحة ، التى لا تحدها نهاية . ولكن نظرا إلى الفهم فى هذه الدنيا أيضا تظهر فى كل حال ، وفى كل محل وجد فيه التعدد والتنوع ، قضية الرّجْحان بطبيعتها .

رجحان الإسلام على سائر الأديان :

إذا بُحِث وحُقِّق بلا تحيز ، ثبت رُجحان الدين الإسلامى على سائر المذاهب بوجوه كثيرة :

فأولا : — إن المعبود الذى يصدِّقه ويبجِّله هو السبب الأول الحكيم . يؤمن المسلمون بوجود الخالق ووحدانيته ، ويقرّون له بالصفات الأزَلية التى لا بد منها عقلا للمسبِّب الأول . بيد أنهم يُنزِّهون سِرّ ذاته عن إحاطة العقول به ، ويرونه أعلى من ذلك . ودعك عن دعوى الوصول إلى قدس أسراره ، فإنهم يرون مجرد البحث عنه شركا ، قال بعض الصديقين :

العجز عن دَرَك الإدراك إدراك* والبحث عن سر ذات الله إشراك

وهذه العقيدة هى عقيدة أكثر العلماء المنصفين ، على حين أن هذه المسألة مهوّشة مضطربة فى التعاليم المتداولة اليوم لسائر الأديان . أى أنهم يخلطون فى ذات الله سبحانه وصفاته بعض عقائد متعارضة مع العقل والعلم . فيدّعون مثلا النفوذ إلى قدس أسراره ، والوقوف على أحوال أُسْرَته — حاشا لله —(٥٤) . وهناك خلاصة ما يورده أصحاب المذاهب من الأدلة لإثبات هذه المعتقدات ، وهى : « متى صُدِّق بالله ، فلا يُستبعد أن يُرْشد عباده بالوحى والإلهام ، وأن يعرِّفهم بعض المغيَّبات . وقد ثبت تاريخيا أن الأنبياء وعيسى عليهم السلام قد بُعثوا ، وقاموا بالرسالة من قِبَل الرحمن . والتاريخ صحيح لأنه من العلوم

---

* الأب مورو : كتاب حدود الدين والعلم (ج ١ ص ١٠ — ١٧) وأواخر الجزء الثانى .

التجريبية . فيقتضى الثقة بهم (٥٥) . وإن كانت عقولنا تقصُر عن إدراك بعض المعتقدات ، فإن مسائل الألوهية فى حد ذاتها أعلى من إدراك عقولنا القاصرة .

والحق أن الإسلام أيضا يُقر بالوحى والإلهام . ولم يكن ممكنا أن تُلقَّن الأجيال البشرية البدائية الحقائق الدينية ، بالأدلة المنطقية والرياضية . ولكن يُشترط أن تكون العقائد التى يقال عنها إنها أثر إلهام ، فطريةً معقولة ، حتى تكون مقبولة . وإذا اعتمدتْ على دَعاوَى الوحى والإلهام تسليما ، فالمسألة تنتهى إلى الطاغوت والأصنام ؛ لأن الذين لَقَّنوا أمثال تلك الظنون الباطلة وأشاعوها ، هم أيضا لم يكونوا يسلكون مسلك إثبات دعاويهم بالأدلة ، ولم يكن ذلك فى طاقتهم ، وإنما قالوا إنهم أُلهِموها .

فلننظر الآن عقائدَ الإسلام ، وهو دين فِطرىّ استدلالى :

١ — الإيمان بالله : إن الناس يبحثون بفطرتهم عن مسبِّب الأسباب للكائنات ، ويُجِلُّون المعالى . فالإيمان بالخالق وعبادةُ الله وهى أعلى المعالى ، لا يمكن أن يكون أمرا مخالفا للعقل والحكمة .

٢ — الإيمان بالملائكة : إن امرأ حساسا يشعر فى روحه بوجود قوًى خفية حوله ، فيبحث عقلا عن أسباب خفية لطيفة لكثير مما لا يقدر على تعليله وتأويله من الأحوال ، فلذا لا يُحِس صعوبة فى الاعتقاد بالملائكة .

٣ — الإيمان باليوم الآخر : كل من له وِجدان ، ومن هو واثق بحقه ، ومحبٌّ للعدل ، يتمنى — متأثرا بما ابتُلِى به هو ومن حوله من المظالم — عدالة أُخروية ، وجزاء وعقابا ، فيؤمن بالآخرة .

٤ — الإيمان بالقدَر : لا تجد رجلا عاقلا متأملا محققا فى حياته وحياة مَن حوله لا يعتقد بوجود تصرف خفى ، مساعد أو معاكس ، لاختياره وتدبيره فى شئون حياته . وهذه العقيدة مفيدة للبشرية ، ونافعة بقدر ما هى فطرية .

يُقِرُّ الأب مورو وكل الآباء النصارى كذلك ، بلزوم عقائد دينية معقولة فِطْرية ، ويحاولون إثبات أن عقائدهم كذلك ؛ ولكن لا أدرى كيف يرون ادعاء النفوذ إلى أسرار الله وحياته الخاصة معقولا وفطريا ، مع أنهم يعتقدون بأن الله فوق الإدراك . كيف يقدر البشر على دخول قدس خالق الكائنات ، وهم عاجزون عن الاطلاع على شئون جيرانهم البيتية ؟ وما الفائدة والحكمة المنتظرة من مثل هذه العقيدة ؟ الإسلام يعظم عيسى عليه السلام ، بيد أنه يقول أيضا إن عيسى كان يَلْعَن عقيدة التثليث . ومجمل القول أن الدين الحق عقلا وعلما هو دين التوحيد(٥٦) .

وثانيا — عقيدة الإسلام فى خِلقة آدم وهبوطه عاريَة عن مبالغات أساطير الأديان الأخرى . قُصَّ فى القرآن بعضُ قِصص العهد القديم حول هذه المسألة ، ولكن ليس بها عجب كتغيير الزَّلَّة المعلومة لما فى الخلقة من العَزْم الإلهى — حاشا لله . وإن الإرادة الإلهية بالنظر إلى العقيدة الإسلامية ثابتة لا تتغير ، فالأحداث الكونية كلها مُعَلَّقة بما فى يد المشيئة الإلهية من التقدير الأزَلى . والعلم الإلهى شامل كافة الشئون الدَّهرية . والإسلام لا يُقِرّ كذلك بنزول الغَضَب الإلهى على ذرِّية آدم ، من أجل تلك الزَّلّة ، أى نظرية الخطأ الأصلى ، التى تقول بها النصرانية .

إنّ هبوط آدمَ وحواءَ من الجنة إلى الأرض من معتقداتنا الدينية . بيد أن العلم كذلك يقر بورود الحياة فى حالة پروتو پلاسم إلى الأرض من سائر الكواكب ؛ فمع أنه ليس فى قيام آدم وحواء برحلتهما الجوية ببدنهما الإنسانى ما يُعد خارجا عن القدرة الإلهية ، لم يذكر القرآن الكريم هذا الحادث بآية صريحة . وبناء على ذلك ليست ثمة استحالة علمية فى أن يخلْقا فى عالم آخر ، أى فى الجنة ، فى صورة البشر ، ثم يَهْبطا إلى الأرض نطفة تندمج فيها سيرة البشر وصورته ، وأن يتلاقيا ويتشكلا ، وأن تدوم ذريتهما بعد ذلك . لقد ذَكَرت سابقا نظريات

« سوينت آر يثيوس » فى كيفية ورود الحياة إلى الأرض من سائر العوالم . ومن جهة أخرى لو أمكن الانتفاع بالقوة الخارقة التى بين الذرّات ، فإن رحلة الإنسان إلى السموات من الممكنات العلمية . فكيف يسوغ لامرئ مقرّ بهذه الفرْضيات والاحتمالات ، ومؤمن بوجود مسبب أوّل قادر خالق أزلى لهذه العوالم ، أن يدّعى أن نزول آدم وحواء من عالم آخر إلى الأرض فى صورة نطفة ، أو حتى هبوطهما ببدنيهما الماديين ، يفوق قدرة خالق الكائنات ؟

و إفادتى السابقة جواب على أولئك المتفننين المدّعين المعجبين بأنفسهم ، الذين يستهزئون بالنقول الدينية الواردة عن هبوط آدم وحواء ويستبعدونه . وإلا فهى لا تتضمن الادعاء بأن الهبوط قد حدث كما ذُكر تماما ؛ إذ لا يلزم أن يكون ظهور بداية الحياة فى الكواكب ، مطابقا لأسلوب التناسل المعروف اليوم وقاعدته . فالابتداء لا بُدّ له من تجلى قدرة المسبّب الأول اللدنيّة . وليست ثمة ضرورة أيضا للإقرار بنشأة الحيوان كله من پروتو پلاسم واحد ، كما يقول به بعض الحكماء ، لقبولهم ورود ذوى الأرواح إلى الأرض فى حالة پروتو پلاسم . (Protoplasma) . و بناء على ذلك فليس هناك مايتعارض مع العلم فى الإقرار بظهور الإنسان فى أسلوب آخر ، وصورة أخرى . ومن رأيى الخاص أن البشرية المتفكرة مولود رابع فى الطبيعة ، فوق المواليد الثلاثة . لأنى أرى أن بين الإنسان والحيوان فرقا وتفاوتا بقدر ما بين النبات والحيوان على الأقل .

يقول بعض المفسّرين : إن الجنة التى خُلق فيها آدم عليه السلام ، كانت فى الأرض . ويُستَنتَج من هذا حرمانُ آدم وحواء بزلّتهما المعروفة من نعيم كرتهما . وليس فى هذا التصور مايناف العقل والعلم . تصوِّر بيانات الكتب المقدسة عن خلقة آدم ، الخسران الذى أصاب الشيطان وأتباعه من داء العظمة والحسد ، والنكبة والحرمان اللذين يصيبان من ينقاد لوساوس الشيطان ، فيخون الأمانة ؛ وتحتوى على أنموذج لعبرةٍ فى حياة البشر المستقبلة . ولو اعتبرنا شروع البشرية فى مجادلة

الحياة ، بعد أن أُدِّبت تأديبا شديدا فعليا — ويمكن انتقالها إلى نسله عن طريق الوراثة — أثرا من آثار الخلقة الحكيمة ، فلا يعد هذا الاعتبار مخالفا للمنطق . لقد ورد فى القرآن الكريم : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليسَ أبى واستكبر» . يتلقى المنكرون هذه الآية بالاستهزاء . ولكن إذا فكرنا قليلا ، فإنا نرى أن بنى آدم استفادوا منذ عهد بعيد عالمين أو جاهلين ، من قوى الجاذبية والحرارة والضوء والكهربا والمغناطيس ، وغيرها من السيالات اللطيفة ؛ والرياح والمياه ، وسخَّروها فى الأزمان الأخيرة بتطور العلوم ورقيها ، واستعملوا المواليد الثلاثة كما يشاءون . فبينما جميع القوى اللطيفة ، والموجودات الأرضية المعلومة وغير المعلومة خاضعة للإنسان ، وساجدة له ، توجد قوى إغوائية معادية له عاصية ، تسمى الشيطان وإبليس فى اللغة العربية ، وتسمى فى سائر الألسن بما يقرب من هذا . فهذه القوَى تعصيه وتعاديه . أظن أن توجيها كهذا لا يُعد عبثا عند العقلاء فى مسألة سجود الملائكة لآدم . ولكن يجب أن نفكر منصفين أيضا : هل كان الناس فى بداية نزول الأديان ، أى فى عصور كان العلم البشرى جد محدود ، قادرين على إدراك ما سردته من البيانات آنفا ؟ وإذا كانت الكتب الدينية أفهمت الناس رمزا وإشارة بأن هناك قوًى خفية معادية له فى الدنيا ، فبأى حق يُعترض عليها ؟

وثالثا — الإسلام دين فِطرىّ ، أى أنه مُعَقِّب للشرائع والعقائد الحقة ، التى فُطِر البشر عليها ، وأَمر بها منذ ظهوره . قال تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » — سورة البقرة . وقال : « شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحا » — سورة الشورى .

وهذا الدين المبين يدل على الصراط المستقيم ، الذى يُوَصِّل البشرية كلها دون استثناء الأشخاص والأقوام إلى السلامة فى الدارين . فهو ليس بخاص بشعب

واحد ، كما يدعى اليهود الآن ، ويصدق الأنبياء جميعا بدون تفريق : « لا نفرق بين أحد من رسله » — سوره البقرة (٥٧) .

ورابعا — الإسلام لا يُوئِس الناس من الحياة الآخرة . إنه وإن كان يعلِّم عقيدة البعث بعد الموت ، وخلودَ الروح ، إلا أنه لا يزوِّدنا بمعلومات كثيرة عن الروح ، وعن حياتها التى قبل الحياة الدنيا ، والتى بعدها ، ويكتفى بأن يقول : إنها من أمر الله . وينذر الناس بالعقاب فى اليوم الآخر ، بيد أنه لا يبعث فيهم اليأس . لقد ورد فى الأحاديث القدسية : « سبقت رحمتى غضبى » وفى الآية الكريمة : « ورحمتى وسِعَتْ كلَّ شىء » .

فهو يجعل النعيم خالدا للأخيار ، ويجعل النار مؤقتة لعصاة المؤمنين . وليس للمسلمين رُهبان يطهِّرونهم من آثامهم . فالله نظرا إلى تعاليم القرآن هو الرحمن الرحيم ، والغفار الكريم . يغفر بلا واسطة للمذنبين النادمين المستغفرين . والواقع أن الناس سيلاقون جزاء أعمالهم خيرا أو شرا ، ولو كانت أعمالهم مقدار ذَرّة . بيد أن حسنةً تمحو عشر سيئات عند المحاسبة على الأعمال .

وخامسا — لا ينذر الإسلام معتنقى سائر الأديان إطلاقا بجهنم خالدين . وقد قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصّٰبئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » — سورة البقرة الآية ٦٢ . وقال : « ليسوا سواءً ، من أهل الكتب أمّةٌ قائمة يتلون آيٰت الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسٰرعون فى الخيرٰت ، وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يُكفَروه . والله عليم بالمتقين » — آل عمران ، الآيات ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ . نظرا إلى هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الآتية : — « من قال لا إله إلاَّ الله مخلِصا دخل الجنة » . و « من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة » . و « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » ؛ فليس بعيدا احتمال عفوه سبحانه

وتعالى عمن عملوا الصالحات غير منكرين وغير مشركين بالله شيئا عما ارتكبوه من الذنوب ، وادخالهم فى جناته . الشرك والإنكار يستلزمان العقوبة الخالدة . ولكن لم يُرْفَع احتمالُ تخليص المشركين والمنكرين من أرباب الأعمال الصالحة أنفسَهم من العذاب الأليم ، باهتدائهم بتصديق الوحدانية الإلهية فى النَفَس الأخير (٥٨) .

إن القيام بأعمال صالحة فى الدنيا يؤدّى إلى ملاقاة الخير فى الآخرة ، بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم : « من كان آخرُ كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » . وقوله : « ماحسَّن اللهُ خَلقَ عبد وخُلُقَه ، فيطعمَه النار » . وقوله : « الدنيا مَزْرعة الآخرة » .

[شوهد كثير من ذوى أخلاق مستقيمة ، وأفعال محمودة ، عاشوا منكرين ، حتى إذا جاء نفسُهم الأخير صدَّقوا ما فى ضمائرهم] .

أما الصبيان فمصونون من العذاب مِصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على فِطرة الإسلام » .

فى نظير هذا التسامح الإسلامى ، لا يَرى اليهود أحدا غير يهودى خليقا بالقُرْب الإلهى . أما النصرانية ، فإن فيها من يعتقد بأن أطفال النصارى الذين يَلقون حتفهم بعد ولادتهم بيومين أو ثلاثة أيام ، دون التعميد النصرانى ، لا ينجون من العذاب الخالد ، طبقا لنظرية « الخطأ الأصلى » ، بَلْهَ أمثال قونفوشيوس ومحيي الدين ابن عربى وسعدِى الشيرازى وابن سينا .

ولنتعمق قليلا فى هذه النقطة من المسألة :

يعيش فى الدنيا اثنا عشر مليون يهودىّ ، وخمسمائة وخمسون مليونا من النصارى بحسب الإحصائيات . ولما كان النصارى أيضا منقسمين مذاهب مختلفة ، يكفِّر بعضها بعضا ، فإن أكثر مذاهبها أتباعا لا يزيد على مائتى مليون نفس على أكثر تقدير . فلو أُقِرّ بصحة مذهب هذه الأكثرية النسبية ، وعُدّ نظرا إلى أحوال الناس نصف هذه النفوس على الأقل — على حساب منصف — من أصحاب الكبائر ، لوجب ابتلاء أربعة عشر من خمسة عشر من مجموع سكان

الكرة الأرضية ، المقدر عددهم بأكثر من ١٥٠٠ مليون نفس بعذاب خالد .
وخاصة من جاء منهم إلى الدنيا قبل ألف وتسعمائة عام ، فإنهم جهنميون بلا استثناء ،
من جرّاء سرقة جدنا الأعلى للتفاح ! فينتج إذن أن الرحمن الرحيم والخلاق
الكريم ، إنما خلق الناس لحكمة تموين النار بالوقود ، حاشا وكلا !

يعترض معظم الحكماء ، وفيهم حكماء إلٰهيون أمثال جوته وفلامار يون ، على
الأديان من هذه النقطة ، ولكن لو حُقق لعُلِم أن الإسلام قد سدّ باب مثل هذا
الاعتراض بأحكامه وقوانينه السمحة العادلة الواسعة ، و بنُقط نظره البعيدة الغَور .
وكما أن حكمة الخلقة تحفظ الكائنات من كل أنواع الصّدَمات والمهالك ، فإن الحِكم
القرآنية كذلك ، تحفظ الحقيقة الدينية من شوائب الاعتراض .

ومع أن الأمر كذلك ، يعتقد غير المسلمين أن الإسلام يُلَقِّن أتباعه بغض
سائر الأديان . ومن العجب أن حكيما محققا مثل كميل فلامار يون أيضا تحدث فى
مقدمة كتابه « المجهول » عن هذا الرأى بلسان ساخر . وليس فى الدنيا دين فيه
سماحة نحو سائر الأديان بقدر ما فى الإسلام ، فالإكراه ممنوع فى تلقين الإسلام
ونشره . وهذه القضية ثابتة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، كقوله تعالى :
« أُدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .
وقوله « وما أنت عليهم بجبار ، فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد» . وكقوله صلى الله
عليه وسلم : « إتقوا دعوةَ المظلوم ، وإن كان كافرا ، فإنه ليس دونها حجاب » ،
فكلّها براهين ناطقة بصحة دعوانا . فُتحت مكة بانتصار المسلمين على قريش ،
وسُمح لمن يرغب منهم فى البقاء بمكة على وثنيته ، بل سُمح لبعضهم بالاشتراك فى
حرب حُنين . مع جيش الرسول ، وأغمض العين عن بقاء اليهود بالمدينة وهم يعيثون
فيها فسادا . فهل يُتَصور تسامح أكرم من هذا ؟ .

ظلت بين المسلمين و بين النصارى مخاصمات شديدة قرونا عديدة ، بيد أن
بادئها الأول كان دعايات الصليبيين . شرع فيها « پيَرْلرميت » ، ثم زاد هذا

الرأى قوة بتظلم وشكايات وصراخ من الشعوب النصرانية ، التى أدخلها ملوك المسلمين ولا سيما العثمانيين فى حكمهم بالحرب . ومن الجائز أن يكون قد نجم بعض مساوئ مما وصفت بدأها من العداوة ، ولكن الشر بالشر والبادى أظلم . وقد يجوز سرد بعض وقائع تاريخية مثالا لما وقع على الرعايا من ظلم بعض الأفراد واعتسافهم . بيد أنها مساوئ وفظائع شخصية لا علاقة لها بالدين . فى حين أن مظالم محاكم التفتيش قد ارتكبت باسم الدين ، و بتحريض من الرهبان ومعرفتهم وحمايتهم . لقد ذكرت فى ذيل هذه الصحيفة صورة عهدين ، أحدهما من الرسول صلى الله عليه وسلم لرهبان ونصارى سيناء ، والآخر من أبى بكر الصديق للمجاهدين المرسلين إلى الشام ، دليلا على ما عامل به الإسلام سائر الأديان من التسامح الكريم (٥٩) .

وسادسا — أبطل الإسلام الفروقَ والامتيازات بين الشعوب والطبقات ، ودعا إلى الأخوّة والمساواة بين جميع المسلمين ، بل بين الناس كافة . لقد ورد فى الآية الكريمة : « إنما المؤمنون إخوة » ، وفى الأحاديث الشريفة : « الخلقُ كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » ، و « كونوا عبادَ الله إخوانا » .

ونظام الطوائف (Caste) أى تقسيم الناس إلى طبقات وأصناف ، وتمييز بعضهم عن بعض قِوام ديانة «براهما» ، التى هى أساس العقائد الشرقية . والموسويةُ تجعل بنى إسرائيل شعبَ الله المختار ، والنصرانية لا تحتوى على نظرية التفريق بين الطبقات ، ولكن لو أُلقيت نظرة إلى اختلاف الطبقات والتعصب الذى كان بين الشعوب النصرانية ، أيام أن ساد التعصب الدينى بلاد أوربا فى القرون الوسطى ، وغرور القومية الخاصة والطبقات السائد اليوم فى أمريكا وأوربا ، لَحُكم بأن التعاليم الإنجيلية الحالية لا تتقيد بالوقوف أمام هذه الفروق والاختلافات .

وسابعا — الإسلام يحفز الناس للتمدن والرقى والتطور . وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة مؤيدة لهذه الدعوى ، وتبرَّكتُ بذكر بعضها فى الفصول السابقة

والحديث الشريف : « من استوى يوماه فهو مغبون » ، يدلنا على ما أبداه الرسول صلى الله عليه وسلم من الاهتمام بالرقى والتطور ماديا ومعنويا . وهذه الحقيقة مؤيّدة بالوقائع والآثار . فإن انتشار ديننا بسرعة البرق فى صدر الإسلام واستقرارَه فى معظم أقسام العالم المتمدين ، لا يُحْمل على شىء سوى أنه دين فِطْرىّ ، وأن أحكامه حافلة بالحكمة والعدل والحرية والمساواة . لأن القسم الجنوبى من بلاد العرب المتمدن نسبيا (اليمن) كان قبل الإسلام تابعا للأحباش حينا ، وللإيرانيين حينا آخر ، والقسمَ الشمالى كان متقلبا بين النصارى والزَّرَدُشتيين ، أى كان أيضا فى حماية روما و إيران . وأما القسم المركزى وهو مهد ظهور الإسلام ، فكان سكانُه من الوثنيين عامة . وهم أهل بعض المدن المعتادون الاشتغال بالتجارة ، وقبائل من البدو الرحل الذين لا يفترقون كثيرا عن بدو اليوم ، ضعاف قد وقعوا فى تأثير التغلب الفكرى والاقتصادى لليهود الذين حلُّوا فيهم . فنهضة قبائل مشتتة كهذه مرة واحدة ، وظفرُها بالفتوح بقوة السلاح وحدها ، ليس فى الإمكان مادة . و إذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من الحكم بوجود قوة جامعة وتمدينية فى رُوح الإسلام ، تدفعهم إلى نهضة سريعة ، واتحاد قوى .

إن ما أظهره الإسلام من الرقى والتقدم فى كل أنواع العلوم والفنون والصناعات فى القرون الأولى من الهجرة ، لخليق بالدهَش . فقد كانت تيارات الفلسفة والعلوم الحكمية والرياضية التى أوجدها المصريون واليونان والرومان فى أزمان طويلة ، قد توقفت بل نُسِيت من جَراء الاضطرابات والانقلابات السياسية فى الدولة الرومانية ، وما حدث من المناظرات والمنازعات بين النصارى ، وسائر الشئون التاريخية ، ففتح الإسلام هذه التيارات بقوة مرةً أخرى ، وأضاف إليها مخترعات فكرية وحكمية جديدة .

ودخول أنوار العلوم والمعارف بلاد أوربا عن طريق الأندلس والحروب الصليبية وانتشارُها فيها ، حقيقةٌ ليس فى وسع ألدّ أعداء الإسلام تعصبا إنكاره.

لقد ورد فى مبحث الإسلام فى معجم لاروس الجامع : « كان من المسلمين متصوفون ولغويون ومؤرخون وجغرافيون ورحالون وفلكيون وصناع ؛ بيد أنهم لم يُنجبوا علماء خليقين بالذكر فى الحكمة والكيمياء والعلوم الرياضية » . ولعلماء المسلمين اكتشافات فى الكيمياء ، كما أن الجبرَ إن لم يكن من مخترعاتهم ، فإن الذين كمّلوه وأدخلوه أوربا هم المسلمون . واسمه المستعمل فى اللغات الأوربية (Algebre) دليل ناطق على مجىء الأصل من المسلمين . وذكر أسماء ابن سينا والفارابى وابن خلدون دليل كاف على نصيب المسلمين فى كافة شُعَب العلوم . نشر عمانوئل دويسن من علماء اليهود مقالا فى « كوارترلى ريفيو » الإنجليزية ، قال فيه : «دخل الفينيقيون أوربا تجارا ، واليهود قوميين ، ودخلها المسلمون حُكاما ، وحملوا بفضل القرآن قَبَس العرفان إلى أوربا . والحق أن المسلمين علموا الشرقيين والغربيين الفلسفة والطب والفلك والشعر . وأحيوا تُراث اليونان وعلومهم الميتة . لقد كانت الدنيا مُحاطة ببحر من ظلمات الجهل ، فأغرقوا كل أرجائها فى النور . فهم بهذا الاعتبار واضعو أساس العلوم الحديثة » . وقال جاستون كارمن من مستشرقى فرنسا المشهورين ، فى سلسلة مقالات نشرها فى جريدة فيجارو عام ١٩١٣ : « إن القرآن وهو منبع هذا الدين العقلى ودستوره ، قد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم . ففى إمكاننا أن نقول إن هذه الحضارة نشأت من امتزاج الأسس التى نشرها الإسلام[٦٠] » . وكل ما فى الأمر أنهم لم يقدروا على مسابقة الغرب فى ساحة العلم فى الأزمان الأخيرة . بيد أن جعل الدين مسئولا عن هذا التأخر خطأ فاحش . لأن جزيرة العرب وما حولها كانت عند ظهور الإسلام فى ظلام دامس ، ولم تنعم بالعلوم والفنون إلا بفضل الإسلام . والتاريخ شاهد عدل بصدق ما أقول . والانحطاط السياسى الذى نشأ من الإدارة السقيمة المستبدة ، التى أسستها الحكومات والجماعات الإسلامية مخالفةً للأحكام الدينية ، كانت مانعة للرقى العلمى أيضا . والنصرانية نشأت فى بلاد كانت مهد العلوم والفنون ،

ومع ذلك أدّت إلى زوالها ، ولم يمكن نهضة تلك العلوم مرة أخرى إلا بانكسار التعصب النصرانى ، باستيلاء المسلمين على إسبانيا ، كما ذكرناه سابقا . وبينما الحال كذلك إذْ نرى جماعة من المسلمين المتسمين بالثقافة يتشدقون بأن الإسلام مانع للرقى . فلا أدرى كيف يُقابَل هذا ، أبالضحك أم بالبكاء ! ؟

وثامناً — وأسلوب عبادة المسلمين أسمى بوجوه كثيرة من مراسم سائر الأديان وأصولها . فالمسلم ليس فى حاجة إلى واسطة ليعبد الله ، وهو حُرٌّ مطلَق من السلطة الرّهْبانية . والإمامة واجبة فى حالة الصلاة بالجماعة ، يقوم بها الأرشد والأليق من الحاضرين ، وتُلقَى فى الجوامع خطب ومواعظ ونصائح ، يُفوَّض بإلقائها لمن يكون أهلا لها . وأما العبادة فكل فرد يتوجه إلى ربه بنفسه . يتلو القرآنَ والأدعية بنفسه ، أو يستمع إلى تلاوة غيره لها . وليست فى العبادة الإسلامية المراسم والتشريفات ، من ذكريات الوثنية ؛ والتوسل بالركوع والسجود — وهما أكبر آداب التعظيم والعبودية عند الناس — أمر طبيعى فى التوجه إلى الله سبحانه وتعالى . والاعتراض عليه سفسطة . فلو كان فى صدر الإسلام مراسم غيرها للتعظيم لأُمِرنا بذلك .

والتطهُّر لأجل الصلاة من أعظم الحكم الإسلامية . ويختار عكس ذلك فى بعض المذاهب ، فيتكاسلون فى الطهارة والنظافة بدعوى ترك ما سوى الله .

وبما أنه قد أعطيت معلومات كافية عن الفوائد الدنيوية للعبادة فى فصل خاص ، فقد اكتفيت هنا بهذا القدر .

وتاسعا — فى الأديان الأخرى عقيدة تقول بانحصار ذوى الحياة فى أرضنا هذه ، واختصاصها بها . وهذا الرأى ليس فى استطاعة علماء الفلك فى هذا الزمان هضمه ، فلذا يميلون إلى وادى الأنكار . ولما كانت الآية الكريمة : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابّة » ، تقول بأن فى السموات — أى فى الأجرام الفلكية دواب ، يعنى ذات حياة قابلة للحركة والمشى ، فالإِسلام

سليم من فكر غير علمى كالذى رأيناه . فسّر بعض المفسرين القدماء بأن المراد من الدوابّ فى السموات هم الملائكة ، ولكن هذا التفسير يتعارض مع آيات أخرى فى شأن الدوابّ والملائكة . ولما كان عهد أولئك المفسرين لم يكن قد اكتشف فيه بَعدُ ، لا أبعاد السيارات التى فى المجموعة الشمسية ولا جساماتها ولا حال مليارات النجوم والكواكب وشأنها ومجموعاتها ، لم يستطع أولئك العلماء الإحاطة بإمكان وجود ما يشبه عوالمنا فى السموات أو مخلوقات شبيهة بنا إلى حدٍّ مّا ، فلجئوا إلى التفسير المذكور ، بيد أن ترقيات العلم الحالية ، أثبتت صدق القرآن الكريم وحكمته بهذه الصورة أيضا .

إنى أعتقد أن «دين العلم والفلك» الذى يتمناه حكماء المذهب الإلهى للمستقبل ، سيظهر قريبا أو بعيدا أنه هو الإسلام . وأسرد بهذه المناسبة رأى المؤرخ الإنجليزى إدوار كيبون حيث قال «إن موحّدا ذا دماغ فلسفى لا يتردد لحظة فى قبول وجهات نظر الإسلام . فالاسلام دين أعلى من تطورنا الفكرى اليوم »

(أخذ قول كيبون من كتاب « قرآن نه در = ما هو القرآن » لعمر رضا بك)

الباب الثالث

الجواب عن الاعتراضات المنكرة

ليس فى الإمكان سرد اعتراضات مبرهنة مقبولة ومعتبرة عقلا وحكمة ضد الأسس الدينية . و إذ أن الماديين ، بعد هذا القدر من البحث والتحقيق والمناقشة ، لا يقدرون على إدراك ظهور الكائنات إدراكا بعيدا عن الشبهة ، و إثباته و إيضاحه ، ولا الكشف عن أصل المادة والقوة وماهيتهما ، وكيفية تشكل المادة وتفسيره ، فلا يمكن أن يكون إنكارهم الخالق فوق الإدراك الذى تقر به الأديان ، معتمدا على أساس منطقى . وإذ أنه تُشاهد دائما مكتشفات جديدة ، ويثبت اليوم بطلان نظرية كان يُظَنّ صحتها بالأمس ؛ ويتحقق حادث بنظرية حديثة كان يُظن فيما مضى مستحيلا ؛ ولا تزال دائما تكتشف أشعة مجهولة الماهية ، وقوى وأحداث ؛ فليس فى طاقة المنكرين أن يجدوا أساسا ثابتا متينا صالحا لجرح عقيدة أهل الدين بعالم غيب ممكن أن يكون مبدأً ومنشأ لهذه الظهورات المتوالية كذلك — كما هو أساس لعقائدهم — ونفيها .

ولو أن الإيمان بالغيب هو الشرط الأساسى للدين ، والمغيَّبات أمور ليس فى طاقة الحواس الخمس البشرية التعلق بها ، و إنما تُحَس ويُفهَم وجودها بما تدل عليه آثارها ، ويمكن الاقتناع بها عقلا كذلك . إلا أن ذواتها وحقائقها وحالاتها وشئونها ، أعلى من إحاطة علم البشر بها ، فلذا يُؤْمَن بها دائما كما وردت فى نقول الأديان . ومع ذلك لا سبب ولا محل لإظهار العجز باختيار السكوت والاستغناء على زعم « أنه لا يمكن المناظرة فى مسألة أعلى من إحاطة عقولنا وعلمنا » ، إزاء ما يدّعى الملحدون بأن المعتقدات الإسلامية من قبيل العبث والمستحيلات . وصحيح

إنه لا يمكن إثبات جميع النقول بالحساب والتجربة . ولكن العقائد الإسلامية الأصلية من جملة الممكنات ، وليست عبثاً ومحالا . وهذه الجهة يمكن إقناع أرباب العقول السليمة بها عن طريق القياس والاستدلال العقلى . فلهذا يجب على كل مؤمن مثقف أن يبذل جهده وكفايته فى هذا الشأن ، لوقاية شبابنا من الضلال[٦١] . وكل فرد متفكر منصف ، يسلِّم مثلا بأنه لم يكن فى طاقة عالم أو جاهل قبل قرن من زماننا هذا أن يتصور إمكان إرسال نبأ بلا واسطة ، فى لحظة غير منقسمة ، من طرف الدنيا إلى طرفها الآخر ؛ فلو ادعى أحد ذلك لُحكم بأن به مسّا من الجن .

ومنذ بضعة أعوام من قبل أن تصير الطيارات والمطاود المسيَّرة قابلة للاستعمال ، كانت تنشر فى المجلات العلمية مقالات العلماء الفنيين عن عدم إمكان استعمال الدفة فى الجو ، وتسيير المراكب الخفيفة إلى حيث يُراد فى أجواء السماء . والآن يمكن الاتصال بأمريكا والشرق الأقصى ، وتبادل المحادثات فى لحظة واحدة ، ويتم الدوران حول الأرض فى بضعة أيام بالطائرات . و بينا هذه الأمور أمام الأنظار ، فإن إنكار ملائكة الله وموجوداته اللطيفة التى يتكفل بها نظام العالم ، بدعوى أنها خارجة عن الإمكان — لعدم فهمنا بإدراكنا الضيق — لَبلادة كبيرة .

وأما المنكرون ، فبعد إنكارهم لذات الخالق وأمر الخلقة والأنيِّة البشرية والروح ، يرون أن فى ظهور العوالم أمرا يعجز العقل البشرى عن الإحاطة به ، وأن الهُويَّة البشرية نشأت من تركب بعض الذرات المادية وتحللها ؛ وأن السجايا البشرية كالشجاعة والفتوة تتم عن طريق التيارات الكهربية العضوية ؛ وأن الفكر عبارة عن تركيب مماثل لحمض الفورميك ، والتفكير تابع للفسفور وأمثالها من الدعاوى . والذين يقولون بأن النقول غير معقولة و ينكرونها ، ملزمون بإثبات دعاويهم — كالتى سبق ذكرها — عقلا وحسابا وتجربة . وقد مضى نحو قرن على ظهور هذه الأفكار العجيبة ، وظهرت منذ ذلك الزمن مخترعات محيرة للألباب

كالحاكى (فنوجراف) والتليفون واللاسلكى وأشعة رونتجن والراديوم ونظريات الكهيرب ، وأمثالها من المكتشفات العلمية ، ولم تكتشف وسيلة واحدة مدعِّمة لتلك الدعوى المجردة ، ولم يستصوبها مخترِع أو مكتشِف جاد . وأظن أنه كما لم يأت إلى الآن صاحب عقل سليم يُسَلم بإمكان حدوث الفكر والملاحظة بالإفرازات الجسمانية والتركيبات الكيميائية ، وإمكان حدوث الخصلة والسجية بالتأثيرات الكهربية ، فإنه لن يظهر بعد الآن أيضا . فليثق شبابنا بأن التطورات العلمية سوف تؤيد الإيمان بالمعنويات والمغيَّبات ، وخالق الكائنات ، كقول هرشل المذكور فى الباب الأول من هذا الكتاب .

ومن جهة أخرى يجب على علماء الدين أن يجتنبوا فى التفاسير وإيضاحاتها، البيانات الواهية المغايرةَ للعقل والعادة ، المتعارضة مع المحققَّات والقوانين المثبَتة المادية ، متجاوزين حدود عالم الغيب والاحتمال ، حتى لا يُعْطوا أعداء الدين وسيلة الاعتراض ، ويشحذوا سلاح اعتراضهم .

ليست فى الدين الإسلامى أحكام وقواعد يمكن علميا إثبات مغايرتها للقوانين الطبيعية . بيد أن فى كثير من الأديان والمذاهب التى نشأت من الباعث المعنوى والاحتياج الطبعى للبحث عن خالق وإجلاله ، وتهذيب الطبائع والأخلاق البشرية وتحسينها ، والتى يلزم أن يكون كلها صحيح الأساس بهذا الاعتبار ، ظهر أشخاص حاولوا شرح المعتقدات الأصلية ، وتوسيعها حسبما يزعمون ، فجعلت بدعهم وعلاواتهم ، تلك الأسس الاعتقادية مخالفة للعقل والحكمة ، وفتحت بابا لكثير من الظنون الباطلة(٦٢) .

ولما كانت التطورات العلمية والحِكْمية تحدث منذ عصور عديدة منحصرة فى عالم النصرانية(٦٣) ، فإن الاعتراضات الجدية كانت ضد العيسوية . وإذْ أن المعتقدات النصرانية المعترَض عليها قد اكتسبت القطعية بأحكام وقرارات البابوات والبطاركة ، الذين يُعَدُّون معصومين من الخطأ ، والقناصل (Conciles) الذين يعدون

مُلْهَمين من روح القدس ، فمن الجائز أن يُعترض عليها حين تظهر مغايرَتُها للبديهيات العلمية . إلا أن العقائد الإسلامية التى أوضحتها فى الفصول السابقة ، ليست فيها عجيبة كتلك . فليس فى الإسلام لا بابا غير مخطىء ، ولا قناصِل مُلْهمون ، ولا منعُ المناظرة والاستدلال فى الأمور الاعتقادية ! وعلى ذلك ، ليس من الحق فى شىء أن نحمل على عواتقنا بعض الاعتراضات الصريحة أو الضمنية ، التى يوجهها بعض علماء الغرب على مذاهبهم غالبا ، وأن نضم إليها ما ينشرها بعض الناس ضد الإسلام ، بدافع من نيات سياسية ، أو خصومات مذهبية ، وأن نقربها دون أن نرى لزوما لسماع الجواب عما اعتُرِض به عليها ، والدفاع عنها ، فنتركَ ديننا الذى هو تراث آبائنا وأمهاتنا المعنوى ، ونهينه بدون اكتراث .

كنتُ منذ خمس وأربعين سنة طالبا فى مدرسة أركان الحرب ، وكان أحد زملائنا يكرر دائما هـذه العبارة : « هأنا ذا أنكر الله ، وإذا كان موجودا وقادرا فليصْعَقْنى وليَقْهَرْنى » ! والواقع أنه لم يُقْهر وَحِيًّا . بيد أنه ارتحل من هذه الدنيا بعد خمس سنوات أو عشر ، فى ضروب من العلل والأمراض والفقر والإهمال والمذلة . ليت شعرى من أين تأتى مثل هذه الأفكار الفاسدة لشبابنا ! ؟

بسُوريَة قوم يعيشون عيشة المسلمين على آراء باطلة . وقد تقرر فى عهد السلطان عبد الحميد إنشاء مدارس ابتدائية لإصلاح عقائدهم ، وتعليم أطفالهم الدين ، على أيدى مدرسين سنّيّين . ولما كنت فى ذلك التاريخ موظفا بسورية ، وكنت أجول فى تلك الجهات ، بحكم عملى ، اتصلت بهؤلاء القوم ، وبالذين سُلِّطوا عليهم باسم المرشدين . ففى ذات يوم سألت مدرسا : ما مبلغ تعلمك ؟ فأجابنى بأنه تعلم حتى الإظهار . فقلت له : ما الإظهار ؟ ففكر مليا ، ثم قال : « هو الفعل الماضى ، والله أعلم » . أرجو ألاَّ يُظن أنى مبالغ ، فقد ذكرت الجواب عينه ! لقد بينت فى اللائحة التى قدمتها إلى المُشرِفين عدم إمكان الإفادة من أمثال هـذا المدرس ، وحتى من هُم أعلم منه ، لأن المبادىء والعقائد التى تدرس فى تلك المدارِس ، لتلاميذ فى الثامنة أو

العاشرة من أعمارهم ، تمّحى وتزول بما يتلقونه فى أسرهم ؛ فلو أنشئت فى هذه الجهات مدارس ثانوية يدرس فيها قليل من علم الفلك الوصفى (Cosmographie) والجغرافيا ، مع دروس عملية مفيدة ، لتفتحت أذهان الشباب بفهمهم الدنيا ، ونجوا من المعتقدات الباطلة ، وسهل بعد ذلك إرجاعهم إلى طريق الحق . [وأفكر اليوم ، يا تُرَى ، هل تعمل أشخاص متعصبون تعصبا دينيا ، أو ذوو أغراض خاصة ، أو جماعات أو جمعيات خفية ، على توهين عقائدنا فى حدود ما اقترحت ، ولكن مغرضة لا مخلصة ؟ إنى أرى أن الجامعة الدينية تمنح الأقوامَ قوة ومنعة ؛ فلذا يجوز أن يكون فى هدم هذه القوة المتساندة ، منافع ومقاصد لكثير من الأشخاص ذوى المطامع والأغراض والجمعيات المعادية] .

ظهر منذ مدة كتاب ألفه ن . سيمون بالفرنسية ، عنوانه « سياحة مضحكة بين العقائد والأديان » ذهب فيه المؤلف من حيث الأساس مذهبا ضد فكرة التدين إطلاقا ، ولا سيما الموسوية والعيسويه ، مع عدم الضن بالتعريض بسائر الأديان ، وأورد بعض جمل تهكمية فى حقّ جنات الدين المحمدى ومعراجه ليس إلا .

إن هذا الكتاب الذى حظر البابا على الكاثوليك قراءته ، راج فى بلادنا منذ خمس وثلاثين سنة رواجا عظيما . لأنه استطاع أن يضلل الأفكار كما ينبغى بكلمتين أو ثلاث كلمات قالها عن مِعراج الإسلام وجنانه ، وهو دين متشعب من ملة إبراهيم وموسى ، وذلك بعد أن هيأ الأفكار ببياناته الصحيحة والخاطئة ، ونقده لسائر الأديان .

فلسفة شوبنهور ونيتشه :

وخليق بالذكر أيضا أنه قد راجت عندنا أيضا فلسفتا شوپنهور ونيتشه المتعارضتان ، تلقن إحداهما اليأس ، والأخرى الحرص والتهور ، كأن الدنيا خلت

من فلاسفة سواهما — وهما متضادان فكرا ويتساويان من حيث ضررهما على الأمم — . ولما لزم فى الزمن الأخير ترجمة كتاب فى تاريخ الإسلام من اللغات الأوربية ، اختير كتاب « دوزى » ، وهو ألد أعداء الإسلام ! إن حملنا مثل هذه الحالة على تشويق وتلقين ، فهل نكون مخطئين ؟

مهما يكن من شىء فإن ما ذكرت من الفلسفات والكتب ، اتحدت مع بعض أخطاء داخلية ، فقلبت مجتمعنا رأسا على عقب . ويتضح بأدنى تأمل وتحقيق أن ديننا وعقائدنا أسمى فى الحقيقة بكثير من إسنادات ن . سيمون ، ومن تلك المذاهب الفلسفية المتناقضة ، وأهدى إلى طريق السداد والسلام ، فى الدنيا والعقبى . فالالتفات إلى أمثال تلك المفتريات المغرضة ، والتهكمات الوقحة ، والميل بلا بحث وتحقيق إلى أفكار باطلة ، ليس كفرا حسب ، وإنما هو عيب وذلة فى هذه الدنيا أيضا .

استطراد

معاتبة العلماء

أوهام الجهال :

لو فُكِّرَ بالإنصاف حقا لَتَوَجَّه بعض هذا العيب وهـذا الإثم على علماء ديننا ، وخاصة إلى الخلافة الإسلامية المنقرضة ، والمشيخة الإسلامية الملغاة . فإن إهمال تلك المقامات هيأ فرصا موانية لتلك الهجمات الخارجية . وما كان ينبغى أن يكون معنى سامٍ كالدين ، ألعوبة فى يد مؤلفين جهال ، ووُعاظٍ أجهل منهم !

إنى ألتمس من العلماء الحقيقيين عدم التأثر منى ، من أجل ما ذكرت ، وما سيرونه من الملاحظات ، فإن ما انتزعته من أعماق قلبى ، وثبّته فى الصفحات ، إنما هو نية بث الشكوى إليهم باسم الدين ، من بعض علماء رسميين يَلبَسُون أثوابهم وعمائمهم فارغين ، محرومين من علومهم وأعمالهم .

ففى الأناضول كتب لا تزال متداوَلة ، ملأ بها الإيرانيون آسيا الصغرى ، خِـلال المنازعات المذهبية والسياسية بين السنيين و بين الشيعة ، أو بين العثمانيين و بين الصَّفَوِيين لاستغفال العوامّ — ولعـل الإيرانيين نسوا تلك الـكتب وأهملوها — ومما ورد فى تلك الـكتب ، أن ضربة من ذى الفِقار ، بيد علىّ الـكرار ، اجتازت طبقات الأرض السبع ، وكادت تشطر ثور الأرض ، لولا أن وصل جبرائيل ، فأمسك بذلك السيف القهار ، ومنع الهرْج والمرْج ؛ وأن الرعدَ والبرقَ ينجمان من غضب علىٍّ ، الذى عَرَج إلى السماء بعد وفاته ، ومن صياحه . والفرق بين هذه العقائد السخيفة و بين أساطير الأولين ، هو أنها أغلظ من الأساطير . و يفهم بأدنى ملاحظة ما يمكن أن تبلغ هـذه المعلومات المستنبطة من تلك الـكتب فى

لسان أولئك الوعاظ والمرشدين ، الذين يسمون كلمة « الإظهار » الفعل الماضى .

لقد سمعت واعظا فى صباىَ يقول : إن الأرض معتمدة على قرن ثَوْر ، والثور واقف على ظهر حوت ، والحوت يعوم على سطح بحر ، والبحر قائم على القدرة الإلهية . وهذه الحكاية وهى تذكرنا بحكاية « مئذنة فوق مئذنة » ، جائز أن تكون فى بدئها متفرعة ومتشعبة من كون الأرض فى بُرْجَيِ الثور والحوت . وكانت نظرية فلك بطلميوس المتداوَل فى أيام البعثة المحمدية ، تفرض الأرض ثابتة فى مركز العوالم ، والقبة السماوية دائرة حولها . وأما القرآن المجيد ، فقد قال فى صورة موجزة معجزة : إن الشمس مستقرة فى مجموعتها ، والأجرام سابحة فى فلك . و بينا الأمر كذلك ، أليس تلقين الناس ما حكيته من الأباطيل مختلطة مع العقائد الدينية أمر جهل وحمق يحير العقل ، ويضيق به الصدر ، والإذن به من أكبر الكبائر ؟ لقد ورد فى الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، أن الغيب لا يعلمه إلا الله ، وأن مجرى الأمور لا يتغير ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . و بناء على ذلك مُنع الرمْلُ والتنجيم والعيافة والتشاؤم والتطيُّر وغيرها ، منعا باتا ، ومع ذلك لا يزال كثير من الجهال يُلقَّنون تلك الأمور الباقية من الوثنية فى صورة وصايا ، بل فى صورة الضروريات الدينية . وكلما بحث الإنسان ودقق النظر ، شاهد بكمال الأسف والدهَش أن كثيرا من الناس كانوا يتلقون الحقائق الدينية الإسلامية فى داخل البلاد الإسلامية وخارجها ، على عكسها ، ولا يزالون يتلقونها كذلك !

وكل صاحب دين ومذهب مكلَّفٌ الدفاع عن دينه واعتقاده — ولو بوسائل ليِّنة وحسنة — والجهاد فى سبيل نشرهما و إعلاء كلمته . فهل كانت مقاماتنا الدينية ودوائرنا المَذْهبية تقوم بهذه الوظيفة تحقيرا لديننا فى أفواه الجهال !

إن حسبان كل من يؤلف كتابا معصوما من الخطأ ، وترك كل من يذهب إلى قرى ليعظ الناس مطلق العِنان ، قوّالاً لما يريد ، قد أنتج لأمتنا ومجتمعنا أضرارا ومساوئ جد خطيرة . فإن الهذيانات التى ذكرت أمثلة منها آنفا ، إذا قرئت فى

كتب أو سُمعت فى جوامع وزوايا ظُنَّت فى خارج إستانبول ، بل هى فى الأسر المقيمة بالأحياء المتطرفة بإستانبول نفسها ، من العقائد الدينية . يسمع الأطفال هذه الخرافات من أولياء أمورهم ، ولا سيما أمهاتهم ، ثم يذهبون إلى المدارس ، ويتلقون قليلا من مبادىء الجغرافيا والكزموجرافيا والكيمياء والطبيعة ، فيدهشون فى بادىء الأمر . وكلما زاد عجزهم عن حل ما يشكون فيه وشاهدوا وجها عبوسا من أئمة المساجد ، الذين يظنونهم علماء قادرين على حل شكوكهم ، ازدادوا شكا وريبة ، ومالوا إلى وادى الإنكار ، وصاروا من أعداء الدين .

أوهام الخواص :

فلندع الآن ما يدور من القيل والقال بين الجهال ، ولننقل الحديث إلى بعض الأوهام السارية ، فى الطبقات العالية . فعندنا رجل من المعتَقَدين يُدعى « يازيجى أوغلى » وقبره بكليبولى مزار الجميع ، وله كتاب منظوم عنوانه « محمّديه » . وقد ذكر فيه بلغة رقيقة مثيرة للحزن ، أن من بواعث شهادة الحسنين رضى الله عنهما ، « أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبّل الحسن صبيا من فيه ، والحسين من جيده ، فغضبَ الله على إظهار نبيِّه حبَّه لغيره ، فقدّر موتَ الحسنِ مسموما ، والحسين مذبوحا » .

لا أدرى كيف يعجب امرؤ يضع نُصْبَ عينيه ما وَضَع شرعُ اللهِ من الحد لعاشق حسود قتل حفيدى حبيبه لحبه إياهما ممَّنْ يُسْنِد فعلا مثله إلى الله سبحانه وتعالى ؟

إنه وإن كان مما يلزم الاعتراف به مع الشكر والثناء ، أن علماء السلف قد ألّفوا كتبا ناقضة ومُبْطلة لتلك السخافات المبنية على الأوهام ، وحتى على روايات ضعيفة ، إلا أن تلك الكتب ظلت مجهولة للسواد الأعظم . وإذ كان الناس ،

ولا سيما الجهال منهم ، ميالين إلى الضلالات أكثر من الأمور الجدية ، فقد تشعبت هذه الخرافات بين أكثر الناس .

و إن التجأ أحد إلى بعض العلماء اللابسين كسوة العلماء لإزالة ما بذهنه من شبهة إزاء ما فى هذه الرواية وما يشبهها من الروايات المضادة للعلوم والفنون ، المغايرة للحِكم والأسس الدينية ، رُدّ عليه بأجوبة كلها عتاب وتوبيخ ، كقولهم «لايُتَدخل فى أمور الله . فهل يعْجِز اللهَ أمر ؟ ألستَ بمؤمن بالمُعْجزات ؟ » وقد نسُوا أن أحد أولى العزم من الأنبياء العظام طلب إلى اللهَ بُرهانا ليطمئن قلبه . وقد يُكَفِّرون من لجأ إليهم بنية خالصة[٦٤] !

لا ينكِر عاقل ما لله سبحانه من قدرة مطلَقة ، لأن قطعة من حجر قد يتجلى فى ماهيتها الحقيقية أثر قدرة وحكمة أعلى مما يتصوره البشر فى خياله باسم العجيبة والخارقة ، والمعجزة ، ويقدر على إظهارها من الوقائع والأحداث . إذن فتصور العجز لخالق السموات وما تحتوى ، وصانعها ، لا يكون سوى جهل وحمق . فليست النقول الدينية لا يردها مؤمن موحِّد حَسْب ، بل لا يردها متفكر متفنن أيضا بلا دليل ، كما يردها الملحدون الجهال . إن العلماء الحقيقيين الذين يشاهدون إمكان حدوث الثلج من بعض مواد كيميائية على ألواح معدنية بلغت حرارتها البيضاء مئات الدرجات ، وإمكان عدم احتراق الأعضاء البشرية التى دخلت قضاء وقدرا فى هذا المعدن المذاب لتبخر العرق ، ويطبّقونه على العلم ؛ ويشاهدون أيضا كثيرا من الحوادث والمسائل التى كانت من المستحيلات فى النظريات العلمية القديمة وصارت من الأمور الطبيعية والعادية — لا ينكرون أمرا ما بسهولة و بلا تأمل . قال آراجو (Arago) من أشهر حكماء القرن التاسع عشر : « إن من ينطق بكلمة « غير ممكن » خارج الأبحاث الرياضية البحتة — أى مادام لا يخالف الأحكام الرياضية — يكون ناطقا بلا تدبُّر ؛ إنه لقول حكيم حقا .

لو دخلنا ساحة الروحيات والوجدانيات والحسيات لصادفتنا حالات كثيرة

لا سبيل لتفسيرها و إدراكها بالعقل والعلوم الموجودة . فهناك حالات كثيرة يظهرها سالكو الطرق العلية الصوفية منذ القدم ، ولم يتمكن حتى اليوم إسنادها إلى حيلة مثبتة — برغم ما بُذل من التحقيقات — وليس فى الإمكان بلوغها عقلا(٦٥) .

وخلاصة القول أنه إذا نظر امرؤ فى نفسه و إلى من حوله بدقة ، وتذكر حياته الماضية ، وتفكر فيها ، فهم أنه محاط بكثير من غرائب وأسرار ، وآمن بوجود عالم غيب مصدرا لتلك الأمور وأصلا . بيد أن إدراك تلك المظاهر والحوادث والتفرس فيه فى حاجة إلى الوقوف العلمى مع استعداد خاص : فعبارة « المعلومات القليلة تخرج الناس من الدين ، والتتبع العميق يعيدهم إليه » لروجى باكون من حكماء الإنجليز ، قول جِدّ حكيم :

و برغم كل هذه التصديقات لا بد من وجود تناقض فى تلقينات العلماء بين بعضهم و بعض و بينهم و بين الحقائق العلمية ، ولا سيما للإسلام ، فإنه شرط أعظم . فكلمة « أومن به لكونه مستحيلا » تعتبر دستور إيمان فى سائر الأديان . وأما فى ديننا فالمرجح هو الإيمان الاستدلالى ، وأبواب المناقشة مفتوحة على مصاريعها.

معجزات الأنبياء :

أما فى مسألة المعجزة فبعد الاقرار بتعلق قدرة الله بكل شىء، يجب النظر إلى الفكرة الآتية : إن إظهار الأنبياء العظام المعجزات لاقناع الناس برسالاتهم — موافقةً لاستعداد القوم الذين بُعِثوا فيهم ، والزمن الذى بعثوا فيه — من جملة النقول الدينية . فقد كان المهم فى زمن موسى السحر والكهانة ، وفى زمن عيسى الطب والحكمة ، وفى زمن محمد الفصاحة والبلاغة ؛ فظهرت معجزات هؤلاء الرسل العظام ، وتجلّت فى صورة التفوق العظيم فى العلوم والصناعات المرغوبة بين الناس فى زمانهم . وأما القرن الذى نحن فيه فالأهم فيه والمقدم ، هو العلوم العقلية

والطبيعية . فالأذهان لا تستطيع أن تقبل النقول المتعارضة مع العلوم . كان الأوائل يطالبون بمشاهدات خارقة للعادة ، حتى يقتنعوا بالأمور المعنوية . وأما الآن فيبحث عن توافق النقول مع العقل والمنطق .

فالقرآن المجيد يعجز دائما العلماء المتبحرين ، كما يعجز الفصحاء والبلغاء بمعجزاته الباهرة — فى صورة إقناع الاحتياجات الفكرية لكل زمان .

رد الرسول صلى الله عليه وسلم على من طالبوه بالمعجزات لاثبات رسالته بقوله تعالى : «سبحان ربى هل كنتُ إلا بشرا رسولا — الإسراء الآية ٩٠—٩٣» وقوله « قل لا أقول لكم عندى خزائنُ الله ولا أعلم الغيبَ ولا أقول إنى مَلَكٌ ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى — الأنعام الآية ٥٠ » . والحق أن الأصحاب الكرام لم يطالبوه بالخوارق للايمان بنبوته ، وعَدُّوا بلاغة القرآن وما بلَّغ من الحقائق برهانا كافيا . ولكن ما الحيلة ، فقد جاء بعد عصور فريقٌ ممن لبسوا زى العلماء ، وحشروا ما سمموه فى الكتب ، وصاحوا من فوق كراسى الدروس ، فحمّلوا وجدان الشباب أحمالا من تلك الأراجيف التى لا يطيق حملها .

إن الرسول أظهر بعض معجزات أيضا برغم اجتنابه : وفى جملتها انشقاق القمر . و يعترض الحكماء وعلماء الفلك على هذه المعجزة كما يلى : « القمر كرة قريبة الحجم من الأرض (قطر القمر يزيد قليلا على ربع قطر الأرض) على بعد وَسَطى مقداره نحو ثلاثمائة وستين ألف كيلو متر ، وتدور حول الأرض فى مدة معينة . وتؤثر بقوتها الجاذبة فى حادثى المدّ والجزر ، وكثيرٍ من التحولات الطبيعية الأخرى . فانشقاق كرة عظيمة مثلها فجأة كان يقتضى أن يؤثر تأثيراً خطيرا فى ظهر الأرض ، وربما فى النظام الشمسى كذلك . ومن جهة أخرى يشاهد القمر فى وقت واحد على ارتفاع مختلِف من نصف الكرة الأرضية . فظهور حادث خارق للعادة كهذا فى نقطة واحدة فى الحجاز — مع وجود مراصد لدى أمم

كثيرة متمدينة إذ ذاك — وعدم مشاهدته فى بلاد الفرس والهند والصين مثلا ، مناف للعقل والعلم (٦٦) .

ومع أن دليل المنكرين الآنف الذكر قوى جدا وواضح فإنى أرى أنه يفقد قيمته وخطره بازاء دليل واحد وارد فى الصورة الآتية : « يكون كل حادث بمثابة لا شىء بالقياس على ما تشاهد من القدرة فى خلقة الكائنات » . بيد أن أدلة الحكماء هذه العلمية المؤلفة من الصغرى والكبرى أكثر ملاءمة للأذهان العامة من بُرهان بسيط مبنى على العقيدة ، وأشد تأثيرا . وليست غاية المعجزة إضلال الناس ، بل إيصالهم إلى طريق الحق .

وبناء عليه ألم يكن أوفق لعلماء الدين محاولة إقناع من يرجع إليهم فى حل المشكلات بمثل ما سنذكر من مباحثه بدل ردهم عليه بخشونة ؟ هاك تلك المباحثة :

« يُرْوى أن المشركين قالوا للرسول مجادلين : إن كنت نبيا حقا فشق هذا القمر الطالع ، فأشار الرسول إلى القمر فرُئِيَ شِقّان .

وشاهد الحادث كثير من المؤمنين وغير المؤمنين ، وانتقلت الرواية إلى الخَلَف . وإذ أن الرواية مشهورة فلا بد من قبولها . وليست فى كيفية الرؤية هذه ما يخالف قانونَ الطبيعة أى السنة الإلهية التى لا تتغير — لم يكن انشقاقا كما صوّره بعض الجهال — :

أولا : لأنه يمكن أن يُحدِث بعض الأحداث الجوية والنسيمية ، بعضَ مناظر فى الأفق ، وخاصة فى المناطق الحارّة ، تشاهَد فى مناطق محدودة ولا تشاهَد فى غيرها . .

وثانيا : لأن الكرة القمرية قد ظهرت فيها اختلالات كبيرة وانفجارات جبال بركانية ؛ فليس من المستبعد علماً أن يظهر انفلاق (٦٧) أثناء تلك المناقشة ، وأن يظهر فى شكل هائل ، بانكسار الضوء ، لوجود القمر إذ ذاك فوق أفق

الحجاز المواتى جدا لأحداث السراب . فظهور الحالتين المذكورتين ، أو أى حادث من الأحداث الطبيعية الممكن حدوثها بالقدرة الصمدانية ، بإشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم حين سؤال الناس عنه ، معجزةٌ . فمثل هـذا الرأى مُبرهَن ببراهين كأداة دعوى المنكرين ؛ فلذا ينبغى لعلمائنا أن يتحمّلوا مشقة مثل هـذه المباحثة لإرشاد الناس .

بيد أن المعجزة القرآنية تظهر وتتجلى فى صـورة أخرى ، وإذ كان المنظار المقرِّب لم يُخترع فى عصر السـعادة [عصر النبوة] فإن معلومات علم الفلك عن القمر ، كانت منحصرة فى تعقُّب صفحات هذا الجِرْم ، وتعيين خسوفه وكسوفه. ولم يكن معلوما لا حجمُه ولا بعدُه عن الأرض ، ويتضح الآن من مطالعة مُصوَّر القمر المرسومة بصحة تامة ، وقوعُ كثير من الاختلال والإنشقاق فى القمر .

القمر محروم الماء والهواء النسيمى ، وسـطحه ، من أوله إلى آخره ، حُمَم بُركانية خامدة . لقد فُهم الآن أن هـذه البراكين ثارت فشقَّقت قشرَ القمر ، ودفعت المواد المشتعلة إلى الخارج ، فجعلت الـكرة محرومة الرداء الحارس النسيمى خارجا ، والحرارة المركزية داخلا على أغلب الاحتمالات . إن بيان القرآن حالةً كهذه بياناً موجزاً فى زمن لم يكن فى الدنيا أحد يتخيل مثله ، لَمعجزةٌ باهرة .

ذكرنا سابقا بالمناسبة ، وجود عالمين اثنين ، عالم الشهود والمادة ندركه بحواسنا الخمسة ، وعالم الغيب الذى لا يُعـلم إلاّ بآثاره ، أو على الأقل نحسّ ونعقل عالما أثيريا غير مادىّ . لقد تعمقّ علمُ البشر فى العالم المادىّ ، فاستطاع أن يثبت بالعـلوم اليقينية والتجريبية كثيرا من قوانينه ، وأغلبُها من القوانين الطبيعية ، وموضوعاتٍ وسنن إلهية ، فلذا لزم عدها غير متغيرة(٦٨) . على شرط ألا ينكرها العقل وينفيها .

أما العالَم المعنوىّ وهو أصـل حقائق الموجودات ، وخاصةً العالم الأثيرى ، فلم يوصل إلى كشفه بعدُ . فقد توسم فيه الذكاء البشرىّ من بعض آثاره ،

ونفذ فى بعض أسراره ما أمكن ، إلا أنه لم يقدر على إدراك كنهه ولا يزال متوقعاً أن يُدرَك بعض آثاره ، ولكن لم يمكن الوصول إلى غايته وماهيته الأصلية والنفوذ فيهما . فعلم البشر ، كما يقول الفيلسوف هربرت سبنسر ، يتوسع إلى كل الجهات ، على صورة كرة محدودة داخل أسرار معنوية غير متناهية ، إذ أنه كلما توسع كبر سطحها المماسّ لأسرار هذا العالم المعنوية ، فقد زادت حيرته ، وبان عجزه .

وبناء على هذا القول الحكيم ، إن المنحرفين بلا تفكير إلى إنكار الأمور الاعتقادية ، هم أولئك الذين لم يفهموا عجزهم ، أى الذين لم تكمل كرة علمهم بعد .

هكذا يمكن دائما وقوع حالة خارقة للمادة متعلقة بعالم الأثير . وإنكار هذا الإمكان والاحتمال ما هو إلا مكابرة . فكل رواية ونقل لم يدخل فى نطاق العلوم اليقينية ، ولم يثبت بها بطلانُه ، يحتمل الصدقَ والكذب . ولكن ينبغى التأمل والاحتياط فى تلقين الأمة روايات مغايرة لبعض القوانين الثابتة لعالم المادة والشهود .

وبناء على ذلك :

أولًا — يجب ترجيح الشق المعقول بلا تردد فى المسائل الاعتقادية المختلف فيها . ففى كل صحيفة من القرآن الكريم آيةٌ آمرة بالتعقل والتفكر . والأحاديث النبوية فى المعنى نفسه جد كثيرة . فنحن إذن مضطرون دينيا للتفكر ، واختيار الشق المعقول .

رأى المؤلف فى المعراج :

أريد بهذه المناسبة أن أقول بعض كلمات حول المعراج ، وهو موضوع يتخذه خصوم الدين وسيلة للطعن على ديننا . إن ما نُكلف الإيمان به بنص القرآن هو

السير فى ليلة واحدة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . و إن الادعاء بعدم إمكان تعلق القدرة الإلهية للتسيير بوسيلة مَّا لِما يمكن الآن سيره بطائرة ، خليق بالاستهزاء أكثر من الإيمان بوقوع السير . وقد ثبت تواترا مشاهدةُ بعض الناس فى أماكن مختلفة فى وقت واحد ، وتأيد ذلك بتحقيقات كميل فلامار يون (٦٩)

أما وصوله إلى الله ، وهو القسم الثانى ، فليس بمستبعَد على الروحانية النبوية ، أن يفوز لحظة بوصاله تعالى فى الدنيا ، وقد وُعِد به المتقون ، ليكون لهم جزاء أوفى فى الآخرة . وكلُّ مافيه أنه إذا صُوِّر جسمانيا تعارض مع كثير من القوانين الطبيعية ، وحدثت مخالفات للأحكام الدينية ، كإسناد محل معين لله ، فيكون سببا لاستخفاف كثير بالدين وكفرهم . ومن المعلوم أن كثيرا من الصحابة والتابعين اختلفوا فى وقوع المِعراج : كان جُسمانيا أم روحانيا . وقد اختارت عائشة رضى الله عنها الرأى الثانى . وفى رأيى — ورأيى قاصر — أن الروايات والأدلة المسرودة فى كونه روحانيا أقوى وأقرب للمنطق (٧٠) . ثم إنى عثرت فى تفسير سورة « والنجم » لخواجه وهبى أفندى من فضلاء زماننا ، على حديث « رأيته بفؤادى » ، وهذا أيضا يؤيد الرأى الثانى . فى حين أن أكثر الناس عندنا يعتقدون بوقوع المعراج جُسمانيا . ومنظومة المعراج لسليمان چلبى مُشَوِّشة للأذهان ، فينبغى للعلماء قبول الشِّقِّ الثانى و إذاعته للناس .

وثانيا ، من العبث ذكر بعض الإسرائيليات غير الواردة فى نص القرآن ، فى صف المعتقدات الدينية ، لورودها فى كتب بعض المفسِّرين ، و ينبغى منع هذه الحال الخليقة بالأسف ، ولا جرم أن المفسِّرين حين يذكرونها يشيرون دائما إلى ضعفها .

وثالثا ، لا ينبغى اجتناب تفسير بعض المسائل التى تبدو فى الوهلة الأولى كأنها مستحيلة ، تفسيرا علميا ، كانشقاق القمر الذى سردته آنفا .

ورابعا ، إذا شوهد تعارُض فى النقول ظاهرا — يلزم أن يكون ناشئا عن عدم الفهم — فيجب العناية بإزالته على أن يُضحَّى بالفرع للأصل .

وخلاصة القول : إنه يمكن استمالة الناس اليوم ، وجَذْبهم إلى طريق الحق بالمعقول . فيجب البحث عن الزوائد والأباطيل التى أُدْخِلت فى الدين حينا بعد حين ، وطبُّها ، و بحث تعارُض النقول بعضها ببعض ، و ببعض موضوعات العلوم ، تعارضا ظاهريا وحله بعد التمحيص والنقد علميا وعقليا :

أذكر هنا بمناسبة ، أن إرهاب بعض العلماء أهل الإيمان لأخطائهم الخفيفة بشدائد عذاب الآخرة ، ولعنهم وتكفيرهم ، يوقِّع كثيرين فى يأس وانفعال ، ويدفعهم للإلحاد . فلُبس القبعة وإبداء عدم الحب ببعض ما كان يحبه النبى ، والأمر بكلْ هذا ، واشرب ذاك ، كلها كُفْر ! وأنا أرى عدم انكسار الرابطة الدينية والإيمان بمثل تلك الصَّدَمات التافهة . وإذا قصَد امرؤ بتلك الأقوال تحقير الدين ، والاستهزاء به أو إنكاره فهو غير مؤمن . وقد كفر دون حاجة إلى تلك الأفعال . وقع نظرى على قول : « ملعون من لعب « بالشِّطْرنْج » بين الأحاديث الشريفة المندرجة فى رسالة عنوانها « كَنْز العرفان » ! على حين أن الإمام الشافعى رضى الله عنه إكتفى بأن عدَّه مكروها . وما كان لإمام مجتهد كمثل الإمام الشافعى أن يخفف ما نهى عنه النبى مشدِّدا . فتناقض كهذا يحيِّر كثيرا منا . وكل أمة ملزمة تَنْشِئة أفرادها ، وتهيئتم لمنازعات الحياة فى هذا العصر . فكل رجل من رجال الدولة ، بل حتى من أفراد الأمه فى حاجة إلى الاشتغال ببعض أمور مسكِّنة أو منبِّهة أو مُثيرة ، لشحذ الذهن ، وتسكين الفكر وإثارة الإحساس ، وتنبيه الأعصاب ، وتمرين الأطراف ، بعد الفراغ من عبادته المفروضة ، ومشاغله الدنيوية . ولا يمكن مطالبة كل إنسان فى هذه الدنيا ، وفى هذا الزمان ، بالتخلق بأخلاق الأصحاب والأسلاف ، والتطبع بطباعهم ، والحياة المدنية الحاضرة لا تشبه حياة البدو فى هذا العصر ، بله الحياة البَدَوية فى الأزمان القديمة ؛ فالممارسة المكتسبة فى ذلك الزمن وفى تلك البيئات ، يمكن حصولها الآن تقليدا فى بيئة مدنية ؛ فمن الأوفق عدم التشدد فى بعض الألعاب ، اعتمادا على

روايات ضعيفة . و « الحلالُ ما أحلَّ الله فى كتابه ، والحرامُ ما حرَّم الله فى كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا لكم » ، و « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها » صدق رسول الله .

رأى المؤلف فى الأحاديث النبوية :

بهذه المناسبة أتجرأ لإبداء رأيي ، ورأيي قاصر ، فى الأحاديث النبوية :

منع الرسول صلى الله عليه وسلم من كتابة أحاديثه الشريفة بقوله : « لاتكتبوا عنى شيئا إلا القرآنَ ، ومن كتب عنى شيئا غيرَ القرآن فليَمْحُه »(٧١) والحق أن الأحاديث التى لم تصدر منه صلى الله عليه وسلم على صورة خطبة أو موعظة ، من الطبيعى أن تكون متعلقة بأبحاث جرت فى ذلك الزمن . فلذا لا يجوز أخذ جملة من الكلام بدون علم ما قبلها وما بعدها ، واعتبارها نصا لقداسة قائلها ، وقد يؤدى هذا إلى التناقض أحيانا . مثل قوله « كاد الفقر أن يكون كفرا » و« أستعيذ بالله من الفقر والعَيْلة » و بين قوله « الفقر شَيْنٌ عند الناس ، وزينٌ عند الله يومَ القيامة » ، فإن هذه الأديثَ ينقض بعضه بعضا فى الظاهر إذا وضع بجانب بعض . على أن كل واحد منها حكمة فى موضعه . فكل حديث إذا اعتبر أمرا ونصا ، يمكن أن يؤدى إلى مشاكل ، ما عدا الأحاديث الصحيحة ، التى اتخذها الأئمة العظام لتأييد آرائهم ، وتنوير مدَّعاهم . والأحاديث الشريفة أمثال « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » . و « إنما أنا بشر مثلكم ، إن الظن يخطئ ويصيب ، ولكن ما قلت لكم قال الله ، فلن أكذِب على الله » . و « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فكلها إشارة إلى تلك النقطة الدقيقة ، وأما ما تحويه من التواضع و إنكار الذات فحجة بالغة لعظمة شأن قائلها ، وعمق نظره .

وبهذه المناسبة أستمر فى سَرْد بعض آراء عن الأحاديث الموضوعة . حفظت عددا كبيرا من العبارات العربية ، باسم الأحاديث النبوية ، سواء جرَتْ عن لسان العظماء الذين فُزْت بحضور مجالسهم منذ نعومة أظفارى أو من مطالعة كتب قيّمة . ولما شرعت فى تأليف هذا الكتاب ، وقمت بالتمحيص والتحقيق ، اتضح أن ما يقرب ، من نصف محفوظاتى أحاديثُ موضوعةٌ . وإن كان بعضها جُمَلا وَجيزةً مزيَّنَة مفيدة لفظا ومعنى ، وحاوية نصائح وعظة ، إلا أن بعضها مُضِرةٌ ، وخليقة أن تقلب عقائدنا الإسلامية رأساً على عقب . فمنها « لولاك لولاك ، لما خلقتُ الأفلاك » الذى ذُكر فى بحث « ورُسُلِه » فى الباب الأول ، و « أول ماخلق الله نورى » و « أول ماخلق الله العقلُ » وأشباهُها . بيد أن أعجبَ العجب ، هو أن يقتبس شاعر عظيم كالشيخ غالب من هذه العبارات ، الضعيف بعضُها حقا ، وبعضها مشكوك فيه وضعيف ، فيقول « بما أن هذا النورَ أوَّلُ ما خُلِق فإنى معذور لو سمَّيتُه ثانى الله » ، ثم يأتى أديب متبحر ، وهو ضيا باشا ، فيضمِّن منظومته فى النعت الشريف هذا البيت . وهكذا تنشأ عقيدة تثليث مؤلف من الله وثانيه والعقل الأول ! ويبدو أنه لا مانع عند أدبائنا من الكفر والشرك إذا كان منظوما ! لأن هذه الأبيات تُنشَد فى مجالس العلماء وتُسمع بلذة وسرور .

ومما يستلزم الأسَف أن يُسمح بدوران هذه الأقوال الباطلة فى أفواه الصغار والكبار وتأسيس عقائد مبنية عليها ، بعد أن جمع أعلمُ علماء الإسلام ، نوَّر الله مراقدَهم إلى يوم الدين ، الأحاديثَ الصحيحة ، وألَّفوها ، وبحثوا عن موضوعاتها ، وأشهَروها بين الناس وأشاعوها . وحديث الرسول « من كذب علىَّ متعمداً فليتبوَّأ مقعده من النار » وأمثاله ماثل أمام الأعين !

رأيه فى الشروح والحواشى :

وإذ أن المناسبة مُواتية أريد أن أبحث قليلا فى موضوع مهم كذلك . وهو

أن الخلف اعتادوا شرح كثير من مؤلفات العلماء العظام وتفسيرها . وفى هذه الشروح يُختَرع ضُروب من التأويل والتفسير للمتن ، وتسندُ إليه معان مجازية . ويشاهَد كثيرا إتعابُ الشراح أذهانَهم بالبحث والتعقب عن معان باطنية ، مع أنّ المتون صريحة معقولة ، ومقارِنة للذوق السليم . وفى إمكانى أن أذكرشروح كتاب المَثنوى وديوان الحافظ الشيرازى مثالا لذلك . إن الانهماك فى التأويل ، قد يشتمل آيات كثيرةً فى التفاسير وأحاديث كثيرة فى الآثار . و بينما صار التفسير والتأويل وتوجيه المعانى المجازية عادة متبعة ، فإن بعضَ العلماء على العكس من ذلك يُصِرّون متعصبين على أخذ بعض الأحاديث بمعناه الظاهرىّ ، فى حين أنه يدلّ ذوقا وحِكمة بل صراحة ، على قصد قائله معناه المجازىّ . وهكذا يجعل العوام للأحوال الغيبية والأُخروية أشكالا وصورا مادية مستقرة فى المخيِّلة ، ثم تبلغ هذه التصورات الشعبية ألسن خصوم الدين ، فتصير وسيلةً تستعمل ضد ديننا وسلاحا . وليس فى الإمكان التأليفُ بين الحكمة البعيدة الغور ، والسماح الذى يحويه قولُ الرسول « لا تكتبوا عنى شيئا إلا القرآن » وقوله « إنما أنا بشر ، إنَّ الظن يخطئ ويُصيب » وأمثالها و بين الألفاظ المضطربة التى يتفوه بها بعض المتعصبين من العلماء . وخلاصة القول أنَّ من الأصوب لمن يريد قلب الأمور الدنيوية ببعض التفسيرات والتأويلات إلى أمور معنوية ، ألاَّ يُصِرّ على تشويش الأذهان بتصوير الأمور الأخروية فى أشكال مادية دنيوية .

ثم إن تشويق بعض علمائنا أهل الإسلام للتجرد من عالم الحضارة ، والاستغناء عنه ، اقتفاء لبعض الأقوال والتفسيرات الضعيفة ، واتباعا لما حُرِّم دينا من العُجب والغرور ، قد استوجب أضرارا مادية ومعنوية فى العصر الأخير . إذ استلزمت هذه العزلة المبنية على الغُرور حرماننا الرقى العصرى ونُفرة عالم المدنية منا ، وما مُنينا به من الانحطاط . على حين أن الآيتين : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، و « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يُخرجوكم من دياركم

أن تبرّوهم و تُقْسِطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » حافزتان على الاختلاط ضمنا وصراحة . كما أن الحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » وحسن معاملات الرسول مع النجاشى والمقوقس ، وأعماله الحكيمة ومناقبه ، والعلاقات السياسية التى قام بها هرون الرشيد والمأمون من متقدّمى خلفاء المسلمين ، مع الملوك المعاصرين لهما من النصارى والمجوس ، تخالف ما اتخذه العلماء المتأخّرون من مَسْلك التعظم والعزلة .
ولو أن العداوة التى تعادينا بها النصرانية بتعصب ليست مما يمكن إخفاؤه ، إلا أننا ينبغى أن نقول بحق الإنصاف : إنه لا يمكن إنكار أننا بأعمالنا السيئة نثير هذه الخصومة ، وندعوها إلينا ، ثم نكبّرها فى مخيلاتنا أكثر مما ينبغى . فثَمة وقائع تاريخية كثيرة مؤيدة لقولى هذا . فاتفاق فرنسوا الأول ملك فرنسا ، وشارل الثانى ملك السويد ، وفريدريك الأكبر ملك بروسيا ، ونابُليون الأول ، ودول أوربا المختلفة مع الدولة العثمانية ، على أبناء جنسها فى حرب القِرم ، ورغبتهم فى الدفاع عنها ، وبخاصة اتفاق الإنجليز مع اليابان فى مُسْتَهل هذا القرن ، يدل على أن هذا التعصب ليس شديدا كما يُظن .

إنا نشاهد شعوبا مشتتة ، وحكومات غير نصرانية ، قد استولت عليها الدول المتمدينة استيلاء فعليا ، وأدخلتها تحت حمايتها السياسية أو الاقتصادية أو كلتيهما معا ، بيد أن حمل هذه الحال على تفوق الدول المتمدينة فى الحضارة والحرب والاقتصاد تفوقا غير متناسب مع تلك الشعوب الضعيفة ، وطمعها فى الاستفادة من ثمرة مساعيها وخيرات بلدانها ، أصح من حملها على التعصب الدينى . كانت اليابان قبل نحو نصف قرن مغلولة بأغلال الامتيازات الاقتصادية كالصين ؛ حتى إذا ارتفع مستواها المدنى والصناعى ، ولا سيما صناعة الحديد ، عدّتها الدول المتمدينة معادلة لها ، وأبدت رغبتها فى عقد معاهدات معها .

وكان من واجبات علمائنا بذل أقصى مجهود وهِمّة فى المحافظة على الأسس الاعتقادية والمعنوية ، والأخلاق الإسلامية ، بل حتى إظهار البطش والتجلد

والعنف حين الضرورة ، وليس لأحد اعتراض فى هـذا ؛ بيد أن التعلق بالزىّ والعادات الموروثة من الأكاسرة والقياصرة إلى هذا الحد من التعصب ، واعتبار معنى سام كالدين مربوطا بزر طربوش مثلا[٧٢] ، مع إبقاء المسلمين فى جهالة وعزلة عن القسم الأعظم من العالم ، و إيجاد مخاطر ومخاوف لجماعتنا ، جدير بالنقد والمؤاخذة .

واهتمام علمائنا الكثير بالجسمانية وهيئة البشر فى الأمور المعنوية ، يستدعى الشّبُهات والاعتراضات[٧٣] ، فلو توقفنا فى كثير من العقائد عند دائرة النفسيات ، لما وقع التعارض والتناقض فى كل خطوة . إنى لا أعرف كثيرا عن قوة الأدلة النقلية المسرودة للتمسك الشديد بالجسمانية المادية . ويجوز أن يورد عدم إمكان ظهور الروح دون تعلق بجسم كما فى الضوء . ولكن ما الضرورة لأن يكون هذا الجسم كثيفا وماديا ؟ وما دام يُعترف بوجود أجسام لطيفة ، فلِمَ يُنكَر تعلق الروح بجسم كتلك فى عالم الآخرة واللاهوت[٧٤] . وعلى كل حال ليست هوية المرء — لو جاز التعبير — وأنيّته هو جسمه المادى المتغير فى كل لحظة[٧٥] .

إن التأثيرات الواقعة على أعضاء البشر ، تصل بواسطة الأعصاب إلى حجيرات الدماغ ، فيحسُّها حسا فجائيا ، فتحدث الملاحظة والبتّ . فمن يفعل هذا ومن يُحس به ؟ ثم إن الأعضاء والأعصاب والدماغ تظل على ما هى عليه عقب الموت الفجائى ، ومع ذلك لا تبقى لها قابلية لأى نوع من التأثر والتأثير والإحساس والشعور . فالهوية اللطيفة التى تحس باللذة والألم ، وتبت فى الأفعال ، وتدفع الأعصاب إلى الحركة والتنفيذ ، وتنظِّم الدورة الدموية ، والفعالية الحيوية ، والتى تنقطع عن التدبير والتصرف عقب الوفاة مباشرة ، يقتضى أن تكون سرا من أسرار اللاهوت ، وأمرا إلهيا[٧٦] .

فحقيقة هذه الكيفية لم تُفهم فهما يقينيا ، ولن تفهم . و بيانات الحكماء المتقدمين وفروضهم فى الروح ، من قبيل الأقوال المجردة . وليس فى هذا الباب دستور حكمة يطمئن العقل والوجدان أكثر من قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربى » .

ولما كان ارتباط العلماء بالمسائل الدنيوية الجسمانية ، واهتمامهم بها إلى درجة نسيان اللطائف الروحية ، فى المسائل اللاهوتية والأخروية ، يُسبِّب خدش الأذهان ، وزيادة الاضطراب ، وجب أن يصدر قرار فى هذا الشأن بإجماع العلماء.

ومن أسباب المسئولية ، غرور بعض علمائنا وتعصبهم الزائد ، وتهوّرهم فى أثناء المناقشات العلمية . فقد سمعت من كثيرين وشاهدت أحيانا أن بعض رجال العلم ، حين يعجزون عن الإجابة عن أسئلة بريئة موجهة إليهم ، لدفع الشك والشبهة ، وتحصيل اليقين ، يُنهُون الموضوع بالاستكبار ، والامتناع عن المناقشة ، مكفِّرين أصحاب السؤال . على حين تظهر كل يوم حقائق علمية بتطور العلوم ، إن رأيا رُوِّج سهوا منذ نيف وألف عام ، أى بعد وفاة الرسول بمئتين أو ثلاث مئة سنة ، كنقطة نظر معترَف بها ، يجوز تصحيحه فيما بعد . ولن يؤدى هذا إلى تنقيص مجد العلماء والمجتهدين السابقين . بيد أن التعنت فى المحافظة على الآراء العتيقة ، والدفاع عنها بـ « إنا وجدنا آباءنا » ، مضر ضررا بليغا . إننا مع إيماننا بكرامة الأولياء ، نعتقد بعدم وجود معصوم من الخطأ فى الإسلام .

أخذ السلف من علماء المسلمين العلوم المدونة فى عصرهم ، من الهند ومصر واليونان ، وتتبعوها ، ثم مزجوها بالحقائق القرآنية ، وأسسوا فلسفة إسلامية . لقد اكتسبوا ببذل مجهوداتهم الخالصة شكرا خالدا من أخلافهم . ولكن العلوم قد اتسعت منذ ذلك الوقت ، فتبدلت موضوعاتها وتنوعت . فمن الطبيعى تغير بعض نظريات مبنية على معلومات ذلك الوقت العلمية . فإسناد قوة قدسية لكل صاحب تأليف ، ورفعه إلى درجة العصمة من الخطأ ، يكون قيدا للتقدم[٧٧] .

ومن أجل ما استمر من انتشار أغلاط الاجتهاد والمعتقدات الباطلة ، لم يكد يتم قليل من الاستئناس فى بلادنا بمقدمات العلوم ، حتى استقر الكفر والإنكار والإلحاد فى الأذهان .

إن البابوية التى أرادت فيما مضى إحراق غاليلى بالنار حيا ، لقوله بدوران

الأرض ، حين أدركت عجزها عن مقاومة سيل الترقيات الهائلة ، طاوعت التيار ، فأنشأت مَرْصدا بقصر الفاتكان ، ولم يمض زمن وجيز حتى ظهر بين الرهبان رجال من أمثال « برهاجن » و « الأب مورو » اللذين وضعا نظريات حول خلقة العالم . فقدرة عالم النصرانية على مزج النظريات الغريبة المزعجة كعقيدة التثليث ، وقضية الثمرة الممنوعة ، والقربان المقدس ، إنما كانت بهذا التسامح .

وأما الدين المحمدى ، مع أنه خال من عقائد وتكاليف مغايرة للعقل والحكمة ، وفيه من الرفق والتسامح الكريمين مصداق قوله : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » ، فإن ما أظهره علماء المسلمين من العنف والخشونة والعصبية سبب ضلال كثير من الناس . فبالرغم من دلالة الأحاديث الشريفة على حرية الرأى والضمير ، كقوله « استفت نفسك و إن أفتاك المُفْتون » ونحو « استفت قلبك و إن أفتوك » ونحو « ما أنكر قلبك فدعه » ، فإن حَمْل الإصْر الذى رزحت الأمة المحمدية تحته منذ عصور ، يدعو إلى التعجب والأسف . إن بذل ما يُستطاع من مجهود للدفاع عن العقائد الدينية ، والأخلاق الإسلامية ، والمحافظة عليها ، حق طبيعى لعلماء الدين . ولكن لا ينبغى البلوغ بهذا الحق درجة لعن الناس وتكفيرهم لأتفه الأمور ! فمثل تلك المعاملات هيأت فرصة لأحداث اليوم وانقلاباته . فلِم لم يتبع علماؤنا أحكام الأحاديث كقوله : « عليك بالرفق ، و إياك والعنف والفحش » ، و « علِّموا و يسروا ولا تعسِّروا ، و بشِّروا ولا تنفِّروا ، و إذا غضب أحدكم فليسكت » وغيرها من الأحاديث ؟ ولِمَ لم يقتدوا بالسِّير والمناقب النبوية ؟ ولم لم يتمثلوا الحلم والرفق والصبر الذى أظهره الرسول فى إرشاد الأعراب والمعارضين والدهريين ؟

وموجز الكلام أنه إذا كان مَنْ ترك دينه ، ودفع إخوانه فى الدين إلى الإلحاد والكفر ، آثما مجرما ظالما ، فإن مسئولية من حرّف أسس الدين ، وشوّه المسائل الاعتقادية ، وشوش الأذهان ، بادخال خرافات وأساطير باطلة فى المعتقدات الدينية ، من أصحاب العمائم ورؤساء الدين السامحين بهذا ، بقدر مسئولية أولئك سواء بسواء .

كانت صيانة الدين والعقائد من التغالى فى الأخطاء ، أقدم واجبات الخلافة والمشيخة الإسلامية والهيئة العلمية . بيد أنى مضطر للاعتراف وقلبى يحترق من حزن ؟ أن مشيختنا وخلافتنا لم تبذلا جزءا مما بذلت البابوية وسائر الهيئات النصرانية — فى العصر الأخير خاصة — من مساع مبنية على الوقوف التام والعقل والتضحية ، فى نشر العيسوية وتعميمها وتحكيمها ، مستندة إلى نظم مؤسسة خير تأسيس . وربما تكون الخلافة والمشيخة قد عملتا على اتجاه معاكس ، جهلا منهما . [انتهى الاستطراد]

الاعتراضات الموجهة على القرآن :

أشد تعريضات خصوم المسلمين ، موجَّه إلى عقيدة المسلمين بقدم القرآن . وهذا التعريض غلطة نجمت عن جهل حقيقة المسألة ، وعن اعتبار المجادلات الكلامية صورية ولفظية ليس غير . إن كثيرا من الكتب التى ألّفها الغربيون عن المسلمين تبين بكثير من التهكم أن المسلمين تسودهم عقيدة أن القرآن كان مع الخالق منذ الأزل ، فى صورة رسالة محفوظة ، حتى إذا بُعِث محمد أنزل عليه آيات متفرقة .

ومسألة خلق القرآن التى ابتدعتها الجهمية وأيَّدتها المعتزلة ، وقلبها المأمون والمعتصم من الخلفاء العباسيين إلى فجيعة ، قد قيل فيها وكُتِب أمور كثيرة غير مجدية ، وغيرذات معنى ، بيد أن القرآن كلام نفسى عند متكلمى أهل السنة ، أى أنه قديم روحاومعنى . والألفاظ المركب منها الكلام تحوى معانى ومدلولات من محسوسات ومعقولات . فحقيقة الكلام ليست ألفاظا ، بل هى المعانى والمدلولات . وقد أطلق أهل السنة على معانى هذه الألفاظ ومدلولاتها كلاما نفسيا ، وأقروا بقدم هذا الكلام النفسى فى القرآن الكريم . وكما أن وحدة الله وسرمديته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته ومشيئته و إرادته قائمة بنفسه ، فلا يسع عاقلا أن ينكر قدم مايتضمنه كتاب مبلِّغ حقائق و إرادات إلهية .

بيد أن الجهمية أصلا والمعتزلة تبعا لها ، أنكرت صفات الله الثبوتية ، وردت الكلام النفسى ، وقالت بعدم الكلام سوى المركب من الأصوات والحروف ، فحدثت بذلك بدون مناسبة مسألة خلق القرآن وحدوثه . أما أهل السنة الذين أدركوا مقاصد مضمرة من ورا هذه السفسطات الفارغة ، فردوا هذه الدعوى ، وقاوموا فى اجتهادهم ببذل النفس ، اضطهادات المأمون والمعتصم الظالمة ، وثبتوا فى امتناعهم عن المجادلة فى كلام الله . ومن هذا نجمت أساطير خصوم الإسلام ، فى مسألة قِدم القرآن التى ذكرتها آنفا .

ليست دعوى الجهمية والمعتزلة إلا سفسطة . فإن ألفاظ الكلام ماهى إلا شكل وواسطة للتفاهم بين البشر ، ودليل لمزاولة الآراء ، تتبدل عند كل قوم وفى كل مكان . فمدلول لفظة « الماء » مثلا واحد فى جميع اللغات والأماكن ، ولكن يندر من يفهم هذا اللفظ فى مدينة بكين . فلو صاح رجل من الصباح إلى المساء « الماء ، الماء » فلن يجد ما يروى ظمأه ، على حين أنه يقدر على تفهيم مرامه بالإشارات والرموز . فحقيقة الكلام ليس شكله الظاهرى بل معناه . لأن اللفظ متغير ، وفى المعنى حقيقة ثابتة غيبية . وهذه الحقيقة المكنونة منقوشة على النفس والروح والفكر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جُعِل اللسان على الفؤاد دليلا

إذن فدعوى أن القرآن مخلوق ، المبنية على إنكار الكلام النفسى ، سفسطة خالصة .

ونظرا إلى عقيدة أهل السنة ، الله متكلم ، وصفة الكلام ثبوتية ، فهى قديمة ، بيد أنه يتكلم بلا حروف وألفاظ وأصوات . أى أن كلمات الله معان ومضامين وحقائق ، فالقرآن قديم بهذا الاعتبار .

وبين الطاعنين فى القرآن الكريم من يحاولون تنزيل قيمته ، بأنه لا يحوى أمورا جديدة ، إذ أنه يصدق الأديان المتقدمة ، والصحف والكتب المقدسة .

وكيفية التصديق هذه ، أحد أدلة صحة القرآن وعظمته . فكل كتاب مقدس وكل دين إلهى ، إنما نزل لتلقين حقائق ثابتة غيرمتبدلة ، إذن فكلها حق . ولكن أكثر الصحف والكتب المقدسة ضاع أو حُرِّف لطول الأمد . والقرآن يبين تصحيح هذا التحريف . فهل ثمة حقيقة أعظم من هذه ؟

ومن الاعتراضات الواهية كذلك كون سور القرآن باحثة فى مواضيع مختلفة ، وتكرار الآيات . فهل كان المعارضون يرغبون فى أن يروا السور القرآنية على صورة لوائح إصلاحية ؟! ومعلوم أن القرآن نزل آية آية ، ثم جمعها كُتَّاب الوحى بإشارة من الرسول فى سور ، على حسب مناسباتها . والواقع أن المواضيع متنوعة فى بعض السور ، بيد أن وجود علاقة ورابطة منطقية بين الآيات متفق عليه ، أما التكرار فتسميته بالتأكيد أصح من تسميته بالتكرار . وأما أنا فأعتقد أن تعليم وحدة الله وعظمته ، وعلمه وحكمته ، ورحمته وقدرته ، وترغيب الناس فى المعالى ، وتحذيرهم المناهى ، خليق بكل أنواع التكرار والتأييد ، وهؤلاء المعارضون أنفسهم يصدقون احتواء عبارات القرآن على فصاحة و بلاغة معجزتين ، إذن فهلا كان يقدر الرجل الذى أنشأ هذه الآيات العسيرة التقليد ، على تجنب التكرار ، وهو إحدى قواعد البلاغة البسيطة ؟ وهذه الملاحظة أيضا تثبت أن القرآن لم يصدر من بين شفتى محمد باختياره ، و إنما صدر بإيحاء غيبى .

ليس فى إمكان كتاب بعيد عن القيود والقواعد الموضوعة ، أن يجتذب ويَفْتِن ببلاغته الأصدقاء والأعداء ، ويجعلهم حيارى مبهوتين ، إلا إذا كان كتابا سماويا فوق طاقة البشر .

وللمنكرين اعتراضات أخرى على السور والآيات القرآنية . وهى موجهة خاصة إلى القصص الواردة فى عبارات موجزة معجزة ، عبرةً للإنسان و بصيرة . ومن المعلوم أن الآيات كانت تنزل غالبا بحسب المناسبات . وكذلك هذه القصص تكررت لحكمة التذكير والإنذار ، استدلالا بالوقائع التى كانت معروفة لديهم ،

والتى قد أُخذت من التوراة ، وردًّا على التلقينات الضارة التى قام بها يهود جزيرة العرب فى أزمان مختلفة . فلذا يجب التنبُّه إلى الغاية المقصودة بالتكرار ، أكثرَ من العناية بالبحث والتحقيق فى تكرار الوقائع التى قُصّت رمزا فى السُّوَر والآيات القرآنية (٧٨) .

ثم إن بعض المفسرين حين يفسرون آيات التذكير ، يأتون ببعض ما ذُكِر فى التوراة عن خلقة العالم من معتقدات الكلدانيين ، وهى أهم أدلة الحكماء المنكرين للأديان المنزلة . كانت التوراة الحقيقية قد ضاعت فى أثناء استيلاء بُختنصّر على القدس . والكتاب المؤلَّف باسم التوراة بعد جلاء بابل ، محتمل جدا أن يكون مؤلفا على العقيدة الكلدانية . بيد أن التفاسير التى لا تتفق مع نص القرآن ، لا يصح عدُّها من العقائد الإسلامية .

ثم إن من أهداف الاعتراضات ، بعض كلمات القرآن التى لا يمكن تفسيرها بحق . بيد أن تكشُّف معانيها يجب انتظاره بصبر . فمثلا لم يكن من المستطاع تفسير « والشمسُ تجرى لمستقر لها » و « كلٌّ فى فلك يسبحون » تفسيرا حقا حين كان فلك بطلميوس يُظَن فى نظر العلماء حقيقة . فقد ظهرت الآن معانيها حقيقةً ساطعة ، ومعجزة قاطعة .

وينبغى ألاّ يَعزُب عن النظر فى هذا المبحث ، أن مدلولات بعض الكلمات والتراكيب ، لا تزال غيرمعلومة ، وغير ثابتة ثبوتا قاطعا حتى اليوم . فما المقصد من سماء الدنيا ؟ أهى الكرة النسيمية (٧٩) ؟ أم هى شبه كرة متصوَّرة الحدوث من مدار الأرض حول محورها ؟ أم المجموعة الشمسية التى تدخلها الأرض كذلك ؟ أم المَجَرّة التى تنتمى إليها الشمس أيضا ؟ أم المجرّات المختلفة التى لا ريب فى حسبانها من السموات السبع ؟ ما الفرق بين الأفلاك والسموات ، وبين المصباح والنجم والكواكب ؟ وما مقدار زمن يوم الخلقة ؟ لقد استعمِلَت كلمة « يوم » مصطلحا لعهد تاريخى ؛ فتركيب « أيام العرب » يدور فى الألسن على هذا المعنى .

فإذا فُكِّر علميا فمعنى اليوم دور بالقياس على الأرض . لقد ثبّت اليوم بآلة التصوير خمسمائة مليون من الثوابت على صفحة السماء . ويُقدَّر عدد نجوم المجرّة بمليار وخمسمائة مليون نجم . ومُدد أدوارها وأيامها مختلفة . فليس ثمة سبب لقياس مقدار ملك الخليقة بمقياس الأرض ومساحتها . فيوم الخلقة على هذا أهو دور من أدوار المجرّات التى تدور مليارات السنين ؟ أم لحظة غير منقسمة لدورة ذرة من ذرات إيدروجين الكهربية حول البروتون ؟ ولا فرق بين هذين الزمنين بالنسبة إلى الأبدية . أما قياس أيام الخلقة بأيام أسبوعنا ، وترك أحدِها لاستراحة الخلق ، — حاشا لله — فمضحك ، وقد يبلغ درجة الكفر فى الدين المحمدى ، قال تعالى « وما مسّنا من لُغوب » و « ولا تأخذه سِنةٌ ولا نوم » ، وهكذا لا يفهم معنى كثير من الآيات الكريمة دون تعيّن مثل هذه المدلولات . فعلى أرباب العقل والإنصاف المؤمنين بالله أن يؤمنوا بأحكام الآيات المحكمات ويتّبعوها امتثالا لقوله المنيف : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنّ أمّ الكتاب ، وأخرُ متشابهات » وينتظروا صابرين ما لم يمكن تفسيره إلى الآن من المتشابهات ، حتى يفسرَها بإذن الله العلماء الراسخون ، أو تنوِّرها الاكتشافات الجديدة ، مصداقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتِنا فى الآفاق وفى أنفسِهم » .

قياسا[٨٠] على ظهور الحقائق الفرقانية مع الترقيات العلمية الأخيرة ، واعتراف عالم المدنية ببعض الأحكام الإسلامية ، يُحكم بأن حقائق هذه الآيات سوف تتكشّف واحدة واحدة مع مرور الزمان ، ويتجدد إعجاز القرآن مستمرا مادامت القرون « كلّ يوم هو فى شأن[٨١] » .

آراء علماء الغرب فى القرآن :

أنقل هنا مقتطفات من أقوال علماء الغرب الواردة فى كتاب « ماهو القرآن » ؟ لعمر رضا بك ، ملاحظا أن تأييد الدفاع عن القرآن بأقوال حكماء سائر الأديان ، يكون أشد تأثيرا فى إقناع المعارضين وإفحامهم :

قال إدوار جيبون من مشاهير مؤرخى الإنجليز : « إن موحِّدا ذا دماغ مفكِّر لن يتردد فى الاعتراف بنقط نظر الإسلام . فقد يكون الإسلام دينا أعلى من تطورنا الفكرى اليوم » .

قال المستشرق كارلايل وهو من أساتذة جامعة كمبريج : « إن علوية القرآن فى حقيقته العالمية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص . والدعوةُ التى بلَّغها محمد إلى العالم ، حقٌّ وحقيقة » .

من ستنفاس مؤلف قاموس عربى إنجليزى : « القرآن واحد من أهم الكتب التى انتقلت إلى الناس ليفيدوا منها . فهو سِجل جامع لأسس الأخلاق والعقائد الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية فى حياتهم » .

أماديود أو كهارت وهو مؤلف كتاب عنوانه « روح الشرق » فيقول : « الإسلام يقدِّم براءة النجاة للتابعين ، وسِجلّ أخلاق للمتبوعين ، ويؤيدهما بالدين » .

من محاضرة عن الإسلام ألقاها مانويل كنج ، من أفاضل علماء الإنجليز ، سنة ١٩١٥ فى كنيسة البرسپتان ، قال : « إذا كان فى عالم الإلهام أمر يُدعى وحيا ، وكان للوحى وجود كامل ، فلن يُشك فى أن القرآن كتاب منزل » .

من عدد ١٣ أبريل سنة ١٩٢٢ لجريدة نيرإيست : « القرآن كتاب معجز ، وخليق بالإعجاب من حيث التنزيل والترتيب . مع أن لسان القرآن مخالف للساننا ، وآراءه تخالف آراءنا ، فإن إنكار قدره وقيمته ، وفضله وجماله من جهات كثيرة يكون حرمانا من العقل والمنطق » .

قال سديو المستشرق فى كتابه تاريخ بلاد العرب : « القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة . فالفضيلة والرذيلة ، والخير ، والشر ، وماهية الأشياء الحقيقية ، كلها مبينة فى القرآن . فقد أوحيت آياته إلى محمد (صلعم) . بحسب احتياجات الزمان ، وحوادث العهد » .

من كتاب حياة محمد للفيلسوف الفرنسى آلكسى لوازون « خلَّف محمد للعالم

كتابا هو آية البلاغة ، وسجل الأخلاق ، وكتاب مقدس . وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة ، مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية . فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ، مع ما نبذله من المساعى للتأليف بين النصرانية و بين القوانين الطبيعية » .

قال الكاتب الأمريكى واشنفطن إيروينج : « يحوى القرآن أسمى الآراء وأفيدها وأكثرها إخلاصا » .

وعن المستشرق والفيلسوف الألمانى يوحان ، يعقوب رايس (توفى سنة ١٧٧٤) : « ما إن يتعلم بعض الناس قليلا من اللغة العربية حتى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن . ولواستمعوا إلى قدرة القرآن المثيرة ، الفصيحة المؤثرة ، وأحسوا باللسان المحيِّر للألباب ، الذى استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه ، لوقعوا فى الحضرة الإلهية ساجدين صائحين يارسول الله ، أغثنا ولا تحرمنا من شرف الدخول فى أمتك ! » .

تلكم نماذج من آراء علماء الغرب المدققين المحايدين فى القرآن .

ليس الإسلام مانعا للرقى :

ومن الطعون الموجهة إلى الدين المحمدى ، أنه مانع للرقى والتقدم . ومثل هذا الطعن جدٌّ غريب ، لوجود أوامر إلهية ، وسنن نبوية ، مرغبة فى السعى والجهاد ، مانعة من العطل والكسل ، وحاثّة على تحصيل العلم ، واكتساب الثروة المشروعة ، ومؤثرة للأغنياء الشاكرين ، على الفقراء الصابرين ، كقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، وقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقوله « ولا تنس نصيبَك من الدنيا » ؛ وكقوله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالّة المؤمن أخذها حيث وجدها » ، وقوله « اطلبوا العلم ولو بالصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وقوله « العلم للعامة ، والعبادة للرجل

وحده » . وقوله « واحرث لدنياك كأنك تعيش أبدا » ، وغيرها .

يريد المعارضون اتخاذ بعض الزوايا والتكايا أمثلة للكسل . وإذا كان منها ما يدفع إلى الكسل كما يقولون ، فإن حالتها هذه إنما نشأت من طروء الفساد على نظامها القديم بمرور الزمن ، ومن إهمال الخلافة والدوائر الخاصة بها وظيفةَ التفتيش والمراقبة . لقد كانت حكمة وضعها وإنشائها أن تكون دورا للخير ، وموئلا مؤقتا لأبناء السبيل ، ودورا للإرشاد الدينى . ليس الإسلام يمنع العطل والبطالة حسب ، بل يأمر الأمة بالوقاية من الفقر أيضا . فقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا » و « أستعيذ بالله من الفقر والعَيْلة ، ومن أن تظلِموا أو تُظلَموا » دليل واضح على ذلك . والواقع أن الإسلام ، كجميع الأديان ، يأمر بالتفكر فى الآخرة ، بيد أن هذا الأمر لا يعنى إهمالَ الدنيا ، بل يتبادر من النصوص القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية صراحة ، أن غايات الدين هى ضمان حسن المعاشرة ، وأمن الناس وسعادتهم ، وسطوة الأمة وقوتها : « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ، ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كَلاًّ على الناس » . صدق رسول الله .

أين الدليل الذى استخرجه المخالفون من القواعد والقوانين الإسلامية لإثبات دعواهم ؟ إن المساوئ الناجمةَ من عدم تطبيق قانون ، أو سوء تعديله فيما بعد ، لا يجوز حملها على القانون نفسه .

تأسيس الأسرة فى الإسلام :

النصوص والقوانين الإسلامية صريحة ثابتة فى أمور تأسيس الأسرة والوراثة ، والمحافظة على النسل والذرية ، وضمان العفة التى يترتب عليها حفظ النسل . وليس للمعترضين حق فى اعتراضاتهم على الإسلام ، لإباحته الطلاق وتعدد الزوجات ، زاعمين أنهما من موانع تأسيس أسرة سعيدة ؛ فالأصل فى الإسلام وحدة الزوجة ،

وتعدد الزوجات ليس مأمورا به ، بل أمر مأذون به ؛ ولا مساغ له إلا فى حالة الضرورة . لقد نشأ الدين المحمدى عند قوم لا يأبهون كثيرا لأمر الزواج ، وكان الزمان يوجب نقص الذكور عن الإناث ، بسبب الغارات والغزوات ، وقد دفع التفاوت العظيم بين الذكور والإناث أكابر العرب إلى وأد بناتهم ، وتقديمهن قربانا للآلهة غداة ولادتهن ، زاعمين أنهم يحفظون بذلك عِرض الأسرة وشرفها ، فجاءت الشريعة المحمدية ، وقيَّدت النكاح بقانون ، وحدَّد عدد الزوجات ، وعيَّن فى الوقت نفسه حدا متوسطا يمنع نقص الذكور ، ويحفظ عددا كبيرا من النساء من الفساد . ثم إن القواعد والشروط الشرعية الموضوعة فى شأن تعدد الزوجات ، لو روعيت رعاية حقا ، لكان وقوعه — ولو ممكنا — عسيرا ونادرا فى عصرنا هذا .

أما الطلاق فهو وسيلة محضة للخلاص ، إذا استعمل فى حدود قواعده الشرعية ، فليس من العدل فى شىء أن تحمَّل أمة برمتها حالة ضرورة ناشئة من عدم الألفة والامتزاج ، تقاسيها أسرة مدى الحياة من سوء العشرة ، أو قلة العفة . إن اعتراف عالم المدنية — بلا استثناء تقريبا — بالطلاق والعمل به بعد ثلاثة عشر قرنا ، يؤيد كون الشريعة الإسلامية حقا وحكمة . ومع ذلك فمما هو خليق بالذكر أن الإسلام و إن كان مسوِّغا للطلاق حين الضرورة ، إلا أنه يستقبحه ، حيث يقول الرسول : « أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق » . وهناك أحاديث تخبر بأن الطلاق يُحْزن حتى الملائكة . ما جاء دين كالإسلام ، ولا بُعث نبى كمحمد ، وضع أحكاما صريحة لحماية حقوق المرأة . وقواعد المسيحية فى الزواج وتحديده إنما وضعت فيما بعد . والإسلام كما أنه فى كثير من الآيات والأحاديث النبوية أمر بحقوق المرأة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى برعاية حقوق المرأة خاصة فى خطبته بحجة الوداع (٨٢) .

الاسلام لا يروج الرق :

لقد افترى الأوربيون على الإسلام ، بأنه مروِّج للرق والأسر ، حينما شرعوا في السعى لمنع الرق . على حين أن لمحمد أحاديث كثيرة مبينة ثواب عتق الرقيق ، ومن وصاياه فى خطبة حجة الوداع معاملة الرقيق فى طعامه وكسوته كمعاملة الأحرار . وكان يُعتق كل رقيق ينتقل إليه بسبب من الأسباب . وإذا رأى فى أحدهم أصالة فى الرأى والروية ، رفعه إلى أسمى المقامات الإدارية والعسكرية . ومن أولئك الأرقاء المعتقين زيدُ بن حارثة ، وسلمانُ الفارسى . بلغ مسامع حارثة وهو من علية قبيلة بنى كلب ، وجود ابنه زيد بمكة ، فحضر إليها ، لافتدائه بالمال المعتاد فى مثل هـذه الحال . ولـكن زيدا آثر قرب محمد وخدمته ، على عطف أبيه وشفقته . ولم يكن محمد قد أعلن رسالته بعد ؛ فإن نظريات الرسول فى شأن الأسر ومعاملته للأسرى كانت رحيمة أولا وآخرا . بيد أن عُرفا وعادة جارية فى كل العالم ، وأمراً معدودا من اللوازم الاجتماعية فى ذلك الزمن ، لم يكن فى الإمكان تغييرُه وهدمُه بالنص فى صورة حاسمة . فالمسيحية نفسها لم تقدر على إلغاء الرق ، حتى زمن قريب جدا . ومنذ ستين أو سبعين عاما شَبَّت فى هـذا الشأن حروب عظيمة بأمريكا ، كلَّفت إراقة دماء مئات الألوف من الناس .

ومع ذلك فقد فتح رسولنا طريقا إلى هذه الغاية الإنسانية ، بما أجرى من الوصايا ، وأبرز من أمثلة(٨٣) . وإذا كان بعض المتوحشين أحيوا عادة خطف الأرقاء والأسرى بعـد قرون عديدة منه ، فالمسئولية ليست واقعة على الدين الإسلامىّ ، ولا على محمد .

نظام الحكم فى الاسلام :

كان نظام الحـكم فى القرن الأول مقترنا بالحرية والمساواة والعدالة . ومن المشهور أن عليّا كان فى خصومة مع رجل يهودى ، فنادى القاضى عليًّا بكنيته

احتراما له ، والذمىّ باسمه ، فتأثر علىّ من ذلك . وعدَّه منافيا للمساواة .

كان الخليفة أى رئيس الحكومة ، يُنتخب من قِبل عظماء الأمة على قيد الحياة ، توفيقا لشروطها المعينة . والتشاور فى أمر الإدارة والحكم مفروض ومسنون فى الإسلام . وكانت القرارات المهمة التى تخص الجمهور ، تتخذ فى القرن الأول باستشارة أكابر الأمة . وكان إلغاء معاوية بن أبى سفيان هذا النظام خطأ كبيرا . فقد ضحى بنظام حكم تبحث عنه البشرية إلى اليوم بإراقة الدماء فلا تجده ، فى سبيل مطامع الأمويين فى الحكم والسيطرة . إن القلاقل والاضطرابات التى بدت فى الحكم منذ أواسط حكم عثمان — بدون علمه بالطبع — من التعامى إنكار كونها ذات وجهين ، أى أنها حدثت حسب خِطط نظمها الأمويون من جهة ، والمنافقون من جهة أخرى .

وأما تحميل الشريعة الغراء مسئولية المظالم والاضطرابات التى أحدثها الملوك من ذوى الأطماع فيما بعد ، فلا يتفق مع المنطق والإنصاف . فلنلاحظ العدل والمساواة اللذين سادا أيام خلافة الشيخين المكرَّمين . فأما عمر فقد حُكى أن عربيا سل سيفه مُهددا فى المسجد على الملأ بأنه يقومه به إن ظلم . فلما بلغ الخبر عمر دعا الله أن يكثر من أمثاله من أرباب الشجاعة والجلد . فليُنظر إلى هذا ، ثم إلى رفقه وشفقته لدرجة حمل طعام الأيتام والعجزة على ظهره ، وهو خليفة ، — كما وصفه الشاعر الحلو اللسان محمد عاكف — وعزمه وقدرته ورويته المحيرة للألباب . ثم يُطوَّل اللسان فى الشريعة المطهرة بالتشنيع ! .

والتعريض بأن مثل هذا الحكم وإن كان كافيا لأقوام بدائيين ، ليس بكاف لسد حاجات المدنية الحالية خطأ محض . فقد تكوَّنت فى خلافة عمر دولة إسلامية عظيمة فى الأمبراطورية الإيرانية ، التى كانت مؤلفة من شعب ذى مدنية قديمة ، والولايات الكائنة بسورية وأفريقية الشمالية للأمبراطورية الرومانية ، التى لا تزال قوانينها مقتدى بها فى أوربا . فقبول تلك الأمم البالغة أوج

المدنية فى زمانها ، الديانةَ الإسلامية بهذه السرعة والسهولة ، إنما كان بتأثير الشرع الشريف ، ومعدلة الحكومة المتمسكة به وحكمتها ، أكثر من تأثير سطوة السيف العربى . ومع ذلك فليس فى الشريعة الإسلامية ما يمنع من وضع قوانين ولوائح كفيلة للاحتياجات المدنية المتزايدة ، على شرط عدم الانحراف عن القوانين الأساسية حَسْب ، بل قد أوصى الشارع بذلك حيث قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مِئَة سنة من يجدد لها دينها » . وهذا إشارة إلى لزوم التجديد بحسب الحاجات العصرية ، وتصويب ، بل أمر بذلك .

مسألة الربا :

بيد أن بعض الأحكام الشرعية والمعاملات التى يجيزها المتأخرون ، باسم التأويل الشرعى ، أو الحيلة الشرعية ، فيها مساغ للكلام والمناقشة . فالمصارف (البنوك) المؤسسة على معاملة الإقراض والاستقراض بالربا ، وصناديقُ التوفير والتأمين وغيرها ، كلها من العوامل المهمة للمدنية الحاضرة . ولما كان الربا حراما شرعا فقد يُلْجَأُ إلى حيل شرعية لاستحلاله ، حتى إن القائمين على أموال الأيتام يحتالون للتخلص من حرمة الربا بأصول غريبة ، كنقل الأموال من يد إلى يد بالإيجاب والقبول . وفى رأيى أن مثل هذه الأفكار والأحكام الغريبة ، إنما هى لعب بالألفاظ(٨٤) . ولو بُحث المراد والغاية والأسباب الغائية التى فى النصوص والأوامر ، ونفذت الأحكام الفقهية بمقتضاها ، لما بقى محل لمعاملات وقرارات غريبة كالتى رأيناها . لا شك فى أن الأرباح الفاحشة ، لا سيما المركب منها ، كالذى ورد ذكره فى القرآن من الربا المركب ، الذى يبلغ أضعافا مضاعفة للدين ، يمكن أن يؤدى إلى غبن المدين ، وضياع كثير من الثروات . وهذه الحال مُضِرَّة بالمجتمع ، كما أنها مضرة بأصحابها(٨٥) . فالأوامر الدينية الرامية إلى تخليص الناس من المرابين المحتكرين الظالمين ، حكمة محضة . ولكن هذا يقتضى من جهة أخرى انتفاع

امرئ بإيجار ما له من عقار وأملاك وضياع ، وحرمان آخر من الانتفاع بما له من نقود . وفى إمكان الحكومات أن تضمن للمقرِض ربحاً تُدرُّهُ عليه المبالغ المستقرضة ، قياسا على الأجور وغيرها ، وتعيِّن مقدار هذا الربح ، وتعتبر الأرباح الزائدة عليه ربا ، وتمنعها . فبهذا يمكن منع إخفاء الذهب تحت التراب ، بعد أن استخرج منه ببذل مجهودات وأموال ضخمة ، و إنقاذُ الثروة القومية من الضياع بعدم الاستخدام . وأما عدم حل المسألة حلا معقولا ، والتوسل بمعاملات غريبة ، كالتى ذكرناها ، فيدعو بحق إلى الاعتراضات(٨٦) .

ومسألة الربا هذه ليست مسألة هَيِّنة ، بل هى أمر قد فتح منذ تديم بابا لمناقشات واختلافات متناسبة مع أهميته الاجتماعية . ولما كان مقصدى من ذكرها الإتيانُ بمثال مأخوذ من المسائل الاجتماعية المهمة ، الدائرة حول الغرائب التى دفعت إليها فكرة الحيلة الشرعية ، فإنى أتحاشى التعرض للمسألة الأصلية ، مكتفيا بهذا القدر .

لا يسلِّم المنكرون بفوائد الأديان فى شئون التهذيب الأخلاقى . قال ن . سيمون فى كتابه الذى ذكرته سابقا ، إن ما ألَّفه سقراط وأفلاطون وشيشرون من الكتب ، ليس أقلَّ من القواعد الأخلاقية التى وضعتها الأديان . وآتى ببعض أمثلة منها . وموضع السؤال هنا : تُرَى ، هلْ وضع هؤلاء الشخصيات ما وضعوا من القواعد الخلقية من تنقاء أنفسهم ، أو هى قواعد دينية عتيقة انتقلت فى أزمان مجهولة من الآباء إلى الأبناء ، و إلى الأحفاد ، ثم سقطت عن العمل رويدا رويدا ، و بقيت محفوظة فى الأذهان والأقوال ، حتى جمعوها فى كتب ؟ لا جرم أن سقراط وأفلاطون كانا موحِّدَين مؤمنين بالربوبية . وأما شيشرون فقد كان رجلا ، مع أنه ألَّف كتابا فى الأخلاق ، يتلذذ بمشاهدة مصارعة الأسرى المساكين بعضهم مع بعض ، أو مع بعض الحيوانات المفترسة ، وسماع أنَّاتهم وهم يحتضرون ، نتيجة لتلك المصارعة . أورد نابليون الثالث فى كتابه « مغامرات شيزار (قيصر) »

أن شيشرون ذكر فى رسائله أنه كان يتأثر بصياح الفيلة المجروحة فى أثناء مصارعتها فى الملاعب العظيمة ، التى أنشأها كراسيوس و پومپه وشيزار من عظماء روما ، ولكنه لم يذكر تأثره أو حزنه من أنين الأسرى ! فمن المستحيل المقارنة بين مدرس أخلاق كمثله و بين الأنبياء العظام !

يتصور بعضهم إمكان تقويم الخلق وتصفية النفس بقوة القانون . فلنترك عدم ثبوت هذه الدعوى بالحوادث والمشاهدات إلى جانب ، ولكن مما لا ريب فيه أن الحاجة ماسة لتربيـة النفوس للوقوف أمام بعض سيئات خفية ، ليس فى استطاعة القانون والشرطة النفوذ فيها — وهى سيئات تفسد الشباب والجهال فى البنية الاجتماعية .

و يبلغ ببعضهم الكرم لحد عدم استحسان الاتقاء عن المنهيات ، خشية عذاب يوم القيامة ولزوم ذلك بتحلى الناس بالأخلاق الفاضلة والوجدان . إنى أحيل إلى الرأى العام تقدير مبلغ تصديق أعمال أغلب هؤلاء لأقوالهم . والحق أن عظماء من الواقفين على أسرار « لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » قد حصروا أفكارهم وأعمالهم فى الله بلا خشية عذاب الآخرة ، ولا أمل الجزاء ، أو فَنُوا فى الله بتعبيره الدينى . بيد أن أولى درج هذا الطريق ، التصديقُ بالله والإيمان بالدين .

خُلِق الإنسان مجبولا على الحصول على قوته من محيطه . فلو لم تُلطف هذه الجِبِلّة وهذه الضرورة ببعض معتقدات ومعنويات ، لزادت الخشونة والقسوة زيادة متصلة ، وفسد نظام العالم .

إن معظم الحكماء والرؤساء ، عدا الأنبياء العظام ، من واضعى القوانين المهذِّبة للأخلاق ، كانوا يؤمنون بما فوق الطبيعة ، أى يقرون بقوى وأحوال غيبية . أما نظريات من لا يؤمنون بها وفلسفتُهم فتوصى دائما بالأنانية والغرور . فقد فُسِّرت نظريةُ تنازع البقاء ، و بقاء الأصلح تفسيرا أنانيا ، وثُبِّتت فى صورة « الحكمُ لمن غلب » .

بناء على ما ورد من النظريات فى كتب نيتشه ، التى قلبت عقل شبابنا رأسا على عقب ، ينبغى للإنسان أن يحصل على منافعه بقوة عزمه ، ضاربا بالقِيَم الخلقية عرض الحائط ، وأن يعيش لنفسه دون تفكير فى غيره ، وأن يكون أثِراً متجردا من الإحساسات والشعور الرقيق الخاص بالضعاف ، ويستخدم الضعاف فى آماله الخاصة ، وأن يقهر كلَّ أحد وكلَّ مانع يحول بينه وبين تلك الآمال . وبهذا يكون المرء إنسانا عاليا [٨٧] (Ueber. mensch-Superhomme)

إن هذه الفلسفةَ التى حلَّت بالجيل الجديد بألمانيا ، والتى يحتمل أن تكون هى الدافع بذلك الشعب العظيم ، وتلك الدولة العظمى إلى المصائب والهلاك ، قد بدتْ تأثيراتُها كلُّها فى أفعال شبابنا أيضا . ونظرية كتلك ، برغم جميع وعودها ، ترويج لنصر غرور الأقلية وأثرتها على الأكثرية . فى حين أن البشرية عصت على هذه الحال دائما ، ومن أجلها كان معظم الثورات والاضطرابات التى بدت فيها . فهى ليست فلسفة ، وإنما هى تصوير غريزة مرتكزة فى الفطرة البشرية بلسان الفلسفة . وقد جاءت القوانين الوضعية والمنزلة كلُّها لمنع المساوئ والتخريبات ، التى يمكن أن تنبعث من شدة تجلِّى تلك الغريزة . إن هذه النظرية المحركة للطمع والحرص ، والزائدة فيهما ، ينفرد بها بضعة أشخاص ، ويبتلع بعض الماليين ثروات العالمَ كله ، ليستأثروا بكثيرين من الناس ، ويستخدموهم ألعوبة فى سبيل ملاذهم وشهواتهم . ولكن الحسد والانفعال اللذين ينجُمان عن هذه النظرية ، يدفعان إلى ظهور الشيوعية أيضا ، فتصير الدنيا حينئذ فى اضطراب وقلق . فالوقوف أمام مثل تلك المصائب ، وانقاذُ البشرية من الانحطاط ، إنما يكون بوضع حد ، وإقامة سد أمام تلك النظريات ، بقوة دينية تلقى الرقة فى قلوب البشر .

إن العهد الأخير الذى أيقظت فيه الحربُ العالميةُ (الأولى) كثيرا من انفعالات وأغراض وأطماع من جهة ، واكتشفت التطوراتُ العلميةُ وسائل تخريبية ، يمكن بها تخريب مملكة ، وإهلاك أمة برُمّتِها فى لحظة واحدة ، من جهة أخرى ، ففى

إمكان نظرية أخلاقية كالتى ذكرناها ، أن تدفع البشرية إلى الانقراض والهلاك.
ولذا فالبشرية فى عصرنا هذا أحوجُ إلى الإيمان بالآخرة ، والتقوى من العقاب المعنوى ، منها فى الزمن القـديم . فيجب على النشأ الجديد أن يتحلّى بالعقائد الدينية ، والقواعد الأخلاقية المتعارفة من القديم ، وأن يفتح صـدره رحبا لإحساسات الرقة والرحمة ، وإلاّ فالعاقبة وخيمة . ولا ينبغى أن يظن أن القوى يقهَر الضعيفَ ، والعالِمَ يقهَر الجاهل ، فتتم الموازنة بتحكُّمُ الغالب وسعادتهِ ، وتنحلُّ المشكلة . وإذا لم يلطف الهياج العصبى الناشئُ من المنازعات برقة دينية ، استلزمت هذه المنازعات زيادة الخصومات والانفعالات زيادة مستمرة ، حتى تنقلب المدنيةُ إلى البداوة ، والبشريةُ إلى البهيمية .

وهذه الحقيقة أُدركت فى عالمَ المدنية ، وأخذ الناس يسلّمون بضرورة دين مستند إلى التصديق بالله والتوحيد . ولـكن هيهات ! فى أثناء ذلك يظهر الإلحاد فى بلاد التوحيد ، « سبحانك يامحوِّلَ الأحوال » .

القرآن لا يروج الحرب :

ومن أهم الاعتراضات والمفتريات الواهية على القرآن ، قولهم بأنه روج الحرب والضرب ، ونشر مبادئه وعَمَّمها بقوة السلاح ، هذا فى حينَ ظل المسلمون ثلاثة عشر عاما من الثـلاثة والعشرين عاما التى ثابر فيها محمد على نشر دعوته بمكة ، غيرَ قادرين على دفع الأذى عن أنفسهم . وأما الغزوات التى وقعت بعد الهجرة ، فبعضها دفاعية محضة (كغزوتى أحد والخندق) وبعضُها دفاعية هجومية (كغزوات بدر وخيبر وحُنَين) . وأما فتح مكة فتسميتُه بالعفو والصلح ، أولى من تسميته بالحرب .
وأما من جهة انتشار الإسلام فى جزيرة العرب ، فكانت رغبةُ محمد فى فتح مكة ، وهى أقدس مدينـة بتلك الجزيرة ، ومسقط رأسه ، وموطن أسرته منذ ألوف السنين ، رغبة طبيعية جدا . ومع ذلك لم يحدث فيه قتال . بل بالعكس من

ذلك ، لم يكد محمد يدخل مكة حتى أعلن العفو عن كل من أهدر دمَه ، لما لحقه منه من أذى أو إهانة للإسلام إذا أسلم ، وفيهم من قتل عمّه ، ولاك فلذة من كبده ، ومنهم من شجَّ رأسَه ، اعتدى عليه بالضرب ، و بسط جناحَ الرحمة عليهم جميعا . ويمكن أن يقال إن محمدا ما اكتفى بتنفيذ ما تضمنت شريعة عيسى مراسم العفو والرحمة قولاً ، وَ إنما أيدَّها وطبقها فعلا .

كانت المعاملة التى عوملت بها قبيلة بنى قريظة اليهودية شديدة قاسية ، بيد أن هذه القبيلة التى سببت بتلوُّنها ونفاقها مشاكل ومشاق كثيرة للمسلمين ، نَصَبت بعد قتال الأحزاب ، سعدَ بن معاذ الأنصارى حَكَما ، ليصدر حكمه فيهم ، فأصدر عليهم حكما حسب أوامر التوراة ، ونفذ(٨٨) . أما القبائل اليهودية التى دخلت فى حماية محمد بلا واسطة ، فعاملها بالرفق والشفقة دائما .

أما الحروب الشمالية التى بدأت فى أخريات حياة محمد ، واستمرت فى عهد الشيخين ، فقد نشأت من إهانة وقتل رجال البعثة السلمية ، التى بعثها الرسول إلى كسرى إيران ، وأمراء الغسانيين ، الذين هم عرب جنسا ، ونصارى دينا ، ورومانيون حكما . ثم تكررت هذه الحروب فيما بعد لقيام الغساسنة والمناذرة (وكان هؤلاء من أتباع الفرس) بحركات غير مرضية ، على حدود سورية والعراق ، واشتدت حتى جرَّت إلى حروب فتوح معلومة .

وحروب الاستيلاء والاستعلاء التى وقعت بعد وفاة النبى ، فى عهد الشيخين لم تنشأ من التعاليم الدينية . إنها و إن جاز عدها نتيجة القوة والسلطان الذى زوّد به الدينُ العربَ ، إلا أنها تولدت فى أصلها من أسباب سياسية . ومع ذلك فقد كانت تلك الأحداث نتائج مقدرة لذلك العصر ، وذلك المحيط وتلك الأقوام . إن قدرة شرذمة مقاتلى العرب على هزّ دولتى الفرس والرومان ، العظيمتين المتمدينتين باضمحلال إحداهما ، وانقراض الأخرى انقراضا تاما ، لهو برهان ساطع على صدق الديانة الإسلامية وحقيتها . و إن لم يُحمَل انتصارُ المسلمين على المعجزة ،

مع توافر العدد والعُدد والمهارة الحربية وغيرها من وسائل النصر وشروطه فى جهة الخصم ، فعلى أى شىء يمكن إسناده سوى التأثير المعنوى لرفق المسلمين وعدلهم فى قلوب الناس ؟ ولا يجوز تشبيه توسُّع المسلمين واستيلائهم على البلاد ، بما قام به البرابرة الذين ضاقت بهم أرضهم ، من غارات مدوَّخة للأمم المتمدينة ، والبلاد المعمورة ، فانتصروا بالطغيان وكثرة العدد .

والحق أن فى القرآن آيات كثيرة تأمر بالاستعداد للحرب . وتحريضُ الناس على الرجولة ، وتحذيرُهم الجبن والكسل ، حكمةٌ بالغة . وليس يمكن تصوُّر رجل سياسى أو فرد عاقل ينكر اليوم هذه الحقيقة . بيد أن ثمة آيات كثيرة مانعةً عن الحرب دون سبب كقوله تعالى : «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » سورة الروم . وقوله : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكُمْ فى الدين ولم يُخرِجوكم من ديارِكم أنْ تبرُّوهُمْ وتُقسِطُوا إليهمْ إنَّ اللهَ يحبُّ المُقْسِطِينَ » سورة الممتحنة .

يعتقد المنكرون الأديان إطلاقا ، أنها كانت سببا لسفك الدماء . بيد أن الإنسان إذا تعمق فى البحث ، تبين له أن جميع المنازعات والحروب ، نشأت من تعارض حقوق الناس ومنافعهم بعضها ببعض ، أى من عدم اتباع الأوامر الدينية وقد تولد أكثر هذه الاختلافات منذ القدم ، من العجز عن تقسيم الغوانى والمصايد والمراعى والمزَارع ، أوالثروات عامة . ولو استعرضنا أسباب أحداث العالم العظيمة ، من حروب الصين والتتر ، و إيران وطوران ، وغارات الفراعنة والإيرانيين ، والكلدانيين والآثوريين ، والإسكندر والرومانيين ، وهجرات الأقوام ، وهجمات البرابرة ، وغارات آتيلا وجنكيز وهولاكو ، وحروب المئة العام ، وحملات نابليون ، والحرب العالمية (الأولى) التى سببت أكبر التخريبات ، لعلمنا بأنها ليست فى الدين ، و إنما هى فى المنفعة والسياسة .

لم يكن توسُّع المسلمين سببا لسفك الدماء بمقياس كبير ، لأنه لم تحدث ملاحم

كبيرة دموية سوى موقعتى يرموك والقادسية . ولم تُرتكب المظالم فى أى مكان ، وقد دخلت الأراضى المحتلة كلها فى حوزة المسلمين مع تبعية أهلها بلا قتال تقريبا .

والواقع أن حروبا كثيرة وقعت بين الفرق الإسلامية ، بيد أنّ الاختلافات الأولى منشؤها المنافسة القديمة بين الهاشميين والأمويين ، وأشد الحروب الواقعة بين الشيعة و بين السنيين نجمت عن تغلب الأسرتين العثمانية والصفوية ، وأطماعهما فى التوسع .

وأقسى الحروب الدينية وأكثرها إراقة للدماء هى الحروب الصليبية ، وقتال الكاثوليك والبروتستانت ، وحروب الثلاثين عاما . ولكن هذه الحروب كذلك ليست كافية لإثبات مسئولية الدين عن الحروب ، وهى من مقتضيات الجِبلّة البشرية ، لأنها لا تُعَد شيئا فى الملاحم العالمية .

ومن الحقائق التاريخية أن عدد النفوس نزل فى نهاية حرب الثلاثين عاما إلى نحو الثلث . ولكن ما مضى قرنان على تلك الحروب حتى اكتسبت النفوس كثافتها القديمة ، و بلغت فى بداية الحرب العالمية (الأولى) حدا لا تسعها البلاد . ونظرا إلى هذه الحالة ، فلو لم تحدث الوفيات التى استلزمتها تلك الحروب ، ودامت ذرية المقتولين فى الزيادة ، فأى مكان من ظهر كرتنا كان يكفل لهم حاجاتهم يا تُرَى ؟

ربما كانت « جمعية الأمم » التى أنشأها وِلْسُن خادمُ الإنسانية ، مانعةً لأطماع توسع الدول واستعلائها مدة من الزمن . ولكن إن لم تتكون جمعية أخرى من الأطباء والعظماء ، وتتمكن من وضع حد معقول لزيادة النفوس وتكثُّرها ، فلن يمكن الوقوف أمام الاعتداءات والحروب ؛ لأن الشعوب والأمم التى لم تقدر على تقسيم ظهر الأرض فى الماضى ، سوف تتنازع لتقسيم بطنها ، من أجل ما فيها من الكنوز المعدنية .

الطعن فى الإسلام لمادية ثوابه الأخروى :

وأكبر طعون الرُّهبان والحكماء على الدين الإسلامىّ ، موجَّه إلى أن القرآن ذكر ثواب الآخرة فى صور جِدِّ مادية ، بل فى صورة شَهْوانية على زعمهم ، ويبدو أن رجال الطبقة العليا من هؤلاء المعارضين ، يقومون بمثل هذا الطعن ، مقارنين الطبائع البشرية فى كل زمان وفى كل مكان ، بإدراكهم هم وعرفانهم ، ولا يفكرون فى أن القرآن لا يخاطب المدرسين وحدهم ، وإنما يخاطب الجمهور كذلك . وأما فى أيام نزوله فقد كان القسم الأعظم من المخاطبين مساكين ، يطلبون الماء من السّراب ، ويتحسرون على الحضارة طول العمر ، ويحاولون وقاية أنفسهم من حرارة الشمس ، وبرودة الليل ، بالكهوف وبالأخبية من الشعر ، ويئدون بناتهم تقربا إلى آلهتهم ، زاعمين أنهم يحبون النساء(٨٩) . وجزاء الإنسان نيله مَرامه ومآربه . فما ذا يكون التعويض لمن مُنِع عنه نعيمُ الدنيا ، غيرُ أنهار الجنة وأشجارها الوارفة الظل ، وشراب الكوثر ، والقصور والحُور والغِلمان ؟ فما ذا يتصور سكان بريطانيا وبوميرانيا من قُرى أوربا المتمدينة فى هذا العصر ، وشبان شوارع المدن الكبيرة ، لذة ونعيما أكثر مما ذكر ؟ بلْهَ البدو من الأعراب قبل ثلاثة عشر قرنا ؟ ! فكلٌّ مخاطبٌ بلغة يستطيع فهمَها ، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم « كلموا الناس على قدر عقولهم » .

يُقبَل من النصرانية تصويرُ الجزاء الاخْروىّ بأشد آلام الدنيا ، فلِمَ يُعترض على تصوير القرآن جزاء الآخرة بنعيم الدنيا ؟

ثم إن اللطائف الأُخْروية التى يعسر على الناس فهمُها بعقولهم الدنيوية ، يُفَهَّمونها تشبيها — ولا سيما الجهال — ، ولكن لا ينبغى أخذ الألفاظ والتشبيهات كما هى(٩٠) . وليس من شك فى أن قُسُس الكاثوليك والأرثوذكس لا يعتقدون الله فى زِىّ شيخ قد انقلبت لحيته الطويلةُ نهرا ، كما يصوَّر على جدران الكنائس !

إن كان القرآن ذكر أنهار الجنة وكوثرها وحُورَها ، فإنه قد بشّر خواص الأمة بأن رِضوانَ الله فوقَ كل الملاذ « ورضوانٌ من الله أكبر » سورة التوبة ٧٢ . وأن النفس لا تدرى ما قُدِّر لها من نعيم وملاذ خفية . « فلا تعلم نفسٌ ما أخفى لهم من قرّةِ أعيُنٍ جزاءً بما كانو يعملون » السجدة الآية ١٧ . فالآيات المبينة لثواب الآخرة تبشر كل امرئ بنيل ما يراه غاية للسعادة . فخواص الأمة يفهمون منها ما يتصورونه من نعيم عُلوىّ فى الآخرة . والأمنيـة الأخروية لعظماء المسلمين هى تجلى نور جمال الله . وقد عبّر سالـكو الطرق العَلِيَّة عن السعادة الحقيقية الأخروية بالفناء فى الله . ولـكن ما التأثير الذى يتركه مثل هذا التبشير فى العوام ؟

فصـــل خاصّ

النتائج المحصّلة من التمهيدات التى ذُكرت فى المباحث المتقدّمة

إذا لخصنا البيانات التى سبقت حتى الآن حصلنا على النتائج الآتية :

أوّلا :— لا بد من خالق ، قديم ، حكيم ، غير مُدرَك الذات ، واجب الوجود . ويوجد كذلك عالَم غيب ، لا يمكن إدراكه بالخواصّ البشرية ، ولا تمييز حقيقته بالعقل(٩١) . وحقائق الأشياء فى ذلك العالم .

إن تضمّن كل شىء خاصّةً خفيّة ، وقوة غيبيةً ، من البديهيات عند أرباب العقل . إن كان الشكل الظاهرىُّ للإنسان والحيوان والنبات والجماد ماديا ، فإن لطائف الخليقة كالنفس والروح ، وخاصّةُ النمو ، وقوةُ الجاذبية ، هى من عالم الغيب . فهى تظهر لنا بآثارها ، ولكن حقائقها لم تظهر لنا فى هـذا العالم الجُسمانى ، ولن تظهر . بيد أن الظواهر كلّها قائمة بتلك الإحساسات الباطنة . فلو تصورنا انتزاع النفس الناطقة من الإنسان ، والقوة الحَيَوِيّة من الحيوان ، وخاصة النبت والنمو من النبات، وجاذبية الجماد، وقوة الذرّات — وكلها من المغيبات بالنسبة إلينا — لحظة واحدة ، لاختفت الصور والأشكال قاطبة ، وصار العالم خليطا (Cahot) . وأغلب الاحتمال أن كل شىء ينقلب إلى قوة ليست لها نقطة استناد ، أى إلى عدم . ولا يبقى إلا « وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام » .

وليست إفاداتى هذه من التخيل ، بل هى من الحقائق العلمية . إذن فثمة عالَمُ غَيْب كذلك . وإذا صُدّق بوجود ذلك العالم ، فلا يمكن الادعاء باستحالة وجود موجودات لطيفة ، كالمَلَك ، والجنّ ، والشيطان ، مهما كانت أسماؤها .

وأما جواز النُبوة ولزومها ، فيكفى لإثباته ماذكرت من الأدلّة والملاحظات

فى المبحث الخاص ، ولاسيما ما شوهد من الاعتماد على النفس والإيمان والقناعة فى دعوة محمد ، وما جمع فى نفسه من الفضائل الُخلقية ، والصدق ، والحكمة ، فى أمر التبليغ .

فالإيمان بالله و بالغيب والنبوة والوحى يعنى الإقرار بالدين . فالدين حق من هذه الجهة . وذهاب البشرية إلى دين وعقيدة مذ عرفت نفسها ، إثباتٌ لكونه فطريا طبيعيا .

إنى شممت فى أثناء مادار بينى و بين الماديين فى بلادنا من المباحثات ، أنهم يأخذون تعبير «الماديين» بمعنى «الطبيعيين» ، وعقيدة «الروحيين» بمعنى المعارضة للطبيعة . وقد نشأ أصل الخلاف مما فى هذا الفهم من خطأ . والواقع أن فى المصطلحات العلمية تعبير « ما بعد الطبيعة » ؛ ومبحث الخلقة فى الفلسفة يُعد من مباحث ما بعد الطبيعة . ولكن لا يُستنتج من هذا التعبير الاعتبارى المحض ، كون فكرة الديانة مخالفة للطبيعة . إن تكن هناك معنوية وروحانية خارج المادية فى نظر الإسلام ، فكونُها غير مادية لا يستلزم كونَها غير طبيعية . وقد رُوى أن تعبير « ميتافيزيقا » نشأ عن كون أرسطو قد درس مبحث الألوهية والخلقة بعد العلوم الطبيعية ، كما أنى رأيت فى كتاب أنسيت عنوانه ، أن هذا الاسم نشأ من وضع كتب العقائد وراء كتب العلوم الطبيعية ، فى تنظيم إحدى مكتبات اليونان .

لا يَعُد الإسلام تبليغاته أمورا فوق الطبيعة ، بل بالعكس من ذلك يؤيدها بأمثلة مأخوذة من الآثار والأحداث الكونية الطبيعية [٩٢] ، فوجود خالق واجب الوجود لهذا الكون أمر طبيعى . والبشرية مقتنعة بهذه الحقيقة كذلك بسوق طبيعى مع الوحى الدينى ، والتحقيق العقلى . إن اعتراف الفرنسيين باله خالق ، وتبجيلهم إياه ، بعد أن ألغوا العقائد النصرانية فى ثورتهم الكبرى ، وعجزهم عن التخلى عن عقيدة خلود الروح ، لدليل قاطع على أن هذه العقيدة فطرة بشرية

طبيعية . بيد أنا لا ندرك حقائق الألوهية وعالم الغيب فى عالمنا الجسمانى هذا . وقد أثبتُّ فى مقدمة هذا الكتاب بأمثلة بسيطة ، أن فى الطبيعة خواصّ وحدودا يعجز علم البشر عن التملق بها وتجاوزها .

وثانيا — الدين كما أنه حق فى نفس الأمر ، فهو نافع أيضا لهذا العالم الفانى ولازم له . والنصيحة وحبُّ الخير للناس غاية الدين فى الدنيا : « الدين النصيحة لله ولرسوله » . والدين يضع القواعد الخلقية ، ويؤيد اتِّباعها ورعايتها بالتبشير والإنذار . فالتعاليم الدينية كانت أكثر نفوذا من أى أمر سواها فى قلب البشر وفكره حتى اليوم . وإن كان الدين قد استُعمل أحيانا فى أيدى بعض الأشرار وسيلة لارتكاب المظالم ، إلا أنه أنتج على وجه عام بقاء البشرية ودوامها .

يقر بنفع الدين ولزومه أعاظم الناس ، ممن بلغوا أرفع المقامات بكد أيمانهم ، من أفراد أكبر الأمم وأقواها . أنقل فى هذا الشأن فقرات عن كتاب عنوانه : « هل يمكن أن يكون المتفننون دينِّيين ؟ » لمفكر أمريكى يدعى مستر ورومن ، وهو مترجم إلى التركية بقلم محمد شكرى بك . قال المستر كولج الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة بأمريكا فى إحدى خطبه : « إن البلاد فى حاجة إلى التديُّن أكثر مما هى عليه الآن . وإنى لا أتصور دواء أنجع وأكثر تأثيرا من الدين فى إزالة المساوئ والشرور التى تلوَّن بها شعبنا . فليس فى الدنيا نظام تربية أو نظام حكومة غير معرَّض للزوال . كما أنه ليس هناك جزاء أو عقاب لم يفقد تأثيره فيما بعد ، إلا ما جاء عن طريق الصلاح والتضحية ، وأساس الدين النصيحة ، فلا سبيل إلى دوام هذه الحضارة المضيئة ما دمنا محرومين من الإيمان » .

واقتبس المستر ورومن من آخر مؤلَّف للدكتور وِلْسُن رئيس الجمهورية الأمريكية الأسبق الجمل الآتية : « وخلاصة المسألة كلها أن حضارتنا إن لم تنقَذ بالمعنويات ، فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها . ولا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الدينى فى جميع مسامها ، فتحررت وسعدت بما ولَّد فيها هذا الروح

من الحركات . ذلك هو الموضوع الذى يجب أن يجادل فيه كنائسنا ونظمنا السياسية ، وأصحاب رءوس أموالنا ، وكل فرد خائف من الله محب لبلده » . وذكر روبرت ميلكان وهو من مشاهير علماء الفيزيقا بأمريكا — وضع أحدث نظريات الذرة ، واكتشف البروتونات والألكترونات ونال جائزة نوبل — فى مؤلفاته المختلفة ، الجملَ الآتية : « أهم أمر فى الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات ، وقيمة الأخلاق . وكان زوال هذا الإيمان سببا للحرب العامة (العظمى) . وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته ، فلن تبق للعلم قيمة . ويصير العلم نكبة على البشرية أكثر منه سعادة ، فى حين يكون العلم تحت حكم الدين مفتاح الرقى ، وأمل المستقبل . وكل رجل مفكر يؤمن بالله ، ولكن يختلف أسلوب هذا الإيمان » . وقال شارلز . آ . ألوود رئيس جمعية الاجتماعيين بأمريكا ، ومؤلف عدة كتب فى الروحانيات والاجتماعيات : « العلم بلا دين عَدَم » ، ثم قال : « إذا كان العلم مفيدا للإنسان ثقافيا واجتماعيا ، فلن يقدر على ذلك دون معاونة الدين . فالدين محتاج إلى العلم ، لتتعلم منه خير الوسائل الموصلة إلى غاياته ، والعلم فى حاجة إلى الدين ، لكى يستعمل الناس حقائقه القوية استعمالا صحيحا ، فالدين خير الوسائل لحمل الناس الآن على الحركة على هذه الطريقة » .

وأنا أضيف هنا حكمة (وجيزة) من حِكَم جوته ، قال : « وذو العلم والمعرفة يكون دينًا ؛ وإنما يجب التدين على من حُرمهما » .

هكذا يرى كثير من العُلماء الذين ذكرتُ أسماءهم بالمناسبات فى فصول مختلفة ، أن الدين حق ومفيد فى إصلاح البشرية ، وضرورى لا بد منه . وأما الماديون فليس فيهم رياضيون وفلكيون وعلماء وحكماء اكتسبوا ثناء العالم وغبطتهم أمثال نيوتن ، وهَرْشل ، ودكارت ، ولاپلاس ، ولاڤوازيه ، وپاستور ، ولا شعراء عباقرة ، أمثال ڤكتور هوجو ، وجوته ، فجميع هؤلاء يؤمنون بالله الواحد ، ويعتقدونه مقتنعين ، ولو أنهم لا يصدقون كلَّ ما فى النصرانية (٩٣) . وكل

ما للماديين من قوة ، ففى لسانهم وأقلامهم . فهم يقدرون بمرائهم وجدلهم استغفال بعض أنصاف العلماء والسفهاء ، ممن يرغبون فى التخلص من القيود الدينية .

وثالثاً — الحقيقة الدينية واحدة ؛ لأن غايات كل الأديان من الإيمان بالله والغيب والوحى ، و إحسان الإنسان إلى بنى نوعه ، وتحلية الذات والجَنان بمحاسن الأخلاق — كلها غاية واحدة . ومع ذلك نجد فروقا ، قليلة أو كثيرة ، بين عقائد الأديان الموجودة ، وقواعد أخلاقها . فمن أين ينشأ هذا ؟ هذه الاختلافات ليست فى أصل الدين . و إنما نشأت من وقوع الانحراف بحسب البشرية ، عن القواعد والعقائد الدينية وأسسها ، مع مرور الزمن وطول الأمد(٩٤) . إذا أنعمنا النظر فى محيطنا ، شاهدنا التأثيرات الكيميائية والفيزيقية المختلفة تُحدِث تحولا فى كل شىء ، وفى كل حال فى هذه الدنيا . فمثلا تخرج قذيفة من فُوَّهة مدفع أو نحوه ، مندفعةً على خط مستقيم ، ثم ما هى إلا لحظة حتى تحوِّلها الجاذبيـة الأرضية ومقاومة الهواء ، من اتجاهها ، فتسقط على الأرض . وأثر هندسى معمارى خشبى أو حجرى ، وآلات فنية أو حربية ، مصنوعة من الصلب تبلى وتتعفن وتصدأ بتأثير بعض الجراثيم والرطوبة والتأثيرات الجوية ، فيزول بسرعة متناسبة معكوسا مع ما يُبذَل من العناية للمحافظة عليه . كذلك الأحوال الفكرية ، فطبيعى جدا أن تتأثر ببعض الإحساسات والميول والشهوات الثابتة فى الجِبِلَّة البشرية ، فتنحرف عن الجادّة بالصورة عينها .

لقد أنبأ القرآن بانحراف الأديان ، لطول الأمد ، وبلوغ الناس الهداية ببعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ونزول كتابه عليه .

يقول المنكرون إنهم لا يعقلون استثناء الدين المحمدى من قانون الانقلاب الشامل لكل الأديان والأشياء . ولو أنعمنا النظر فى الاختلافات المذهبية الخطيرة ، التى بدت فى الإسلام ، والظنونَ والمبادىء الباطلة التى شاعت بين العوام ، دون العلم بأسبابها ، لوضح لنا تأثير القاعدة الكلية فى ديننا أيضا ؛ ولكن كتاب

الإسلام ظل محفوظا — فى حفظ الله — وما فى ذلك شك ، وقد أجمع الناس على ذلك . فلذلك يمكن تطهير العقائد الإسلامية وتخليصُها من الخرافات والتحريفات التى حلَّت بالعوام ، وبعضِ الفرق الزائغة . « ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتُبَيِّنَ لهم الذى اختلفوا فيه ، وهُدًى ورحمة لقوم يؤمنون » — سورة النحل الآية ٦٤ . [انظر الخاتمة] . ثم إن عدم مغايرة الأسس الإسلامية للبرهنة العقلية والموضوعات العلمية ، وموافقتَها لأحدث الآراء الفلسفية ، يُثبت صحة ديننا ، حتى لدى أشدّ المعقّدين ، وعُبَّاد الظواهر .

ورابعا — فليكن شبابنا واثقين من أن الدين الإسلامىّ لم يكن قط مانعا من التفنن والتقدم فى هذه الدنيا . فقد فتح الإسلام مسالك جديدة للعلم والفلسفة ، بعد أن منيا بالتوقف بل بالنسيان ، فليست ثمة قاعدة ولا وجيزة إسلامية مانعة من التقدم الدنيوى ، و إن صدر بعض هذيان من أفواه بعض من يظهرون فى زىّ العلماء ، كقولهم : « حذار من الاعتماد على الهندسة ، حتى لا تقع فى دائرة تلك الوسوسة » ، إلا أنه لا يستند على أى أساس دينى . ولكن موضع التعجب الحقيقى هو عدم تقدير هذا الشاعر الظاهر ورعُه وتقواه من بيته المذكور ، لأثر هندسى عظيم كجامع السلمانية ، الذى دخله ليصلى فيه ، بعد أن أنشد ذلك البيت ! لقد بُنِيت فى أثناء حياة هذا الشاعر مخلَّدات دينية قريبة من هذا الجامع ، وعُبِّدت طرق خارج المدينة ، وبُنيت جسور ، وصُنعت الأسلحةُ والسفنُ فى مصانعنا ، بالأيدى التركية . فهلَّا اهتم هذا المحترم وسأل عن تلك الآثار كيف أوجِدت ؟ أكان يحسَبها قد أنشئت بخفة اليد ؟ !

ومما يؤسف له أن خراب دولتنا وهيئتنا الاجتماعية وانحطاطها وتشتتها ، قد وقع من أمثاله من الناصحين . ولكن ليست لهفوات كهذه علاقة بالدين . بل بعكس ذلك ، كان رأى علمائنا السابقين أمثالِ الغزالى « إن طلبَ ما تحتاج إليه الأمة من العلم فرضُ كفاية » .

وكذلك ليست فى ديننا كلمة واحـدة تَنْهَى عن التمتع بالدنيا ، على شرط عدم التجاوز لحقوق الغير ، وعدم الخروج عن القواعد الخلقية . فهناك أيات كقوله تعالى : « هو الذى جعل لـكم الأرض ذَلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » و قوله : « وكلوا واشربوا ولا تُسرِفوا » و « كلوا من رزق الله ، ولا تَعْثَوْا فى الأرض مفسدين » . و « ولا تَنْسَ نصيبك من الدنيا » . وأحاديثُ كقوله عليه السلام : «من عَشِق وعَفّ ثم مات مات شهيدا » وكقوله « الدنيا حُلوة خَضِرة ، فمن أخذها بحقه بورك له فيها » . و « الدنيا خَضِرة حُلوَة من اكتسب فيها مالا من حِلِّه ، وأنفقَه فى حقه ، أثابه اللهُ عليه ، وأورَدَه جَنَّتَه » . فكلها تبيح الملاذ الجسمانية والروحانية ، فى حـدود العِفَّة والاستقامة ، وتحفز على التقدم الدنيوى .

وأما الأقوال المأثورة كالدنيا جيفة ، وطالبها كلب . فكلماتٌ متغالية ، غير مستندة إلى أى أساس دينى . قد قالها السلف لتحذير الناس من المساوىء ، كالسفه والحرص والطمع .

إن الأديان تأمر بالإحسان والإنفاق من جهة ، وبالقناعة والإمساك من جهة أخرى ، وتنهى عن الحرص والطمع والخِسَّة . وهذا حكمة بالغة . لأن الإنسان المضطر للحصول على أسباب معيشته من محيطه ، مجبول على الحرص والأنانية . فلو تُرِكَ أفرادُ البشر على حالهم ، لتجرءوا على ارتـكاب ضروب من التغلُّب والظلم ، لجلب منافعهم على حساب الغير ، وكان هـذا مَبعث فِتنة وفساد . وغاية الأديان الدنيوية منعُ المساوىء والفضائح ، وتأمين حقوق العباد ، واطمئنانُ الضمير ، وسَلْمُ العالم وصلاحه . فالتعاليم الدينية تحفِز لا إلى زيادة الحرص والطمع المركوزين فى الفطرة البشرية ، بل إلى تعديلهما وتليينهما .

لا يوجد دين مروِّج للإسراف والـكسل والإهمال ، مستحسِن للفقر والذِّلة المترتبين عليها ، ومانعٌ عن السعى والـكسب ، ولا عن الثروة والغنى المترتب عليهما ،

كما يفهم المنكرون خطأ ، أو كما لا يريدون أن يفهموا . والواقع أننا قد ذكرنا بالمناسبة فى مبحث « ورُسُلِهِ » زهدَ النبى فى الدنيا حامدين شاكرين . إلا أن نبينا لم يحمّل أمته الضميرَ الذى غلبه على نفسه . لقد نَسِى وجوده كلّه ، وضحّى بنفسه فى سبيل واجبه المقدس ، ورفاهية أمته وسعادتها . بيد أن أمته قد بلغت بفضله غاية العظمة والشوكة فى زمن وَجيز ، واكتسبت الثروة والرفاهية من كل الوجوه . فالفقر والضيق اللذان مُنِيَتْ بهما الدولة العثمانية ، وربما ابتلى بهما كثير من بلاد المسلمين فى العصور الأخيرة ، يجب ألاَّ تحمّل الأحكام الدينية مسئوليتهما ، كما يزعم الملحدون ، وإنما يتحملها إرتكاب المنهيّات الدينية ، والفساد الخلقى ، والمساوىء الاجتماعية ، كالحرص وحب النفس ، والطمع والرشوة ، والدسائس والظلم ، وما يترتب عليها من الفتن والفساد ، وفقدان الأمانة والأمن ، وكلها ناشىء من إهمال الأحكام الدينية .

ومُوجَز الكلام أيها الشباب : إن أردتم التفنن والتقدم ، وإفادة أمتكم وبلادكم مما اكتسبتم من العلوم والفنون ، فكونوا دينيِّين ، ومتخلقين بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، حتى تكتسبوا القوة المعنوية والمتانة القلبية ، اللتين يمنحهما الدين ، لتكونوا فى أعمالكم ناجحين .

التلخيص :

أستخرج خلاصة الخلاصة من تمهيداتى ، فأقول مكررا :

أوّلا — الدين حق .

وثانيا — الدين نافع فى الأمور الدنيوية ، ولازم لها .

وثالثا — الحقيقة الدينية واحدة لا تتغير . والاختلافات التى بين الأديان نشأت من الانحراف عن أساس الدين ، بمرور الزمان . ولما كان القرآن وحدَه لم يمسسه التغير ، فالحقيقة الدينية القديمة الثابتة ، هى الحقيقة الإسلامية . وعدم تعارض

العقائد الإسلامية والأمور العقلية والمكتشفات العلمية ، مؤيِّد لهذه القضية .

ورابعا — إن الاتباع لبعض تحريضات الغربيين ومفترياتهم ، وبعض المقالات الفارغة مما يكتبه لابسوا زىّ العلماء ، والحكم بأن الدين مانعُ المرقى : خطأٌ كبير . والدين الإسلامى على العكس من ذلك ، مشوّق حافز إلى التمدّن والتقدم . وقد ثبتت هذه القضية وتأيدت بالآيات الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والحوادث التاريخية . فاستمساك شعبنا بحبل الإسلام المتين ، مما تقتضيه مصالحه الشخصية ، ومنافعهُ القومية .

الباب الرابع

الاختلافات المذهبية

إنى أرى أنّ الاختلافات المذهبية ، أو على الأقل الخصومات العنيفة الناجمة عنها ، قد تولدت من عدم تقدير العظمة والقدرة الإلهية حق قدرها .

كانت هذه المناقشات فى الأصل مما لا ينبغى أن يتجاوز حدود المناظرات المنطقية والعلمية والفنية ، ولكننا أقْحَمنا اسم الله عز وجل فى مناقشاتنا التى لا معنى لها ، فحاول كل فريق منا إسناد الكفر والإلحاد إلى الفريق الآخر ، فقلبنا الاختلاف البدأى خصومة دينية لا تهدأ .

فاختلافات الجَهمية والمُعتزِلة ، نشأت فى أصلها عن التعبير بأن « العبد خالق لفعله » بدل التعبير بأنه « فاعل لفعله » ، وتصوُّر الاستقلال التام فى الإرادة البشرية . وهذه العقيدة خطأً كانت أو صوابا ، صالحة لتكون موضوع مناقشة علمية ، يستطيع فيها الطرفان مناقضة بعضهما بعضا ونقده ، بل واستجهاله واستحماقَه ، ولكن لم تقف المسألة مع الأسف عند هذا الحد ، فقالت القدَرية : « إن عدم القول بعقيدتنا يكون إسناد الظلم إلى الله من عذاب الآخرة » . وقال معارضوهم : « إنكم تنكرون ما علينا من قدرة التصرف والإرادة الإلهية الكلية ، وهذا كفر » . فنشأ أولًا هذا الخلاف ، ثم توسّع مع مرور الزمن واشتد ، حتى تولدت منه مبادىء غريبةٌ غيرُ معقولة . وسالكو مذهب الجبرية يقولون بعكس ذلك ، فهم يبالغون فى سلب القدرة والإرادة . عن الإنسان . وليس هذا حَسْبُ ، بل تورط غُلاَة الجبرية فى بعض عقائد سخيفة ، ككون الله مجبرا البشر على ارتكاب أعمال قبيحة ، وهم فوق ذلك يكفّرون المذاهب الأخرى ، زاعمين الشرك بالله فى إسناد القدرة والإرادة للإنسان ، ويتهمهم المعارضون بأنهم يسندون الظلم إلى الله .

ولمّا كان أصل الاختلاف ومنشؤه من إفراطهم فى محبة على بن أبى طالب ، ومن مسألة الخلافة ، أى أنه مرتبط بالأمور الدنيوية والسياسية ، فكان من الممكن المناقشة فى كيفية صواب تفويض الخلافة إلى على كرم الله وجهه أو خطئه ، وإيرادُ الأدلة المتقابلة لكلا الطرفين ونقدُها — فى حدود الأدب بالطبع — . ولكنّ فريقا من العلماء السنيين ينسون أن مناظريهم ذوى الرأى فى هذه المسألة كانوا أيضا من الناس ، فلا يكتفون بالدفاع عنهم فى حدود العقل والمنطق ، بأنهم كانوا مصيبين فى اجتهادهم ، بل لا يجيزون بأدنى ملاحظة فى هذا الباب ، ويعُدون أدنى الاعتراض عداوة غليظة . ثم إن الشيعة الذين زادوا شدة وعنفا بتحريض بعض المنافقين ، وحث بعض الرؤساء الطالبين أغراضا ومطامع دنيوية ، ظهرت فيهم ضروب من الغُلاة ، فكفّر بعضهم الصحابة الكرام ، لإبداء آرائهم خلاف رغبة الرسول ، ثم تقدموا درجة درجة فخطّئوا الرسول لعدم توصيته صراحة ، وخطّئوا الله سبحانه وتعالى لعونه على ارتكاب مثل هذا الظلم ! وذهب بعضهم إلى تأليه على ، وآخذه بعض منهم على تنازله بسهولة عن حقه فى الخلافة ، بعد وفاة الرسول ، وبيعته لأسلافه العظام . وآخذه الخوارج على رضاه بالتحكيم بعد معركة صِفِّين . وأعقب هذه المنازعات والمناقشات تكفير من الجهتين ، تولدت منه عداوةٌ لا تهدأ ولا تسكن .

وغرِق بعض الفرَق فى بحر من المناقشات ، حول كون الله متكلما أو غير متكلم ، وكونِ كلامه قديما أو حادثا ؛ وقد حاول بعضهم تشبيهه بالبشر — حاشا لله — ودقق بعضُهم فى صفات الله الثبوتية ، فأقر مثلا بكونه خالقا وقادرا ، وأنكر كونه حيا وعالما !

فلنفكر منصفين ؛ إذا برهنا على عظمة الله وقدرته بما نشاهد من آثار الخلقة وحصل الإطمئنان ، أفلا يكون من العبث محاولةُ الكشف عن كُنْهه وذاته ومراده بمباحثات وأقيسة منطقية ؟ وكيف ترِد إلى الأذهان ألفاظ وآراء متضمنة شوائب

العجز والظلم والذهول فى حق الله ؟

إن الذين وقعوا فى تلك الأوهام هم أناس ناقصو العلم ، ضيقو القريحة ، يتحدثون عن عظمة الله وقدرته وأزليته تقليدا كالببغاء ، دون أن يحصلوا على فكرة صحيحة ، بل على فكرة بسيطة عن تلك العظمة والقدرة ، فيقيسون الله بأنفسهم كفرد منهم يجول فى أطراف الأرض ، مشغولا دائما بأفعال العباد وحركاتهم .

لقد التزمتُ فى أوائل هذا الكتاب التزويدَ بمعلومات ، وقدّمت أعدادا وأرقاما حوت الأصغر والأكبر غير المتناهيين . وإذا فكر فيها الإنسان وتذكر قليلا ، فلا يمكن تأويل الإصرار عن علم ودراية ، على مثل هذه المبادئ الواهية ، بغير الكفر .

إن رجلا موحّدا بالله بإخلاص تام ، وحامدا له ، إذا زار قبر رجل قد اشتهر فى حياته بالصلاح والتقوى والخدمات الإنسانية ، فليس فى هذه الزيارة شىء من إشراك العظماء بالله ، ولن يكون أبدا . بل بعكس ذلك ، إن تصوُّرَ مثل هذه الحال فى حق الغير وإسنادَها إليه ، فيه ما يَنِمُّ عن أن الله تعالى سهلُ الإشراك به ، فهو إثم عظيم .

يخيل إلىّ أن بعض علماء السلف ، بدل أن يأخذوا الأدلة والبراهين فى هذه المباحث ، عن آثار الخلقة ، وطبيعة الكائنات ، حاولوا استخراج معانٍ مختلفة من العبث بالأقيسة المنطقية ، والتدقيقات النحوية واللغوية ، من بعض عبارات ، فارتكبوا الخطأ والضلال .

إن علم المنطق يرشد إلى طريق سليم مستحسَن ، وأصول للمناظرة . لقد اخترعه الفكر البشرى لهذه الغاية ، وأفاد واضعوه ، قدماء حكماء اليونان ، منه بحسب حكم زمانهم . ولكن وُجِد من بينهم من استخدم هذا العلمَ وهذه الأصول أداة للسفسطة كذلك ، وأما مقلدوهم المتأخرون فبالرغم من أنهم حبسوا

أذهانهم مدة مديدة فى حدود صغرى هـذا العلم وكبراه ، أرادوا العوم فى أسرار بحر الخلقة ، فضلوا ضلالا مبينا ، وافترقت الفرق الضالة عن السواد الأعظم .

بعد نحو قرنين من تاريخ حدوث هـذه المناقشات والمجادلات فى المراكز العلمية الإسلامية ، كبغداد وغيرها ، كانت الحالة الفكرية نفسها تسود عالم النصرانية فى أوربا . فقد أورد المؤرخ الشهير سنيو بوس المثالين الآتيين عن موضوع المناقشات المنطقية فى ذلك العهد . هما : « هل يقدر الله على علم بشىء أكثر مما يعلم ؟ » أو « هل كانت جروح عيسى لا تزال باقية بعـد الإحياء ؟ » وقال واصفا مناطقة ذلك الزمان بأنهم « كانوا يتجادلون ، ولـكنهم لم يكونوا يشاهدون ولا يتأملون » . "Ils raisonnaient;„ "mais ils n'observaient pas„ فالمنطق الذى دفع الناس إلى ما نشاهد اليوم من أسلوب التفكر والبحث والتقدم العظيم ، كان فيما مضى سببا لاختلافات غريبة ، كالتى أوردناها ، فى كل أرجاء العالم(٩٥) . ولـكن ما الحيلة ؟ فهذا هو القانون الطبيعى . فتطوُّر البشر يتحقق دائما بالتموجات ، وبالانحطاط والاعتلاء .

كل فرقة من الفرق الإسلامية تجعل نفسها فى مقام الوكيلة عن الله سبحانه وتعالى ، فى تلك المجادلات التى تقوم حول ذات الله وكلامِه القديم ، ورسولِه الـكريم ، فتتهم مخالفيها بالـكفر والإلحاد ، بل تحاول التنكيل بها ماديًّا ، فتصاب الجامعة الإسلامية بالتفرق والنفاق ، ويضعف المسلمون جميعا .

إنى لا أكتفى بجعل علماء الفرق المخالفة وأركانها وحدَهم مسئولين عن هذه الحالة ، بل أتجرأ فأجعل بعض علماء أهل السنة أيضا مسئولين عنهـا . لأنهم هم أيضا قاموا بحركات عنيفة ضد مخالفيهم ، فأغلقوا أبواب الائتلاف ، دون أن يتوسّلوا بوسائل رفع النفاق ، وأكنّوا فى أنفسهم حتى اليوم ، ما أيقظته المجادلات اللسانية والفعلية من سوء الظن والحنَق ، فى أثناء ظهور الفرق المخالفة ، على حين أن الغليان الحادث فى أثناء الجدال ، بطبيعة الحال ، يهدأ قليلا قليلا ، فيقل الغُلاة مع الزمن

ويزيد عدد المعتدلين والمنصفين . فلهذا أظن أنّ البحث فى سِـيَر وآراء من يقال عنهم رجال الفرق الضالة ، والسعىَ لتأليف البين كلما سنحت الفرصة بذلك ، ألزم عقلًا وسياسة ، وأوفق للأحكام الشرعية(٩٦) . ما دمنا نؤمن بأن رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم خاتمُ الأنبياء ، وأنه لا دين بعد دينه ، فليس لأهل القِبلة المصدِّقين بالله قلبا وروحا ، حق تكفير بعضِهم بعضا من أجل الاجتهاد والمذهب . « ولا تَطْرُد الذين يدْعون ربهم بالغداوة والعَشى يريدون وجهَه ، ما عليك من حسابهم من شىء » — سورة الانعام ، الآية ٥٠ .

العناد والتمادِى فى التكفير غير جائز ، وإذا اقترن العناد بالتعمُّد فهو كفر محض . فيجب على كل فرد مسلم ، ولا سيما العلماء ، إقناعُ المعارضين بالأقوال الليِّنة ، والأدلة العقلية والنقلية ، وإرشادُهم حتى يدخلوا دائرة الوفاق والوحدة : « وجادلهم بالتى هى أحسن » .

إن الله سبحانه وتعالى لن يَضِنَّ على عبد ساهٍ مخطئٍ بعفوه ورحمته ، وشفقةِ الرسول ومحبتِهِ ، من أجـل عقيدة فرعية — ولو كانت خاطئة — اعتقدها بنيَّة خالصة ، دون غرض مادى .

لأن الله ناظر إلى قلوب عباده ، وعالِم بخفايا صدورهم . ودوام هذه الاختلافات بشدتها وعُنفِها ، يعرِّض ديننا وجامعتَنا للضعف مادةً ومعنًى . فلذا يجب على أبرار الأمة البحثُ عن وسيلة لإزالة هـذه الاختلافات ، مذللين كل صعوبة فى هذا الباب .

خاتمة

إنّ ما أرى اتخاذه من التدابير للنجاة من التفرقة أمّ المصائب كلها ، أن يُعقَد مؤتمر إسلامى من أكابر علماء النحل المختلفة ، لدرس المسائل المختلف فيها فى هذا المؤتمر ، وحلّها ، و إرجاع عقائدنا إلى صفائها الأول ، دون تضييع وقت ، ثم القضاء على هذا الخصام والنفاق برضا الطرفين ولو عن إبقاء بعض ما يمكن إبقاؤه من الاختلافات فى المسائل الجزئية والفرعية .

لقد أخبر الشارع بظهور مرشد مجدد لهذا الدين فى كل قرْن ، و بوجود مسوّغ للتعديل فى الأحكام والأعمال بِحَسَب ضرورات الزمان ؛ فيجب أن تكون لهذا العصر كذلك هيئة إرشادية . كان لتاريخ الإسلام عهد المجتهدين . وفى نفس ذلك العهد افترق كثير من الفرق عن أهل السنة والجماعة . واعترف الخلفاء والسلاطين بأربعة من المذاهب والاجتهادات ، بقصد الوقوف أمام تيار هذه التفرقة ، على ما أظن ، ثم أقفلوا باب الاجتهاد إداريا — إن جاز هذا التعبير — بيد أن مثل هذا التدبير والتحديد مناف لنفس الأمر ، ولما فى روح الإسلام من حرية[٩٧] ، ومن جهة أخرى ، إن السماح لكل عالم بالاجتهاد — ولا سيما فى العقائد — يستلزم تعدد الاختلاف والتفرقة واشتدادها . فلو انعقد المؤتمر الإسلامى المذكور آنفا ، واتخذ قراراته العامة ، فلا يخلو من فائدة وجود مجلس دائمى ، مؤلّف من أكابر علماء المسلمين ، على أن يجتمع بضعة أشهر فى كل عام ، فى مكان يُختار له فى دار الخلافة ، أو فى بلد معتدل الجو بالحجاز ، كالطائف مثلا ، ويكون من واجبات هذا المجلس الأساسية الرد على الأسئلة والاستيضاحات الواردة من أنحاء مختلفة ، و إصدار فتاوى ، ووقاية الأمور الاعتقادية مما حل بها من الأباطيل ، واتخاذ ما يقتضى انتشار الإسلام من التدابير الدينية والمعنوية ، وغيرها من الأمور

الهامة العامة ، دون أية علاقة بالأمور السياسية العالمية .

***

قرأ بعض الأفاضل الأجلاء مسوَّدَة كتابى هـذا منذ عهد بعيد فأبدوا تخوفهم من أن المناقشات التى ستدور فى المؤتمر الإسلامى العام ، أو فى المجلس الدائمى ، سوف تسبب اشتداد النفاق . ولكن إذا ظل سالكو المذاهب المختلفة فى حَنَق مستمر — ولو مع السكون — فإن خصومنا سوف ينهضون للاستفادة من هذه الحالة ، وستُلهِب جمرةُ الفساد المدفونة فى الرماد نارَ القتال بريح محرضة تهب من جهة ما ، فتهدّ مبنى الإسلام ، وتذهب به . والتاريخ بل الواقع أيضا يدلان على ذلك . فالصدمات الماضية التى أصابتنا من جراء ذلك ، قد أوقعت بجامعتنا ضعفا وخرابا إلى حد لم يبق فى بنيتنا من القدرة والصلابة ما يكفى لمقاومة تكررها . فلذا يجب البحث عن وسائل الصلح والسلم على أى حال . وهذا يقتضى الاجتماع والتشاور والمذاكرة .

يفكر أولئك الأفاضل الكرام ، الذين سردت احترازهم آنفا ، بأن تعصب علمائنا المعروفين بأنهم عالميُّون إلى حد ما ومكابرتَهم قد بلغا درجة تورث اليأس والقنوط ؛ فيقتضى أن يكون آراء علماء الدين الناشئين فى بيئات أضيق فى صحارى آسيا و إفريقية وجبالهما أضيقَ من هذا . فلن يمكن المباحثات العلمية والفنية مع هـذا الضيق الفكرى . وكل مناقشة أو مناظرة تكون سببا للتباغض و إيقاظ المعارضة ، وخاصة إذا اختلط بهذه الهيئات أعضاء ممن اجتذ بهم الخارج ، فإن المصائب تتضاعف .

ولكن حكما صادرا هنا (يعنى إستانبول) قياسا على علماء البيئة القريبة ، لا يصدُق فى اجتهادى على العالم الإسلامى جميعه . و إذا أنعمنا النظر فى الماضى وفى الحاضر ثبتت صحة قولى . فمثلا كان نادر شاه قد شرع فى رفع الخلاف الذى بين السنيين و بين الشيعة ، و إزالته بإخلاص تام . وقد رُوِى تواترا أن مسئولية

علمائنا ورجالنا السياسيين أكثر من مسئولية مجتهدى الشيعة ، فى إخفاق مسعاه فى هذا الباب .

أما اتفاقية اليمن التى انتهت إلى التوفيق فى الزمن الأخير ، فكان موقف علماء الزيدية فيها أكثر تسامحا وملاءمة من موقف العلماء السنيين . لقد أعلن سمو الإمام يحيي حَميد الدين من تلقاء نفسه ، وجوب قتل من يسب الشيخين عقب الاتفاق السياسى ، فرفع بهذه الصورة الخلاف الأساسى المذهبى بين أهل السنة و بين غُلاة الزيدية . فهذا المثال وأمثاله تدل على أن عدم الثقة بعلماء سائر البلاد والأمم الإسلامية ، ليس فى موضعه . بيد أنه يُشترَط الإحسان فى اختيار العلماء الممثلين للأمم والنِّحل المختلفة فى ذلك المجلس . وفى رأيى أنه يجب أن يكون الاتجاه لاختيار المندوبين المخلصين الأنقياء أكثر من أن يكونوا من العلماء العظام .

حضر إلى صنعاء فى أثناء إبرام اتفاقية اليمن ، سيدان من المتعلمين فى مصر ، أحدهما من صَعْدة ، والآخر من تهامة . فسواء سلوكهما و سلوكُ غيرهما من العلماء الذين كانوا فى صور مختلفة فى إستانبول أو فى جهات أخرى من الممالك العثمانية ، والبلاد الأجنبية ، كان مشكوكا فى إخلاصه . على حين لم يكن السيد قاسم العِزى والقاضى حسين العَمْرى ، اللذان عملا على الائتلاف قلبا وقالبا لوجه الله ، ما كانا قد تعمقا فى علم غير الفقه و بعض العلوم الدينية ، ولم يفارقا الجبال اليمانية — فيما عدا سفرهما إلى الحج — وكانا من أرباب الزهد والتقوى ، بل من أرباب التعصب والمتانة ، إلى حد تجنب الاحتكاك برجال الحكومة العثمانية قبل ذلك التاريخ . فهما قد عملا بكمال الإخلاص والاستقامة على إبرام الاتفاقية التى رأياها مفيدة للجامعة الإسلامية .

وأقص حادثا آخر مؤلما ومؤيدا لهذا الرأى . وذلك أنه كان القاضى جغمان مفتى صنعاء من أفاضل علماء الزيدية ، فريدا فى الفقه والكلام والأدب العربى .

وقد صادق الدولة العثمانية ، وقام بمواعظ ونشرات شديدة ضد الأئمة المناوئين للدولة العثمانية ، لاعتقاده أنها هى الدولة الإسلامية العظمى فى ذلك العهد . وكان كل ذلك بلا عوض مادىّ . حتى إذا سقطت صنعاء فى يد الإمام يحيى سنة ١٣٢٣ أعدم (غفر الله لهما[٩٨]) فكيفية استشهاده شاهد ، ودليل مخلَّد على قوة ارتباطه بالوحدة الإسلامية ، و براءته من التعصب المذهبى ، وقد نشأ على مذهب الزيدية ومبادئها ، ولم يخرج من اليمن قط .

وأضيف هنا استطرادا أنى سمعت كثيرين ممن يُوثق بكلامهم ، يقولون إنه كان يوصى طلبته دائما بأن يصرِّحوا بشُبُهاتهم ، و يستكنهوها ، و يرد على أسئلتهم بأجوبة فى حدود النقل والعقل والمنطق ، رحمه الله رحمة واسعة .

مثال آخر : سيد فى الخامسة والعشرين إلى ثلاثين من عمره ، خرج لأول مرة من مسقط رأسه « حاشد » ، وقَدِم إلى صنعاء بقصد المعالجة ، وكان ذلك بعد إبرام المعاهدة ، واجتذب القلوب بعلمه وذكائه ، و بصفاء طويته ، وخلوص نيته ، مما تجلى فى معاملاته ومحادثاته البريئة من قيود المدنية المرائية ، وحدثتْ بينى و بينه صلة صداقة خالصة . وقد سمعت أنه معتاد التردد على المعسكر فى أوقات المناوبة ، لسماع الموسيقى ، فدعوته يوما ، وأدرت الحاكى (الفونوجراف) الذى أعجب به كثيرا ، وطلب إلى تكراره مرات . ومن الغريب أنه كان يؤثر أصوات موسيقى ڤاجنر ، التى قل أن يُتنبه لها فى إستانبول . فقلت له يوما ممازحا : « أليست الموسيقى حراما ؟ إنى أراك مولعا بها ! » . فقال « بلى ، يجوز أن تكون الموسيقى حراما لمن يتوسل بها من الجهال إلى سائر المحرّمات ؛ أما من يسمع مثل هذه النغمات والأصوات المؤثرة ، ويتأثر بها ، فلا يكون آثما بل يكون مأجورا » ، فلنقارن الآن بين شاب عالم عربى من « حاشِد » ، الذى نعده بلدا قاصيا فى صحراء بلاد العرب ، و بين واعظنا الشهير المرحوم الشيخ لاز الخبير بالدنيا !

و إنى أحكم بدلالة مثل هذه المشاهدات بأنه لا يحدث كثيرا ما يُتوهَّم فى

علماء سائر الشعوب من التهرب من الاتفاق فى الاجتماع الذى أراه ضروريا .

ومع ذلك ، ليس من الضرورى أن يُفهَم من كلامى هذا أنى أرى دعوة بعض الشعوب الصغيرة الزائفة الجاهلة ، كاليزيدية والنصيرية ، للاشتراك فى المؤتمر الإسلامى ؛ فإن أمثال تلك الفرق تُدفع إلى الهداية تدريجيا ، بتدابير الحكومات الإسلامية المحيطة بها وهممها . ومن البديهى أن يكون هذا المؤتمر ومجلسه مؤلفين من العلماء المختارين من الملل والنحل الكبيرة ، كالزيدية والإمامية (الاثنا عشرية) والإسماعيلية .

كان ينبغى لى أن أتجنب الحديث عن التفصيلات المتعلقة بالإجراء والتنفيذ ، وأنا أقترح القيام بعمل عام كهذا ، بيد أنى رأيت ضرورة لكتابة بعض أسطر لتوضيح المرام .

ومن رأيى أن يكون انعقاد هذا المؤتمر على مرتين ، وفى شكلين . فأما المرة الأولى فيجتمع علماء المذاهب الأربعة السنية ، ومعهم الوهابيون التابعون للمذهب الحنبلى ، و يبحثون أوّلا فى الزوائد والأباطيل التى صارت فى حكم المعتقدات ، فى جهات مختلفة من العالم الإسلامى ، و يرجعون بالعقائد إلى بساطتها الأولى ، وسلامتها الأصلية ، بِطَىِّ الأباطيل وحذفها ؛ ثم يبحثون فى المسائل المختلف فيها ، والمعترَض عليها من الأحكام ، فيحلونها توفيقا لأقوال السلف السابقين ، واجتهاداتهم ، وضرورات العصر الحالى وترقياته .

وثانيا يبحث فى العقائد المردودة للنحل التى تُعَد من الفِرَق الضّالة ، فيُثبَت مالا يمكن الإقرار به ، وما يمكن الإقرار ببعضه عينا ، و بعضه مُعدَّلا مع بعض التساهل ، وفى درجة التعديلات لعقائد تلك الفرق ، حتى تكون صالحة لقبولها ضمن الجامعة الإسلامية .

وأحس بحاجة إلى إيراد مثال آخر لإيضاح رأيى ، و إزالة ما يلاحَظ من

الإبهام فى الفقرة الأخيرة : فأكبر ما بيننا وبين الشيعة من الخلاف هو سبُّهم بعض أصحاب الرسول ، وبغضهم أياهم . و إذا حُلَّت هذه المسألة ، فالمسائل المختلف فيها تنزل إلى منزلة المناقشات التاريخية العادية . و إذا دامت إطالة اللسان بحال من الأحوال فى حق الأصحاب الأربعة المختارين ، والعشرة المبشَّرة ومقرَّبى الرسول ومقرَّباته ، الذين ثبتت فضائلهم ، وعلو مراتبهم بكثير من الروايات الصحيحة ، والوقائع المهمة ، فلن يمكن الوصول إلى اتفاق بالطبع . ولكن إذا كان بعض علمائنا يجعلون لفظ «أصحاب» الوارد فى «من أبغض أصحابى أبغضنى» شاملا لكلّ من رأى النبى وصاحبه ، فى حين يأخذه علماء الشيعة بمعنى الصديق المستعمل اليوم أيضا عند العرب ، و يعُدُّون من قام منهم بما يخالف شيمة الصداقة ، أنهم ليسوا بأصحاب ، و يبغضونهم ، فلا بأس بأن يقال لهم « إنا لا نشاركم فى رأيكم هذا ، غير أنا لا نتدخل فى شئونكم أيضا » . إن عقلى ليعجز عن إدراك العناد فى إدامة النفاق بين المسلمين ، حرصا على الدفاع عن بعض ذوى شخصيات سياسية تاريخية خلوا منذ ثلاثة عشر قرنا ، أو لإضافة بعض ألقاب التعظيم إلى أسمائهم .

إذا تم بحث أمثال هذه المسائل والمسامحات ، ونوقشت فى الاجتماع الأول ، واتخِذت القرارات ، فيجب دعوة علماء الفرق المختلفة لعقد مؤتمر آخر ، والقيام مجتمعين بمباحثات ومذاكرات باعتدال تام ، فى البحث عن وسائل حل الاختلافات وتسويتها ، ورفع الخصومات و إزالتها . فللمذاهب والنِّحَل الداخلة فى دائرة الصلاح والاتفاق بهذه الصورة ، تعين الأعضاء للمجلس الدائمى .

كنت سوَّدت هذه الأسطر منذ خمسة أعوام أو ستة . حتى إذا مضت مدة قليلة ، اجتمع بالحجاز مندوبون من الأقطار الإسلامية المختلفة . ولكن لم تترشح فى جهاتنا روايات صريحة واضحة لا عن مقاصد هذا الاجتماع ، ولا عن نتائج مباحثاته ؛ وكان موضوع مذاكراته محدودا على كل حال ، ولم يكن له نفع كبير . ومع ذلك

لم يقع ولله الحمد ما سرى فى الأوهام من المخاوف .

ويجب السعى كذلك لعقد مؤتمرات كالذى ذكرته ، قادرة على إجراء مباحثات ومناقشات حول ما ذكرت من المواضيع . وقد أظهر الجامع الأزهر مرات عديدة همة وجلدا فى سبيل المحافظة على الأحكام الدينية فى الزمن الأخير . وقامت الجمعية الإسلامية الهندية بما هو خليق بالشكر والثناء . فعلى عاتق هذين المؤسسين العاليين ، يقع أمر توحيد قلوب المسلمين بما وصفتُه أيضا ، لأن الحنيفية البيضاء التى تيتمت منذ عهد ، بعيد صارت وحيدة بالمرة .

كلمة أخيرة

إنى أفكر فى أن نقطتين من كتابى هذا قد تثيران الاعتراض وسوء الظن . أخشى أن توقظ نصائحى الخالصة فى أمر الاتفاق فى الفرق الإسلامية المختلفة ، ولا سيما الشيعة ، الهجمات والمفتريات القديمة ، التى نتجت عن تمسكى مصراً بأمر إصلاح البين مع الإمام يحيى باليمن . فقد حدث إذ ذاك أن لم يكتف المعارضون بالاعتراضات المادية والسياسية ، بل وجد من يتحدثون فى أروقة مجلس النواب والشيوخ بأنى أميل إلى الزيديين لكونى بكتاشيا أبا عن جد !

والحق أنى ولدت ونشأت على مذهب الإمام أبى حنيفة ، ولم أسلك طريقة من الطرق الصوفية . حتى إذا وصلت إلى نتيجة تتبعاتى الأخيرة ، آمنت مطمئنا بصفاء الدين المبين الإسلامى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن المحتمل جدا أن يكون أجدادى الذين كانوا محترفين الوغاء والغزو ، قد انتموا إلى الطريقة البكتاشية ، حين كانت لهذه الطريقة الصفةُ العسكرية الخاصة(٩٩) . بيد أن أبى وأولياء أمورى الذين تربيت فى كَنَفِهم وعطفهم بعد وفاته ، كانوا سُنيين أتقياء ، ولا سيما عمى ، فإنه كان نقشبنديا خالديا .

فالملاحظات التى سردتها فى كتابى ، ليست منتقلة إلىّ لا عن طريق الوراثة ولا عن طريق تربيتى الأولية ، ولا عن طريق نظريات علم الكلام ؛ وإنما تولدت من قراءتى وتتبعاتى العلمية والتاريخية ، وتجاربى الشخصية ومشاهداتى ، ومن الآراء الخاصة فى السياسة الدينية — لو صحّ التعبير — .

إنى أعتقد أن حب بعض الأشخاص التاريخيين و بغضَهم ، لا يجوز أن يكون لهما قيمة معنوية قادرة على أن تقيم ثلاثمائة مليون من النفوس بعضها على بعض ، بعد ألف وثلاثمائة عام . والعاقل يتجنب المعاندة فى مثل هذه الدعوى الواهية . ومن أحب دينه أراد اعتلاء كلمته ؛ وهذه الإرادة قوة ، والقوة تحدث بالوحدة وتقوم عليها .

وكذلك يحتمل أن آرائى الحرة التى ذكرتها فى مبحث معاتبة العلماء ، قد لا يستسيغها بعض المتعصبين ، ولا يستطيع الإحاطة بها . ولكن يجب على من يستمسك بدينه ، أن يعتبر بسعة قريحة فخر الأنبياء وبعد نظره ، وأن يتمثل سيرته فى الحرية والسماح . ولا ينبغى له أن يغمض عينه عن نور النقد والمباحثة . فالرسول الأكرم الذى قال : « الحكمة ضالة المؤمن أخذها حيث وجدها» وقال : « أطلبوا العلم ولو بالصين » ، إنما أراد بذلك إجلال العلوم والفنون التى هى نتيجة الذكاء .

من واجب العلماء ، بل من واجب جميع الأمة ، تقوية جامعتهم المذهبية وتوسيعها ؟ فلذا يجب إرشاد الناس إلى تلك الجامعة بحسب استعداد الزمان ، وربطهم بها . ولا يكون هذا مع الغفلة والتعلق بالكتب القديمة وحدها ، بل يقتضى تتبع الترقيات العلمية وتطوراتها ، وتوسيع أفق الأنظار والأفكار . إنى لست مدعيا بأن كلّ ماذكرته فى كتابى هذا من الآراء صحيح بلا ريب . وينبغى للعلماء كذلك ألاّ يحكموا ببطلانها كلِّها قبل التحقيق .

أما كلامى ونقدى لما نلاقى من المشاكل فى الاندماج فى عالم المدنية ، بسبب تعلقنا الشديد ببعض العادات والتقاليد والأزياء التى لا صلة لها بالأسس الدينية ، فقد يوجد — نظرا إلى ما حدث فى تركيا من المقررات والإجراءات بعد كتابة تلك السطور — من يفهمه فى صورة ميلى ومسايرتى لمجرى الأفكار الحديثة . ولكن إذا قرئ كتابى بتدقيق وإمعان ، تبين توجيه الاعتراضات إلى خصوم العلماء ، أكثر من توجيهها إليهم ، والإعراضُ عن آراء ذوى السلطة واتِّباعهم .

لقد اتقيت الإفراط والتفريط طول عمرى ما استطاع عقلى فهمه . واستمسكتُ بحبل الاعتدال باخلاص تام وقلب سليم ، ولكنى لم أستطع إرضاء جهة ما ، فكنت كما يقال : « المخلصون على خطر عظيم ! » وإنى آمل من اللطف الإلهى أن ييسر لى الدخول فى زمرة « من أتى اللهَ بقلب سليم » .

هوامش كتاب الدين والعلم

(١) ص ١ : لفظ « اللاديني » ، وضعه في اللغة التركية المرحوم ضيا كوك آلب ، مقابلا لكلمة (Laïque) الفرنسية . وكلمة لاييك مشتقة من اللغة اللاتينية ، ومعناها غير متخصص في علم ومسلك . ويستعملها الألمان بمعنى غير متخصص بشكل « لاي » . وخصص الفرنسيون إطلاقها بالذى لم يدخل في جماعة الرهبان . فلو ترجمت كلمة (Laïque) بكلمة « لارهبانية » بدلا من « لا دينية » ، كانت أصح ، وهذا معروف في ديننا تصديقا بالأثر « لارهبانية في الإسلام » ، فلا يلزم من وصف الإنسان « لا ييك » أن يكون كافرا . وهذا الغلط في الترجمة كان يدفع الشبان إلى الانهماك في الإنكار بلا شبهة .

(٢) ص ٧ : ليس المراد من اليقين هنا إدراك أصل الشيء ، أوالتيقن من ماهِيَّة الخلقة ؛ فإن موضوع هذا الكتاب إثبات أنَّ سر الخلقة لا يمكن إدراكه .

(٣) ص ٨ : إن ما فهمته من بيان النسبيين هو أن سرعة الضوء أعظم سرعة يمكن قياسها ، وهذا لا يدل على أن ليس في العالم سرعة أكبر منها ، بل على حساب الرياضي الكبير « لا پلاس » أن سرعة الجاذبية أضعاف سرعة الضوء بسبعة ملايين مرة .

(٤) ص ٨ : وكيفية السمع أيضاً كالرؤية ، فالأصوات تؤثر في السامعة من مسافة على حسب شدتها . وكلما طالت المسافة ضعف تأثيرها إلى ألاَّ يمكن استماعها ولو بواسطة الـ « مجافون » والـ « ميكروفون » . ومن الممكن زيادة مسافة الاستماع ، لأن قوة الصوت تتناقص بحسب مربع المسافة ؛ فالصوت الذى يسمع من مسافة متر بوضوح ، يضعف سماعه من مسافة عشرة أمتار مِئَةَ مرة .. الخ . وهذه الآلات كذلك لا تفيد . أريد أن أذكر استطرادا الكيفية الآتية :

إن التليفون والراديو اللذين اخترعا أخيرا ، يوصلان الكلام من مسيرة آلاف الكيلومترات، ويبدو ظاهرا أنهما مخالفان لقوانين انتشار الصوت . فهذا الحادث يقع لأن سيالا آخر كهر بيا لا ينقل الصوت ، بل يحدث فى مسافة بعيدة ، اهتزازات جوية ، يحدث ببعضها الصوت عندنا . فعلى هذا لا يكون مخالفا لقانون انتشار الصوت . فيُستنتَج من هذا أن ما تشاهد من التغييرات فى قوانين الطبيعة أحيانا ، وفى جملتها المعجزات ، تحدث بتوسط قوى طبيعية أخرى لا نعرفها ، فلا وجه لردها و إنكارها جملة ، وهذه القوى مجهولة لنا ، مع أنها مكنونة فى الطبيعة العظمى ، وليس بمستبعد تأثيرها فى حين مَّا ، وفى صورة مَّا . ولهذا ليس إنكار كل ما يسمع من إدعاء ، بأنه مخالف لقوانين الطبيعة ، بدون بحث وتدقيق ، من العلم والعرفان ، بل هو من الجهل والطغيان .

(٥) ص ٩ : يتضح من الأمثلة المتقدمة أن كروية الأرض ، وطول موجة الضوء وسرعتها ، لا تسمح بالرؤية والرصد إلا إلى حد مّا .

(٦) ص ١٠ : قد يبدو للقارئ تناقض بين شروعى فى هذا التأليف ، واعترافى هذا ، ولكن الإنسان مجبول على أن يدافع عن أمر يحسبه حقا ، على قدر طاقته . فقد ذهب أدراج الرياح ما سبق لى من خدمات قمت بها فى السلك الذى نشأت فيه من صِغَرى . ولم يبق لى ما أدخره لمَشيبى إلا حَبيبة وجدانى ، وهى عقيدتى الدينية . ولمَّا رأيتها قد أشرفت على التزلزل فيما حولى ، هاج قلبى ، ودفعنى إلى هذا التأليف ؛ فالمرجو من القارئ الكريم أن يغض الطرف عما عسى أن يرى من الخطأ والنقصان فى بيانى ، وأن ينظر إليه بعين السماح والعفو . ومع ذلك أقول إن مثل هذا الكتاب ، يجوز بل يلزم أن يكتبه من لا يكون مقيَّدا بمذهب خاص . وقد أحسست حين التأليف ، من مباحثاتى مع المتخصصين فى علم دون علم ، أنهم كثيراً ما يتقيدون بآرائهم الشخصية ، ونصوص علمهم . وإنى آمل أن يصدّق المنصفون عند قراءتهم هذا الكتاب ، أنه نتيجة

فكر حر منزَّه عن التعصب . وأقول مع ذلك إنى ما استغنيت عن الرجوع إلى آراء علمائنا ، بل احتجت إليها راغبا فيها ، واكتسبت منها فوائد .

(٧) ص ١٠ : لما فُتِح صندوق الشهادة فى زمن النبى سليمان عليه السلام ، لم يوجد غير لوحين مشتملين على الكلمات العشر من التوراة . والذى وجده الكاهن « خلقيا » وأخبر به الملك « يوشيا » من نسخ من التوراة قد ضاعت عند استيلاء بخت نصَّر ، والتى كتبت برواية النبى عزير عليه السلام ، و برواية أحبار اليهود من نسخ من التوراة محيت فى زمن « أنتيوخس » .

(٨) ص ١١ : والقرآن الكريم ، وإن كان قد وقع ترتيبه على أربع صور ، لا تختلف نسخه فى الآيات القرآنية . وما رواه الأعداء من أن بعض آياته حذف ، و بعضها حرِّف ، واه جداً . وقد رد المحققون عليها بأدلة قوية ، لا حاجة بنا إلى ذكرها فى هذا الكتاب . وجميع مذاهب المسلمين متفقة على أنه محفوظ كما أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم وتلاه .

(٩) ص ١١ : لم يكن قصد « سنت أجوستن » بهذا القول على ما يفهم من ظاهره ، وعلى ما يفسره مخالفوه عبثا إلى هذا الحد ؛ فإن قصده شدة التزام الإيمان ، ولكن قوله يقتضى مع هذا قبول الإيمان من غير بحث عقلى . وشدة التمسك بالإيمان مطلوبة فى الإسلام كذلك ، ولكن الاستدلال العقلى لا يمنعها بل يعينها . والإنسان الكامل إذا تفكر فى نفسه وفى الآفاق ، اطمأن قلبه إلى الإيمان .

(١٠) ص ١٥ : لا يسند العقل إلى الله فى الكتب الدينية ، و يستعمل بدلا منه كلمة العلم والحكمة .

(١١) ص ١٦ : أتى كثير من الحكماء منذ عهد « كَنْت » و « لا پلاس » بكثير من النظريات فى أمر التكوين ، ولكن ليس فيها ما يطمئن إليه القلب ،

وتزول به الشبهات . والعقل مضطر إلى البحث عن السبب الأول ، وراء الأسباب التى ذكروها .

(١٢) ص ١٦ : السحابيات البدائية غير المشكلة (Amorphe) هى عناصر « الإيدروجين » و « النبليوم » و « الهليوم » . وليس فى الشموس وتوابعها من عنصر « النبليوم » . وتعرف العناصر المؤلفة منها الأجرام السماوية بالتحليل الطيفى [واكتشفت أخيرا عناصر أخرى فى السّحابيات] .

(١٣) ص ١٧ : أول من وضع نظرية حدوث المادة من تكاثف القوة ، الذى يحدث من الزوابع الحادثة فى الجو الأثيرى ، هو جُستاف لوبون من عظماء حكماء فرنسا . وأيّدتها الكشوف الأخيرة وسلم بها أكثر الحكماء ، بيد أن بعضهم اعترض عليها ، فلذا ذكرناها بكلمة الشك .

(١٤) ص ١٨ : ذُكِرت فى كتب الفلسفة أدلة منطقية لإبطال تسلسل العلل إلى ما لا نهاية له ، وإبطال الدور ، وأجاب المخالفون عنها ، ولكنى صرفت النظر عن المناقشات التى لا توافق طريقة استدلالى ، واستعنت لإثبات المدعى ، وإيضاح المرام ، بأمثلة مأخوذة من الحادثات والكائنات .

(١٥) ص ٢٣ : كلمة الجوهر ليست هنا بمعناها الفلسفى ، بل بمعناها الرياضى . وتفيد هذه الكلمة فى الميكانيكا نسبة ثقل شىء إلى مقدار التعجيل — وهو تزايد سرعة سقوط جسم فى مكان خال من الهواء فى كل ثانية ، وهى ٩٫٨ مترا فى درجة عرضنا — وهذا هو المراد .

(١٦) ص ٢٣ : إن ما حدث من التطورات والكشف فى علم الفلك فى المائة والخمسين سنة الأخيرة ، أسقط إلى حد ما قيمة نظرية لاپلاس فى خلقة العالم . ولكن هذه الكيفية لن تقدر على انتقاص مقدار ذرة من الاقتناع بأن الخليقة ليست أثر مصادفة ، فقد كان يُظن فى أيام لاپلاس أن الأجرام الداخلة

فى المجموعة الشمسية تدور بلا شذوذ إلى جهة واحدة ، أى من الغرب إلى الشرق تقريبا . وقد عُلم ، ولاپلاس يُظهر نشوء هذه الكيفية من أسباب استقرار المجموعة الشمسية ، بأن محور السيار « أورانوس » وأقماره الأربعة ، وقمرا واحدا لكل من المشترى وزحل تدور إلى جهة عكسية ، فسقط بذلك دليل من أدلة لاپلاس . بيد أن تحقق نظام المجموعة الشمسية — برغم انتفاء أحد الأسباب المبنى عليها — لم يثبت احتمال تأثير القدرة والحكمة الإلهية فى ذلك فحسب ، بل زاد فيه .

(١٧) ص ٢٥ : الحساب الاحتمالى مشكل ومشوّش جدا ، وإنما سردته تسهيلا لفهم القياس الذى ذكرته والذى قرأته فى كتاب «المجهول L'inconnu» لكميل فلاماريون . وهذا القياس موافق لدساتير الحساب الاحتمالى ؛ ولهذا لايجوز الشك فى صحته . وفى السماء كواكب لها مجموعات ليست خمسة وعشرين ولا خمسة وعشرين ألفاً ، بل ينبغى أن نقبل بالقياس أنها بالغة مئات الملايين .

(١٨) ص ٢٥ : تقريبا للعدد الذى يدل عليه الرقم المشتمل على ثلاثمائة من الأصفار بالمثال ، رأيت من المناسب أن أذكر نبذا عن تشكل المادة .

تتركب الأجسام من أجزاء صغيرة جدا ، كان الحكماء من قديم الزمان يفرضون وجودها . وتسمى هذه الأجزاء « مولكول Molécules » فى اللغات الأوربية والجزء الفرد فى اللغة العثمانية وسميت أخيرا بالذرات . وهذه الأجزاء أو الذرات كان يظن عدم تجزئها . وعلم أخيرا أنها متجزئة فى الأجسام البسيطة إلى أجزاء متجانسة ، وفى الأجسام المركبة إلى أجزاء مختلفة تسمى « أتوم » . وتبين من المكشوفات الحديثة (كالراديوم وغيره) ، وبالتجارب والحسابات الموثوق بها ، أن الأتوم مركب من جزء أصلى يسمى الـ « پروتون » ، أو « النوكليون » ومن « إلكترون » أو « إلكترونات » : (كهيربات) تدور حول الپروتون .

والپروتون أى الجزء الأصلى لأتوم الإيدروجين ، أصغر الموجودات المادية ، التى كشفت حتى الآن ، (بناء على النظريات الحديثة ، حدوث المادة من تكاثف القوة . وتكوّن پروتون الإيدروجين من حُبَيْبات كثيرة للقوة . وليست هذه الجهة متعلقة ببحثنا ، ولكن يبدو لنا أن الماديين بعيدون كل البعد عن إدراك وجه تشكل المادة التى يعبدونها) . وقطر هذا الپروتون ، بحسب الحسابات والتجارب المطابقة للعقل ، جزء من ستمئة تريليون جزء من المتر . وأصغر مايميزه البصر بلا واسطة الأجهزة هو جزء من عشرة آلاف جزء من المتر أى معشار معشار الذراع (دسيمليمتر) . فنسبة « الپروتون » وهو أصغر الموجودات المادية إلى « ديسيمليمتر » ، وهو أصغر المرئيات ، كنسبة أصغر المرئيات هذا إلى نصف قطر الكرة الأرضية ، الذى هو ستة آلاف كيلومتر .

فى علم الفلك تستعمل السنة الضوئية وحدة قياسية لبيان الأبعاد السماوية ، كاستعمال المتر أو الكيلومتر لبيان الطول أو المسافة على ظهر الأرض . والسنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة . وهو يقطع ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثانية . فمسافة السنة الضوئية عشرة تريليونات كيلو متر تقريبا (وتحقيقا ٩ر٥٦١ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ كيلو مترا) . فلنحفظ هذه الكمية الصغرى والعظمى فى الذهن ، ولنفرض الپروتون مكعبا ، ونضع الپروتونات بعضها على بعض بلا فاصل ولا مسافة بينها ، بمقدار الرقم الذى فيه ثلاثمائة مرتبة عددية ، يحدث حجم مكعب ، يكون ضلعه بمقدار رقم مراتبه العددية ٦٩ من السنين الضوئية . ويعجز إدراك البشر عن الإحاطة بمثل هذا العدد . ونسبة هذا إلى طول القطر الكبير لمجرّتنا ، (وهو يقدر بعشرة آلاف سنة ضوئية) كنسبة هذا القطر إلى قطر الپروتون تقريبا .

إنى مع إيمانى الكامل بعظمة الخليقة ، أشك فى وجود الأتومات بهذا المقدار فى العالم .

(١٩) ص ٢٦ : حياة الأتومات لبوتاريك (Bautaric) .

(٢٠) ص ٢٩ : الأثير ، وهو من الفرضياب ، وليست له علاقة بالمادية ، بناء على تعريف الذين فرضوه . فلو سُلِّم بأنه حال انبساط القدرة الصمدانية وانتشارها ، فلا مانع من التصديق بأزليته .

(٢١) ص ٣٠ : إذا لاحظنا أن مرور الزمان وتماديه يكون متناسبا تناسبا عدديا نحو :

١ ٢ ٣ ٤ ١٠ ٢٠ ؛ ونسبة الاحتمالات كما فصلنا فيما سلف ، تترقى متناسبا تناسبا هندسيا نحو : ٢ ٤ ٨ ١٦ ١٠٢٤ ١٠٤٨٥٧٦ ؛ فهذه الدعوى الواهية تفقد قيمتها . ولكى نفهم هذا القول استحسنا ذكر ما يأتى :

بناء على النظرية التى سردها المحققون من علماء الفلك والتكوين ، حدثت العوالم مماوقع من الخلل فى السحابيات ، بسبب خارق للعادة كالتصادم مع أجسام خارجية ، أو بتكثفها وانقباضها إلى مركزها ، ومما تولد من الحرارة من هذا الحادث ، ولاحاجة إلى نظام يضمن تطورها واستقرارها إلامنذ بدأ هذا الاختلال فيها . ولو سلمنا بأن أجزاء المادة التى تتكون منها السحابيات أزلية ، فاختلالها وتطوُّرها حادث ، لأن له مبدأ . وتُشاهد فى السماء سحابيات غير مكوَّنة (Amorphe) فى حال ابتدائى ، ومنها ما تطوَّرت وحدثت فى جوها شموس ومجموعات شمسية كاملة انطلقت من غمام السَّديم . وكل ما يتحوَّل فهو حادث . فإذا رمزنا إلى عدد السنين التى مضت من بدء هذا الاختلال إلى يومنا هذا بحرف « ن » ، وفرضنا فى مقدار الموجودات الكونية من الأتومات إلى الشموس والسيارات وما فيها — وهو عدد يكاد يكون لانهائيا — وسلّمنا بأن احتمال التصادف فى الخلقة ليس كواحد على تريليون ، كما أثبته لاپلاس للمجموعة الشمسية ، بل كواحد على اثنين ، صار مخرجُ نسبة لاپلاس ($\frac{ن}{٢}$) ، نظراً إلى إثباتنا فيما سبق أن استقرار كل موجود يتبع نظاما أصليا واحدا ، فهو عدد لا يحيط به العقل . ويُرى

من السلسلتين اللتين ذكرتهما آنفا أن حاصل ن = ١٠ وحاصل $٢^{ن}$ = ١٠٢٤ وأن حاصل ن = ٢٠ وحاصل $٢^{ن}$ يكون أكثر من مليون ، وأن حاصل ن = ٣٠ يكون $٢^{ن}$ أكثر من مليار وهلم جرا .

(٢٢) ص ٣١ : لمناسبة المقام استحسنت أن أذكر فى الحاشية كلمات عن هذه المسألة التى شوشت أذهان الشباب .

إنه بعد أن ثبت من تدقيقات الحكماء ، ولا سيما پاستور ، وتجاربهم العلمية ، عدم تحمل الحياة الحيوانية والنباتية ، الحرارة الشديدة ، واتضح عدم إمكان صدورها فورا من تلقاء نفسها ، صارت كيفية نشوء الحياة فى الكرة الأرضية موضع تأمل . فقد فُرِض انتقال عنصر الحياة إلى الأرض بواسطة النيازك ، التى انشقت لسبب ما من بعض الأجرام السماوية المسكونة من قبل ، ولكن تحقق أخيرا عدم إمكان هذا التصور . وصار فرض فيلسوف السويد «سونت أرنيوس» أكثر قبولا ، وهو .

إن أية پروتوپلاسم كانت على كرة مسكونة من قبل ، يمكن أن تعلق بزوبعة ، وتصعد إلى أعلى طبقات الجو النسيمى ، التى يتعلق فيها الغبار السماوى الحامل للكهربية السلبية المحدثة للفجز الشمالى .

وتكتسب منه الكهربية السلبية . ولما كانت الكهربيات من جنس واحد متنافرة ، يدفع بعضها بعضا ، اندفعت تلك الجرثومة إلى الفضاء ، وعلقت فيها بذرّة من غبار العالم ، ووصلت إلى كرة غير مسكونة خمدت حرارتها إلى درجة تساعد على الحياة . وظلت سنين كثيرة طائرة فى الجو ، ثم نزلت إلى سطح كرة ، وولدت فيها الحياة .

وتصل هذه الجرثومة (الپروتوپلاسم) من الأرض إلى المريخ فى عشرين يوما (فى بعدها الأصغر) ، وإلى المشترى فى ثمانين يوما ، وإلى نپتون فى خمسة

عشر شهرا ، و إلى مدار الشمس الأقرب إلينا فى تسعة آلاف سنة . وقد ثبت بالتجارب أن البكتريات تحافظ على خاصية النمو سنين عديدة فى ٢٥٠ درجة تحت الصفر فى مكان خال من الهواء والرطوبة . ومهما يكن الأمر فهذه الفرضيات والتأويلات وإن صوّرت انتقال الحياة من كرة إلى كرة أخرى ، فمن أين وصلت الحياة إلى الكرة الأولى ، التى هى مبدأ الحركة ؟

إن الجرثومة التى فُرِض وصولها إلى الأرض بالصورة المذكورة آنفاً ، ونشأت منها أنواع النباتات والحيوانات بطريق التطور ، محل نظر ومناقشة كما سيأتى :

ضمَّن علماء جيولوجيا فى نتيجة بحوثهم وتحقيقاتهم ، أن الأرض بدأت تتصلب ويتكون لها قشر قبل مليارين من السنين ، وأنها بعد تصلبها أحاط بها بخار الماء زمنا طويلا ، ثم تكاثف البخار وتجمَّع ، وصار سطحُ الأرض كله تحت الماء ، فاعتدلت حرارته تدريجا . وهذا ما يُسلِّم به أكثر الحكماء . و بما أنه قد ثبت بالتجارب أن مادة الجيلاتين التى حدثت منها البروتوبلاسم ، وهى أدنى حاملة الحياة ، لا تتحمَّل الحرارة فوق أربعين درجة مدة طويلة ؛ فلذا لا يمكن حدوث الحياة الحيوانية إلا فى الربع الأخير من تكون قشرة الأرض ، أى قبل خمسمائة مليون سنة فى الماء ، لأن الأرض كانت محاطة بالماء حينئذ . وعند ظهور اليبس فوق سطح الماء إما بتناقص المياه أو بارتفاع الطين بدفع البراكين تدريجيا ، كانت الجراثيم أو الحيوانات قد ألقيت فيه بحادثتى المد والجزر ، وأحدثت ما كان منها قابلا للامتزاج بالمحيط النسيمى بحسب طبيعتها ، النباتات والحيوانات البرية بالتطور

خمسمائة مليون سنة ! مدة طويلة بلا شك ، ولكن ليست غير متناهية ، وكفايتها لصيرورة البروتوپلاسمَ من تلقاء نفسها إنساناً بالتطور التدريجى محل نظر . والتطور التدريجى لابد أن يكون بالتسلسل الهندسى تقريبا ، لأن كل ما ينضم إلى الأصل يزيد قوته وقابليته للجر والاقتباس ، فيزداد المكسب فى كل

لحظة وفى كل حدّ ودرجة . والدرجات الأخيرة تترقى أزيد من الدرجات المتقدمة .

إذا ألقينا نظرة إلى الماضى بملاحظة هذا الأساس ألفينا أن نوع البشر تمدنت منذ خمسة آلاف سنة أو ستة آلاف ، تمدّناً عظيما ، وقيدت تاريخ الأمكنة التى استوطنتها . فمنذ ذلك الزمان ما عُلِم أن نوعا من الحيوانات تغير إلى نوع آخر بالتطور . حدث باختلاط النسل بعض تغير فى الخيل والكلاب والدجاج ، فى شكلها وخواصها ، أو فى حيوانات نقلت من إقليم آخر ، حدثت فيها تبدلات عضوية كى تقاوم مؤثرات الوطن الجديد وشدائده ، بيد أن هذه التبدلات القليلة لا تدل على تبدل نوع بنوع آخر . وتبدل لون الإنسان بحسب تبدل الإقليم أو ترقق جلد الحيوان أو تغلظه لا يكون علامة لتبدل النوع .

ومن المعلوم أن الحيوانات من أنواع مختلفة لا يلقّح بعضها بعضا ، ولو لقح لم تنتج من هذا التلقيح نتيجة ، وإن ولدت كان ولدها عقيما كالبغل . ولم توجد فى المتحجِّرات (Paléontologie) سلسلة أو أمارة تدل على ارتباط أنواع الحيوانات بعضها ببعض . وجِد فى المتحجِّرات هيكل عظمى لحيوان سمى اكويدى (Equidé) يُظن أنه أصل جنس الخيل والحمير وحمار الوحش والبقر ، وهو أصغر من الخيل الموجودة الآن ، وأنواعه مختلفة : نوع فى رجله حافر كالخيل ، ونوع له ظلف كالبقر ، ونوع له أظلاف . وحتى لو فرض أن نسل الفرس ظهر منه ، فإنه لم توجد سلسلة تنتهى فى مراتبها السفلى إلى الوزغ مثلا أو إلى الحوت ومنها إلى الحشرات وإلى البكتريات . ونحن لا ننكر كذلك التطور فى الحيوانات ، والتحولات القليلة فى عضوياتها ، ولكن حدوث كافة الحيوانات من پروتوپلاسما وارتقاءها إلى أن تصير إنسانا فى زمان محدود غير خليق بالقبول ، ولا قابل للإثبات .

أما الإنسان فلم تكن قدرته ومهارته فى نحت التماثيل قبل ستة آلاف سنة أقل مما هى فى زماننا . ويُستدل من النظر إلى الأصنام والتماثيل التى انتقلت إلينا أن أشكال الناس فى ذلك الزمان وجثثهم ، ليست مخالفة لأشكالنا وجثثنا .

فإذن لا يتصور رجل ، له إلمام بالتاريخ ، وجود فروق بين رمسيس وكسرى وإسكندر وقيصر ، وبين قواد زماننا وساسته ، وكذا بين أقليدس وسقراط وكونفوشيوس ، وبين حكماء عصرنا ، فى المخ والقابلية الفكرية . وإن كانوا لا يعرفون أكثر علوم عصرنا وفنونه ، لأنها تقدمت بعدهم بالتناسب الهندسى ، ولكن هذا لا يدل على عدم قدرتهم على الإحاطة بعلوم عصرنا ، بل إن لهم شرف وضع الأسس للعلوم الحاضرة . وقد وجدت فى الزمن الأخير أجساد من كانوا عائشين قبل عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف سنة ، سالمة من الفساد فى قبورها ومتحجرة ، بفضل المواد الكيميائية الواقية ، وهى لا تفترق عن بنية من فى زماننا بشىء ، حتى بألوان الجلود .

وقد اكتشفت بالحفريات الأخيرة آثار متعلقة بمن كانوا عائشين قبل مِئتى ألف عام ، وهيا كل عظام أجسادهم ، وليس فيها فرق عظيم عن الإنسان الموجود الآن ؛ ووجدت أسلحة بدائية مصنوعة من الأحجار . وترى على الأسلحة والمغارات التى سكنوها تصاوير منحوتة منظمة . فقد كانوا إذن متمدينين أكثر من قبائل إفريقية وأوستراليا والأسكيمو الموجودين اليوم .

فمع أن حدود التطور الأخيرة كان ينبغى أن تترقى بسرعة أكثر بالنسبة إلى الحدود المتقدمة ، لم يظهر فيها فرق محسوس فى آلاف السنين ؛ فيلزم للرقى من جرثومة پروتوپلاسما أو من حال البهيمية إلى حال القدرة على صنع الأسلحة ونحت التصاوير نحتاً متقنا من تلقاء نفسه (من غير إلهام الغيب) أمد طويل جدا . إذا لم يُظهِر التطور التدريجى فرقا فى نوع ذوى الأرواح وفى شكله فى خمسة آلاف سنة أو عشرة آلاف ، أو مائة ألف أو مائتى ألف من السنين (اكتشف أخيرا فى الصين عظام إنسان قُدِّر قدمها بمليون سنة) ، فلا يسلِّم العقل بتحول الجرثومة من (پروتوپلاسما) إنساناً فى خمسمائة مليون من السنين .

وأما فرضية نشوء الإنسان من تطور القردة فليست بمبنية على أساس .

فالشمپانزى ، وهوأذكى أنواع القردة ، ما استطاع إلى الآن أن يتعلم كلمة واحدة من لسان الإنسان ، على حين أن أدنى نوع الإنسان الأوسترالي والزنجى المتوحش إذا ربوا من صغرهم ، يمكنهم أن يتعلموا لسان المتمدنين من الناس ، ويعرفوا الصنائع ، بل يمكنهم أن يتعلموا كثيرا من العلوم وحتى الفلسفة . فعلى هذا هناك فاصل عظيم بين الطبقة السفلى للإنسان ، والطبقة العليا للقردة . لو كان هذان النوعان من الحيوان فى سلسلة واحدة لِمَ تبق الحدود البدائية وتختفى المراتب المتوسطة دون أن تترك أثراً ، مع أنها يلزم أن تدوم أكثر منها ؟ ولِمَ لم يشتمل قانون بقاء الأصلح على الحدود البدائية وانحصر اشتماله على المراتب المتوسطة ؟

وصف جُستاف لوبون فى كتابه المسمى « الحضارات البدائية » القبائل الوحشية ، معتمدا على روايات بعض الرحالة ، بعدم الأهلية لشىء ، وبسوء الطبع والقسوة وأنهم أشبه بالحيوانات منهم بالإنسان . واستدل من هذا الوصف على أنهم فى المراتب المتوسطة بين الإنسان والحيوان فى سلسلة التطور .

وليس لى علم بحياة المتوحشين الاجتماعية من أبحاثى الخاصة ، بل من روايات كتب السائحين ، فلذا لا أقدر على الاعتراض فى هذا الشأن ، ولكن هؤلاء الأقوام ، إذا نُظِر إليهم منفردين فلا أشارك هذا الفيلسوف فى رأيه . فقد عرفت مذ كنت صغيرا فى منزلى وعند كثير من أقاربى وأصدقائى معتقين من العبيد من قبائل مختلفة فى إفريقية ، وأولادهم الأحرار . فأولاد إفريقية إذا أخذوا من أهليهم وهم صغار ووقعوا فى أيد طيبة كانوا أصدقاء صالحين بلا استثناء . حقا أنهم لم يكن لبعضهم استعداد لتعلم الحساب ، ولكن فيهم الأذكياء كذلك مثل نادرأغا ، أحد خصيان السلطان عبدالحميد ، الذى كانت له كفاية فى جميع المعارف ، ولا سيما الحساب والكتابة ، وقد نشأ من أغوات قصور العثمانيين من يُعَد من العلماء والأدباء ، وصادفت فيهم من ولدوا فى تركيا وآباؤهم من إفريقية ، وصاروا مديرى التحريرات ، ومفتشى الحسابات ، وأطباء حذاقا وضباطا أركان حرب . وبخلاف

ذلك الحيوانات الأهليـة التى تطوف حولنا من زمان بعيد ، والوحوش والطيور التى تعيش وتتربى فى حدائق الحيوان جيلا بعد جيل ، هل يُشاهد فيها ما اقترب إلى الإنسان بخصلة ما ؟

إن الأقوام والقبائل المختلفة وإن لم يقطعوا مراحل التمدن بدرجة واحدة ، فأفرادهم يتساوون فى القابلية والفطرية مع أفراد سائر الأمم . وكما أن هناك تفاوتا فى القابلية بين أفراد قوم واحد ، فإن هناك تفاوتا كذلك فى القابلية ، بين القبائل والشعوب الإنسانية ، ولـكن الإنسان إنسان ، والحيوان حيوان بوجه عام .

أحسب مستدلا بهذه الملاحظات أن نظرية تطور الحيوان ليست نتيجة تدقيق عميق ، ومع ذلك أولع بها الناس ، من أجل الآراء التى وجِّهت من قرن أو قرنين ، على الحـكومات المستبدة المدعية الاعتماد على الأديان ، ونفَّرت الناس من الدين . فـكلفوا بالنظريات التى تخالف العقائد الدينية .

وكثير من علماء التاريخ الطبيعى ، لا يقرون بالعلاقة النوعية بين الإنسان والقرد .

أولا — لأن غذاء القرد الطبيعى الفواكه ، وأسنان الإنسان وأجهزته الهضمية صالحة لأكل كل شىء . وهو على قول المؤرخين لم يعش فى الزمان الأول إلا على اللحم ، ولو كان لحم أبناء نوعه . وكيف يقبل العقل أن ينشأ نوعان مختلفان فى أصل غذائهما إلى هذا الحد ، بعضهما من بعض .

وثانيا — لأن الزاوية الوجهية للإنسان تتراوح بين ثمانين وخمس وثمانين درجة ، فى حين أن الزاوية الوجهية للقردة ٢٦ درجة . وهكذا الزاوية الوجهية لسائر الحيوانات أو أكثر .

وثالثا — لأن ثقل مخ رأس الإنسان يتراوح ما بين ١١٠٠ و ١٣٠٠ جراما وثقل مخ رأس القرد « أورانج أوتان » خمسمائة جرام ، مع أنه أكبر من

الإنسان حجما . وعدم حاجة أولاد القردة حين ولادتها إلى المعونة ، وسرعة نموها ، تدل على أنها من البهائم طبيعة . إنه وإن سُلِّم بأن القرد أشبه الحيوان بالإنسان من جهة البنية والصورة ، بيد أنه من جهة الذكاء أبعد عنه من كثير من الحيوانات .

ولما تبين بأمثال هذه الملاحظات والتدقيقات الأخيرة ، بطلان أقوى أدلة مروجي نظرية التطور ، وهو « أن الجنين يتحول فى رحم أمه إلى أشكال شبيهة بأجنة الحيوانات التى مَثّلها الإنسان حين تطوره » ، فُقِدت أهمية نظرية التطور التى وضعها « لامارك » و « داروين » وبالغ فيها « هيكل » ومن ساهمه . إن قانون التطور سائر فى العالم ، ولكن المستبعد هو تطور جرثومة من تلقاء نفسها فى الكرة الأرضية المحدد عمرها ، حتى تصير إنسانا . ووجود القانون لا يغنى الإنسان عن الاحتياج الفطرى إلى البحث عن واضعه .

وظهرت فى الزمان الأخير فرضية الوثوب (Mutation) أى تطور أنواع الحيوانات بالوثبات السريعة والفورية ، وإن كانت استنتجت أولا من التحولات السريعة المشاهدة فى النباتات ، إلا أننا لا نعلم إلى متى يدوم رونقها (موضتها) . ثم إننا إذا سلمنا بالتحولات السريعة فلا بد لنا من البحث عن سببها ، ولم يبين واضعوها أنهم اكتشفوا لها سببا .

قال فرنكلين العالم الأمريكى المتخصص فى علم الحيوان فى كتابه : « سير التطور البشرى » : « إن تطور الإنسان من غير استمداد من قوة معنوية ، وتقدمه فى الطريق المرسوم للرقى ، من الحيوانية إلى الإنسانية ، يستحيل كما يستحيل فى مطبعة جمع كتاب من تمثيليات شكسبير بالقاء الحروف كيفما اتفق بدون تفكير . وليس من شك فى أن التطور أوجد الإنسان لا من المصادفات البحتة ، بل هو تطور كانت فيه من أوله إلى آخره يد الله القادر المتعال » . إن

هذه تذكرة من رجل عليم ، للذين ليس لهم اختصاص فى علم من العلوم و ينتهزون الفرص للإنكار كلما سمعوا من الروايات الصادرة من عقول الحمقى .

إن امرأ متتبعا ما كُتِب عن علم الجيولوجيا وعلم الحيوان والنبات ، ولوتتبعا سطحيا ، يطَّلع على الأسرار والحكم الخفية التى تدل بتنوعها وتعددها وتوجهها بكمال الانتظام إلى هدف معين ، على تأثير الصانع العليم الحكيم ، لا باحتمال أربعة تريليونات بالنسبة إلى واحد ، بل كنسبة حاصل ضرب تريليون فى تريليون إلى واحد . فكل الموجودات أثرقدرة الخالق القدوس وحكمته . وآمنت بهذه الحقيقة بكمال الاطمئنان ، وصدقتها بوجدانى وعقلى وجنانى .

(٢٣) ص ٣٣ : هذه نظرة منصفة ، ومتفقة مع الدين ، ولكن المتأخرين من العلماء لا يستبعدون خلق المادة وتكوينها ، كالجهلة المنكرين . فقد ثبت بعد ما اكتشف الراديوم فى الزمان الأخير أن أصغر ذرة مادية نكمن فيها قوة عظيمة خارقة للعادة ، وتبين بالتجارب الصحيحة ، والحسابات الرياضية ، أن الأمر ليس كما ظُن قديما ، بأن القوة عرض غير مفارق للمادة مربوط بها ، بل ذُهِب إلى أن المادة حدثت من تكاثف القوة . فإذا تحقق هذا الرأى تماما آمن كل مرتاب بأن المادة خُلِقت بقدرة الخالق المتعال ، ذى القوة المتين .

(٢٤) ص ٣٧ . الجمل التى داخل الأقواس الصغيرة « » هى أقوال المعارضين والتى ذُكِرت خارجها هى ملاحظاتى .

(٢٥) ص ٤٠ : كل ما حكيت عما يتعلق بعلم الفلك ، وعن الأتومات يستند إلى تجارب وحسابات العلماء . وأما هذه المدعيات فليست إلا فروضا وتصورات مجردة .

(٢٦) ص ٤٢ : استخرج العالم الرياضى الشهير آينشتين لتعيين تزايد جوهر الشىء عند الحركة الدستور الآتى :

($جو = \frac{ج}{\sqrt{١ - \frac{س^{٢}}{ض^{٢}}}}$) « فالجو » رمز لجوهر الشىء فى الحركة و «ج» لجوهره فى السكون و « س » لسرعته و « صه » لسرعة الضوء . وأنه يفرض أن «صه» و « ج » و «س» تكوّن هذه النسبة : «جو» $\frac{ج}{١ - ١} = \frac{ج}{٠}$ وهذه المعادلة الجبرية تدل على كل قيمة غير معينة . ويجوز أن معارضا يستفيد من هذا ويدعى قائلا : إنه وإن لم يكن للأثير اراكد جوهر إلا أنه يحدث منه جوهر ، إذا كانت سرعة الزوبعة مساوية لسرعة الضياء . وأما الدستور الذى يبنى عليه النسبيون كل نظرياتهم ، وهو ($لَ = ل \sqrt{١ - \frac{س^{٢}}{ض^{٢}}}$) فيفرض فيه أن س = صه فيصير « لَ » صفرا . و « لَ » هو بعد الشىء المتحرك فى اتجاه الحركة و « ل » بُعدُ الجسم نفسه فى حالة السكون ؛ ويستدل منه على أن المادة لا تحدث من حركة الشىء بسرعة الضوء ، وأن المادة ذات أبعاد ثلاثة . وأن فرض (س > صه) أى أن « س » أعظم من « صه » صارت قيمة « جو » أو « لَ » سلبية وهى لاتدل على شىء فى الوجود .

(٢٧) ص ٤٨ : والصفات الإلهية بناء على العقيدة الإسلامية هى الصفات السلبية ، وهى : الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والوحدانية ، والمخالفة للحوادث ، والقيام بالنفس . والصفات الثبوتية هى : الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، والإرادة ، والقدرة ، والكلام (الكلام النفسى) ، والتكوين . فأية صفة منها مغايرة للعقل ، ومناقضة للعلم ؟

(٢٨) ص ٤٨ : بما أن نظريات النسبية التى اكتشفت أخيرا لاعلاقة لها بأمر التكوين ، فإنى أسكت عنها . وقد اعترف النسبيون بأن لاعلاقة لنظرياتهم بهذا الأمر . كما قال جان بكرل وهو من الحكماء المعروفين : إن هذه النظريات لا تتعالى إلى البحث فى الأسباب الغامضة للحوادث ؛ فلا تقول شيئا عن أصل هيولى العالم وطبيعته ، بل هى عبارة عن قوانين الطبيعة باللغة الرياضية ، وتفسيرها تفسيرا هندسيا ، وتحليلها تحليلا تاما . وقال « أدنغتون » : إن « هذه النظريات

علم الأشكال وليس علم الجوهر » .

(٢٩) ص ٤٩ : جُستاف لوبون ، تطور القوى (Evolution des forces) ص ٣٦٦ (فى النسخة الفرنسية)

(٣٠) ص ٥٠ : أكرر مرة أخرى أنى لا أتصور بهذا الكلام أن الله هو هذه القوة — حاشا وكلا — ولكنى أريد أن أفهِّم أن الخواص التى تُسلَّم بوجودها فى القوى والأسباب الثانية ، من العبث إنكار وجودها فى العلة الأصلية الأولى .

(٣١) ص ٥٦ : كان لايبنز (Laipnitz) وهو من فلاسفة الألمان يقول بتشكل العالم الجسمانى والروحانى من عنصر بسيط غير متجزئ عار عن الأبعاد ، فعّال ، حاوٍ للقوة والحياة . و إذا كان الأمر كذلك فلِمَ يُحرم الحياة القسمُ الأعظم من الكائنات ، المتشكل من ذلك العنصر بعينه ، المحتوى على الماديات والجمادات ؟

(٣٢) ص ٥٧ : ليس لفظ « مشترك المقياس » هنا بمعناه الرياضى . فلذا يلزم أن نفصله قليلا ، فنقول :

اتخذ الناس لمساحة الأبعاد ولتعيين المقادير مقياسا بالتمثيل بالمتر ، يقاس به و بأجزائه وأمثاله الطول والمسافة ؛ و بمربعه ومكعبه أو أجزائهما وأمثالهما السطوح والحجوم ؛ و بثقله الماء الذى يستوعبه مكعب ديسيمتره ، و بأمثالها توزن الأثقال ؛ و بكيلوجرامتره [القوة التى ترفع ثقل الكيلو جرام إلى ارتفاع متر] وأجزائها وأمثالها القوة الميكانيكية ؛ و بسُعره [الكالورى وهو مقدار الحرارة الذى يرفع سخونة كيلو جرام من الماء بدرجة واحدة] آثار الحرورة . و بمثل هذه المقاييس يُقدَّر انبساطُ البحار والضغطُ الجوى وارتفاع الصوت وشدة الضوء ، والكهربية والمغناطيسية ، وحتى عيار المسكوكات المعدنية . وترجع كل هذه المقاييس بلاواسطة أو بواسطة إلى نظام المتر . وعلى هذا كافة الأجسام والقوى المادية الموجودة فى

الدنيا مشتركة المقياس ، ولكن ليس للروحانيات مقياس . فلا يقاس ذكاء الإنسان وغيرته وحميته ، بطول قامته وسعة صدره أو بثقل جسمه .

(٣٣) ص ٥٧ : يذكر المحققون فى كتبهم حوادث غريبة فى ظهور النبات وتولد الحيوان ، ولكنى التزمت ذكر أمثلة من أحوال عادية ، وحادثات تقع كل يوم ، ويسهل تحقيقها .

(٣٤) ص ٦٢ : الخطوط الشعاعية منحنية ، بناء على حسابات آينشتين ، والدائرة التى ترسمها هذه الخطوط ، يقطعها الضوء فى تسعمائة مليون سنة . وعلى محيط الدائرة نقطتان أبعد ما بينهما متقابلتان قطرا ، فالبعد الذى يمكن رؤيته ، بفرض تكمل الآلات الرصدية إلى هذا الحد ، لا يتجاوز هذه الدرجة .

(٣٥) ص ٦٢ : على قول بعض الفلكيين ، تسير مجرّتنا نحو برج الجدى بسرعة « ٧٥٠ » كيلومتر فى الثانية . وهذه الحسابات طويلة ومشكلة ، ولكنها جديرة بالثقة ، لاعتمادها على الأرصاد .

(٣٦) ص ٦٢ : ذهب الفلاسفة فى خصوص الزمان والفضاء ، إلى قياسات وفرضيات عسيرة التعداد ، وأجروا فى هذا الوادى أنهارا من المداد ؛ وملاحظاتى فى هذا الباب مخالفة لأراء بعض المعاصرين والمتقدمين من الحكماء . ولكنى أزعم أن الأمثلة التى ذكرتها آنفا ، والتى هى ترجمان وجدان البشر ، خليقة أن تكون عونا على تفهم ما سردته من الآراء . وأما بُعد الاختلافات فى تناهى الفضاء وعدم تناهيه ، فأظن أنه نشأ من الاختلافات فى فهمه وتعريفه . إن كان المراد من الفضاء الوسط (Milieu) الأثيرى ، فالأحرى بأن يوصف بـ «لاخلاء ولاملاء» ؛ فحينئذ يمكن أن تقبل محدوديته ، وإن كان الأثير ساكنا سكونا مطلقا ، والعوالم تسير فى داخله ، ولا يمكن أن تتجاوز عن حدوده ، لأن تلك الحدود تصيرها هاوية حائلة للماديات ؛ لأنها لو جاوزتها لانتثرت الموجودات المادية

بانحلال روابطها كلها ، بناء على النظريات الأخيرة القائلة بالأثير . و إذا كان الوسط الأثيرى — من قبيل السفينة التى تنقل الأشياء والأشخاص الثابتة والمتحركة فى داخلها — سائرا ومتحركا بالحركة العامة الانتقالية ، مستصحبا جميع الكائنات ، فيلزم أن يكون الفضاء الخالى الذى يسير فيه الوسط أو الأوساط الأثيرية المشتملة على المجرّات والعوالم سيراً سرمديا ، غير متناه .

(٣٧) ص ٧١ : إن طول كل موجة هو المسافة الواقعة بين أعلى نقطتى موجتين ؛ فطول موجة الشعاع الأحمر $\frac{٨}{١٠}$ من الميكرون (الميكرون $\frac{١}{١٬٠٠٠٬٠٠٠}$ من المتر) ، وطول موجة الشعاع البنفسجى $\frac{١}{١٠}$ من الميكرون ، وطول موجات الأشعة الكيميائية فوق البنفسجية أصغر من ذلك ، وموجات الأشعة الحرورية تحت الحمراء أعلى من الميكرون ؛ وتمتد الموجات الكهربية حتى الكيلومترات .

(٣٨) ص ٧٢ : كان العلامة آينشتين يذهب إلى عدم الحاجة لمثل هذه الواسطة لانتشار الضوء ، ولكنه اعترف فيما بعد بلزوم وجود لطيف ، عار عن المادية والفعل والحركة ، يكون واسطة للجاذبية والتجليات الطبيعية فى الكائنات قاطبة ؛ وبهذا اعترف ضمنا بوجود أثير .

(٣٩) ص ٧٣ : فى إمكان المعارضين لهذا أن يوجّهوا هذا السؤال المعترض : « ما الحكمة فى وجود قوى ضارة تدفع الإنسان إلى الشر ؟ » . إذا سلّم بعسر إدراك المقاصد الخفية من أفعال الله سبحانه وتعالى كعسر إدراك ذاته ، فقد هذا السؤال قيمته . ومع ذلك يمكن إبداء الملاحظة الآتية على أن يكون جوابا عقليا :

بضده ينكشف كل أمر وكل حال فى هذه الدنيا ؛ ففيها الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، وقبول الحياة الإنسانية كما هى شرط للمباحثة . ومن المسلم بأن تنازع البقاء فى هذه الدنيا ، والتطور التدريجى المترتب عليه ، إنما يحدثان بتصادم الأضداد . فلو كان كل أفراد البشر عُبّادا ورعين ، مجرّدين عن الميول

والشهوات الدنيوية ، لما تم هذا الرقى الذى نشاهده ، ولحُرِمت البشرية حتى نمد يد أسباب حياتها . على حين أن المخلوقات كلها ، حتى أصغرها وألطفها ، من ضروريات ملك هذه الخليقة وخدمه وعماله . وسيظل الإنسان ، عالما أو جاهلا على خدمة المراد الإلهى وملك الخليقة ما وسعه ذلك ، خاضعا لقانون الأضداد .

وخليق بالذكر بعد التسليم بهذا الأساس ، أن بعض العقائد العتيقة السخيفة ، التى تجعل القوة الشيطانية الشريرة ، معادلة للذات الرحمانية ، وهى الخير المطلق ، باطل بطلانا تاما . فالله الواحد الأحد ، هو خالق الكل . ومن مخلوقاته القوى الشيطانية . وليست هذه القوى إلا من خدم المقاصد الإلهية الخفية ، وعمال ملك الخليقة .

(٤٠) ص ٧٤ : يرى المستر فوكس من مشاهير علماء الطبيعة أن عدد اهتزازات الجو والأثير ، وتموجّه فى الثانية ، لحدوث المحسوسات اللطيفة المنتشرة ، بالتموجات الجوية والأثيرية ، كالصوت والكهربا والضوء ، متناسبة مع قوة العدد «٢» (حاصل رفعه) . فلأجل حدوث الصوت يلزم تموج قوة الجو «٢» من «$٢^{٥}$» إلى «$٢^{١٥}$» أى من ٣٢ إلى نيِّف و ٣٢ ألف مرة . ولحدوث الكهربا يتموج الأثير «$٢^{٣٠}$» أى نيف ومليار مرة ؛ ولظهور الحرارة والضوء من «$٢^{٤٨}$» إلى «$٢^{٥٠}$» أى ٢٨٠ تريليون وأكثر من كتريليون مرة ؛ ولظهور أشعة اكس × (رونتجن وشعاعين منتشرين من راديوم) من «$٢^{٥٨}$» إلى «$٢^{٦١}$» أى ٢٨٨ كتريليون ونيِّف وكنتليونين مرة .

إن الناس لا يعلمون ولا يحسون إلاّ إلى القوة السابعة عشر من رفع العدد «$٢^{٦١}$» كالصوت والكهربا والضوء وغيرها من الأشعة ولكن الآثار التى تنتجها الدرجات ٤٨ الباقية وما لا يُستبعد تأثيرها بعد العدد «$٢^{٦١}$» مجهولة كلها .

(٤١) ص ٧٥ : يفرض بعض العلماء الأحوال الغيبية التى لا نستطيع

إدراكها ويتصورها بأنها أثر موجودات متحيزة فى فضاء ذى أربعة أبعاد (الفضاء الزائد Hypperespace) . وإذ أن إيضاح نظرية الفضاء الزائد بالتفصيل ليس من موضوع هذا الكتاب ، فإنى أكتفى بذكر فكر إجمالى عنها .

تولدت نظرية الأبعاد الأربعة من إمكان حل المعادلات من الدرجة الرابعة ، على حين كانت النظرية الخاصة بالأبعاد الثلاثة المؤلفة من الخط والسطح والجسم أى الطول والعرض والعمق فى العالم الجسمانى ، تحل حساباتها بالمعادلات من الدرجة الأولى والثانية والثالثة ، تصوّر بعض العلماء وجود بُعد رابع فى عالم الإمكان الذى لا ندركه . ولكن آينشتين يروِّج حصول المعادلات من الدرجة الرابعة بادخالها فى الحساب الزمانى ولا يرى حاجة إلي تصور بُعد رابع .

وأنا أرى أن هذا الرأى أقرب إلى العقل . ولكن بما أن الأحوال الغيبية مجهولة لنا ، فسواء أكانت فى البعد الرابع أم البعد المِئة أم محرومة من الأبعاد ، فلا فرق عندنا . ويكفى التسليم بأنها خارجة عن طاقة إدراكنا الخِلقى .

(٤٢) ص ٧٦ : مثل هذا الاعتراض ماهو إلا سفسطة مبنية على جهل ، مخالفة للعقل والمنطق والفلسفة . وليس فى قدرة الله ورحمته وحكمته ، القرب والبعد والصغر والكبر ، فإن الصفة السبحانية محيطة بالكون من أصغر ذرَّته إلى أكبر الأجرام والأكوان ونافذة فيها . فليس لمن يجهل هذه الحقيقة حق فى استقصاء المراد الإلهى فحسب ، بل ليس له أن ينبس ببنت شفة فى هذا الأمر . إن الإيمان بما دخلت فى الأديان من الخرافات باسم العقيدة — وسنبحث فيها — إنما هو أثر حمق وجهالة . إلا أن المحاولة لتحديد تصرُّف الله ومرادِه حسب بحثنا وإدراكنا عمى أكثر منه وضلال .

(٤٣) ص ٧٧ : ينُتِج زوج من الذباب العادى خمسا وعشرين مليونا من الأولاد والأحفاد فى العام . وإذا قدِّر عدم موتها فإن ما ينتج فى خمسة أعوام

يبلغ ($١٠^{٣٥} \times ٣٢$) أى يكون مدلول ٣٥ صفرا إلى يمين العدد ٣٢ . و إذا قدّر حجم ذبابة مليمترا مكعبا (وهو فى الحقيقة أكبر منه) فيحدث من تراكم بعض هذا العدد فوق بعضه بلا فاصل ، حجم أكبر من الشمس ، التى هى أكبر من الكرة الأرضية مليونا ومائتى ألف مرة .

يضع حى من الأحياء الدورية ثلاثين بيضة مرة واحدة ، ويُنتِج سبعين بطنا فى العام ، فيبلغ مقدار ما ينتجه فى عام ($١٠^{١٠٢} \times ٢٥$) أى حاصل ١٠٢ صفرا إلى يمين العدد ٢٥ . ولو فرض حجم الحى ميكرونا ($\frac{١}{١٠٠٠٠٠٠}$ من المتر) مكعبا ، فالحجم الناتج من تَرا كُم بعضها فوق بعض بلا فاصل ، يكوّن مكعبا فى ضلع ما يقرب من ثلاث تريليونات سنة ضوئية . على حين أن قطر المجرّة التى تدخلها مجموعة شمسنا ما هو ، على قول پوانكارى ، إلا نيفا وتسعة آلاف سنة ضوئية . [ذكرت تقدير پوانكارى للتزويد بفكرة ، وإلا فقد رُصِد بأحدث وسائل المساحة ، كواكب تبعد مسيرة مليون سنة ضوئية] .

وتناسل الأحياء المائية والنبات وتكاثرها على هذه الصورة . ويفهم من هذا أنه إن لم يكن الموت ، فتناسل الحيوان والنبات يجعل الحياة مستحيلة ، ويبيد ملك الخليقة . فلهذا تقوم الحياة على الموت ، وعلى الموت غير الطبيعى . وتجرى وفرة التناسل على نظام خطر فى الأحياء الدنيئة والنبات ؛ ولهذا تتم الموازنة بكون الصغار طعاما للكبار .

إنما قصِد بإيراد هذه الأرقام ، تزويد أرباب التأمل والبصيرة من القراء الكرام بفكر إجمالى ، ومثال علمى عن عظمة الخليقة وحكمتها البالغة ، وعن النكت الدقيقة حول قانون الطبيعة . ويمكن أن يقال « إننا إن سلمنا بكون الإفراط فى التناسل إلى حد يفوق تصور كل شخص فى بادىء الأمر ، يكون سببا للمقاتلة ، فإنه يلزم التسليم بأسباب خفية صحيحة غير مفهومة بعد ، وبأسباب لن تفهم للتناسل المعاجل السريع .

(تُحَل ما ذكرت من الأرقام المحيرة للعقول بالحساب البسيط . وأما إنتاج زوج من الذباب ، عشرين مليونا من الذرية فى عام ، ووضع الأحياء الدورية ثلاثين بيضة مرة واحدة ، و إنتاجها سبعين بطنا فى عام ، فمن الحقائق التى أظهرها علماء الحيوان بتحقيقاتهم وأبحاثهم الدقيقة) .

(٤٤) ص ٧٩ : إنّ الأشخاص الذين باحثتهم فى هذا الموضوع ، لم يقدروا على إدراك وقوع الإلهام للناس من الله . ولم لا ؟ لا يستطيعون إيضاح ذلك . من يفكر تفكير الإنسان يحس و يصدق وجود ميزات كثيرة للانسانية ، تتفوق بها على سائر المخلوقات . ولا جرم أن تفكير الإنسان فى مثل هذه الشؤون العلوية دليل كاف على شرف نوع البشر وميزته . فلا معنى للفرض والتصور بأن الله خلق عباده المختارين ثم تركهم وشأنهم . أيظن منكرو التدخل المعنوى فى شئون الناس ، عجز العلم والقدرة السبحانية عن الإحاطة بالفروع الكونية ؟ أم يستبعدون اختيار حافظ النظام جل شأنه أى نوع من التدبير للمحافظة على نظام العالم ؟ أم يفرضون تعطيل مكوِّن الكون فعاليته بعد التكوين ؟ . إن مثل هذا التفكير لَواه . وأذكر هنا بعض حوادث لإيضاح معنى لفظ الالهام :

ذهبت إلى مَعَان بمأمورية مؤقتة ، فى أثناء ما كنت فى هيئة أركان حربية الجيش العثمانى الخامس (جيش سورية) ، وكانت قافلتنا تسير حين العودة فى ليلة مظلمة عن طريق « كَرَك — طفيلة » ، على ظهور دواب ضعيفة متعَبَة ، مرخية العنان لهذه الحيوانات النعسانة نحو الجهة المقصودة ، على زعمها . واستيقظت فجأة حوالى منتصف الليل ، فشرعت فى مشاهدة السماء مستعجلا . ولما لم أعثر على النجم القطبى مع اتجاه طريقنا نحو الشمال ، اوقفت القافلة ، وفتشت السماء حتى تحققت أن سيرنا كان إلى عكس الجهة المقصودة تماما . حقًا أن دواب القافلة لم تغير وجهتها نصف دائرة مرة واحدة ، بل تحولت إلى العكس سائرة فى قوس كبيرة بالتدريج ، ولكن أين جهة الانحراف ، أهى المشرق أم المغرب ؟ ففى الشرق حتى العراق ، وفى الغرب

حتى بحر لوط ، لا يحتمل وجود بلدة أو جرعة ماء ، وربما عسر تمييز الطرق الصحراوية ، التى ليس بها ما يعيِّن الاتجاه ، بل استحال ! و إذا طلعت الشمس فستكون فى الصحراء قبورنا من العطش والأوهام ! و بينما كان الدليل يفهِّم هذه الحالة بلغة نصفها عربى ونصفها تركى ، متألما مرتاعا لاحظت شبحا بالجهة الغربية — وأنا قصير النظر قصراً شديداً ، وكاره استعمال النظارات — فأريته للدليل . فأسرع إليـه ، ولم يمض غير دقيقة حتى بشرنا بصوته الجهورى ، باهتدائنا إلى الطريق . كان الشبح ضريح جعفر الطيار رضى الله عنه ، ومنـه طريق آخر ذاهب إلى كرَك ؛ وكنا انحرفنا عن طريقنا مسيرة ساعة إلى الغرب . فمن أيقظنى بجوار هذا الضريح ، الذى يكاد يكون أمارة وحيدة فى هذه النقطة من الصحراء ؟ ومن حفزنى على مشاهدة السماء ؟ ولو استيقظت بعـد ساعة لـكانت القافلة كلها طعاما لوحوش الصحراء وحيواناته !

ومثال واحد لا يكفى لإفحام المعارضين : حدث فى الشام أيضا ، أن أصيب واحد من أحب أصدقائى بمرض . ففى ذات ليلة قرر الأطباء عند الصباح انتهاء الأزمة وزوال الخطر ، فانسحبت مستريحا إلى غرفة نومى . وما نمت نصف ساعة حتى رأيت فيما يراه النائم رجلا ، متوسط القامة ، عريض المنكبين ، محمر الوجه ، قصير اللحية ، لابسا ثوبا نظيفا ظريفا فى زى بين العلمـاء والدراويش ، وجيها مهيبا محبوبا ، وقال لى : « قم فأنقذ صديقك ! » فاستيقظت مرتعشا وكأنى رأيتـه خارجا من حجرتى ، فأسرعت حافيا إلى غرفة المريض . كان المريض مغمًى عليه ، ومَن حولَه يحاولون إسعافه . فما أسرع ما أرسلت كلاًّ من بالبيت إلى بيت كلِّ طبيب . ثم اندفعت عاريا مضـطربا كمن به مس من الجن ، إلى منزل عثمان باشا رئيس أطباء الجيش ، وكان مقابلا لبيتى . فانتزعت المسكين من سريره ، وأخذته إلى المريض ، وأمكن تلافى الخطر بسرعة المداواة . لقد أجمع الأطباء على أن المداواة لو تأخرت بضع دقائق لمـا نجا المريض . فمن كان موقظى ومهيِّجى ؟

حادث أهم : عُيِّنت فى سنة ١٩١٦ لقيادة الجيش الثانى المرسل نجدةً للجيش الثالث ، على أن تشمل قيادتى كل الميدان الشرقى . ومنذ أواسط يوليه (تموز) ابتدأت حروب شديدة فى جبهة الجيش الثانى ، وكان الروس يلقون بقواتهم التى سحبوها من خطوط جيشنا الثالث ، بعد أن شتتوا شمله ، على الجيش الثانى الذى احتشد ببطء شديد ، وأدخِلَت جميع قطعات الجيش الثانى خطوط القتال فى بداية أغسطس ماعدا آلاى واحد احتُفظ به احتياطا خلف ربوة تُدعى « قرابابا داغى » . وكان قائد الجناح الأيسر لموقعنا ، حصل على معلومات دالة على هجوم الروس على موقعه ، فأخذ يطالب ملحا بإلحاق آلاى الاحتياط حالا بالقوة التى يقودها ، وقائد الفرقة يؤيده فى طلبه . لم أر هذه الأخبار خليقة بالثقة ، ولهذا تلكأت بضعة أيام فى إسعاف الطلب . وفى ذات مساء انهالت على أخبار من جهات مختلفة ، فوافقت على إرسال الآلاى بكرة الغد . إنى ، بناء على تنبيه بعض الوقائع التاريخية ، أتحاشى فى الأدوار المهمة للحرب — مهما بعدت ساحة القتال — خلع أثوابى ليلا ، خشية التأخر فى إبلاغ الأخبار . وفى تلك الليلة كذلك نمت ملتحفا معطفى الثقيل (يامچى) على مقعد كبير ، بجانب المنضدة بخيمة الأعمال . واستيقظت فجأة بحس غريب ، فانكببت على الخريطة ، وشرعت فى بحث الموقف بصفاء ذهن تام . فقر رأيى من جديد على عدم وجود احتمال كثير لوقوع هجوم حقيقى على جناح جيشنا الأيسر ، ولو وقع فلن يكون وخيما ، على حين أن « قرا بابا داغى » مفتاح مواقعنا كلها ؛ فأسرعت إلى التليفون ، وأمرت قائد الآلاى ألاّ يتحرك من مكانه . وفى الصباح التالى انهالت الطلبات بسوق الآلاى الاحتياطى إلى نهاية الجناح الأيسر ، فعجزت عن مقاومة إصرار المطلعين على الوقائع عن كثب ، ورضيت بارتحال الآلاى ، لبرقية تلقيتها وقت الغروب . تحرك الآلاى بسرعة بدون النظر إلى الظلام ، إلا أنه لم يكد يقطع كيلو مترين حتى اضطر إلى التوقف لالتواء الطريق ووعورة الأرض ، انتظارا لطلوع

القمر . ولما طلع القمر كان الروس يقومون بهجماتهم الحقيقية على « قرا بابا داغى » ، وقد استولوا على مواقعنا المستحكمة ، فلم ينقذنا منهم إلا الهجوم المقابل ، الذى قام به هذا الآلاى على جنبهم ، وهم يحاولون الاستيلاء على الربوة التى كانت نقطة ارتكازنا . فلو ارتحل هذا الآلاى قبله بيوم ، لسقط « قرا بابا داغى » وانشق خط قتالنا ، وأصيب الجيش ، نظرا إلى وعورة الأرض ، بهزيمة منكرة ، واحتُلت الأناضول ، وقُطِع خط رجعة الجيش الذى كان ببلاد العرب انقلبت الآية ببقائه فى موضعه : طُرِد الروس ومنوا بخسائر فادحة فى أثناء تراجعهم ، فلم يقدروا على استئناف هجومهم . من الذى أيقظنى من النوم ومن الغفلة قبل هذه الموقعة بأربع وعشرين ساعة ؟ قد حدث لى مثل هذا الحادث خمس مرات أو عشرا فى أثناء حياتى .

ومما يجدر بالذكر عدم تقدير أهمية هذه الحالات حين وقوعها ، ولعل هذا هو السبب لنسيان كثير منها . ولكنى واثق من أن كل امرئ اعتاد التأمل فى حياته ، وخاصة كل جندى ، يصادف بضع حوادث مثلها حين يراجع ماضيه فى ذهنه ، وأما حملها على اهتزازات ذرات وحجيرات دماغ مضطرب بأفكار المستقبل ، أو ما شاكلها ، فما هو إلا هذيان ، كما أن تشبيهه بالحس قبل الوقوع ، لا يحل المشكلة . لأن حقيقة هذا الحس لم يفسَّر بعد تفسيرا ماديا . فالأحوال المجهولة الماهية كهذه ، هى أثر من آثار قوى غيبية ، وسيالات لطيفة .

إن هذه الحالة الروحية التى تظهر فى كل إنسان قليلا أو كثيرا ، إذا سميت ما بلغ منها الكمال وحياً ، لم تبعد عن الحقيقة ؛ وإن هذه التلقينات أثر قوى متوسطة تسمى ملائكة بلسان الشرع . وكما أن الله هو السبب الأول لكل أمر ولكل حال من المكوَّنات المادية ، التى تظهر باجتماع من قوى وأسباب متوسطة وتالية ، فإن مدبر هذه التلقينات كذلك هو الله ذو الجلال .

إنى أكرر فأقول لما كانت كيفية الوحى أيضا من الأسرار السبحانية ، فلا يتسع لها علم الإنسان وإدراكه ، فلذا لا نكون بهذا التشبيه قد قمنا بإيضاح وجه

الوحى وصورته ، وكنهه وحقيقته ، وإنما أظهرنا تفاهة أقوال المنكرين القائلين باستحالته و بطلانه .

(٤٥) ص ٨١ : فكرت بعض زوجاته الطاهرات الانتفاع بالثروة والرفاهية التى اكتسبها المسلمون بعد الهجرة ، ففاتحت رسول الله صلى عليه وسلم فى ذلك . فأجاب بما معناه : « لا يجتمع حريم النبى ونعيم الدنيا ؛ فمن رغبت فى النعيم فلتتركنى » .

(٤٦) ص ٨٢ : أنقل الكلمة الآتية عن مبحث القرآن فى دائرة المعارف البريطانية لمناسبتها للموضوع : « والحق أن محمدا اجتهد فى الله ، وفى نجاة أمته ، وبالأصح اجتهد فى سبيل الإنسانية جمعاء ، ولم يفقد قط إيمانه بصحة واجبه المقدس » .

ذُكِرت التعاليم القرآنية مختصرة فى الفصل الثالث من كتاب « الإسلام » ، للأستاذ إدور مونتن ، ثم قيل : « نشأ من هذه الإصلاحات ما لا حصر له من الترقيات . فخليق بمحمد أن يُعَد من أكبر المنعِمين على الإنسانية والعاملين على خيرها » .

فليقارن هذه التقديرات العادلة التى أبداها علماء أغراب من النصارى المنكرين للإسلام ، فى حق نبينا ، بالآراء السخيمة ، والأقوال الوقحة الظالمة ، التى يتفوه بها بعض الجهال المدعين العلم من المولودين فى الدين الإسلامى ، فاعتبروا يا أولى الألباب !

(٤٧) ص ٨٤ : أسند سنت پول صفة البنوة إلى عيسى عليه السلام بعد الرفع بنحو عشرين عاما . وتتبين عقيدة الإسلام فى عيسى بالآية الكريمة الآتية : « يا أهلَ الكتاب لا تُغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما اللهُ إله واحد سبحانَه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات ومافى الأرض ، وكفى بالله وكيلا — سورة النساء ، الآية ١٦٧ » .

كانت عقيدة مذهب التوحيد الذى دعا إليه « آرمان » فى أوائل القرن الثالث الميلادى ، متفقة فى الجملة مع الآية الكريمة التى نزلت بعدها بثلاثة قرون أو أربعة . وردَّ مجلس رهبان (قونسيل) مدينة أزنيق هذا المذهب ، بالرغم من تأييد إمبراطور روما الشرقية وكثير من الملوك له . ومع ذلك ظلت هذه العقيدة سائدة زمانا طويلا ، وكان دخول أهالى البوسنة وألبانيا بسهولة فى الإسلام من اعتناقهم لهذا المذهب سابقا .

(٤٨) ص ٨٤ : كان تأليه العظماء عادة شائعة فى زمن الجاهلية ، فبوذا (اسمه الأصلى غوتاتانا) الذى ظهر قبل المسيح بستة قرون ، كان ابن أحد الأمراء المشهورين بالهند ، وتأثر بما شاهد من مناظر الفقر والمسكنة فى أثناء تنزهه ، فهجر داره وزوجه وابنه المولود حديثا ، مؤثرا الغربة والاعتكاف وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ثم شرع بعد مدة من الزمن ، فى إرشاد الناس ومعه خمسة من رفقائه . ولقَّبه معاصروه فى حياته بلقب « بوذا » أى النبى . وكان بالهند عقيدة تقول بظهور رجل ممتاز حينا بعد حين يُدعى بوذا لتلقين البشر الحِكَم الإلهية . ولكن لما مات هذا الرجل العظيم المخلص فى أثناء حياته ، اختلق خلفاؤه أنواعا من الأساطير فى شأنه ، وأدخلوه ضمن الآلهة التى لم يكن يُسلِّم بها .

ومنذ نيِّف وثلاثة قرون قبل المسيح اغتر إسكندر ذو القرنين بانتصاراته الحربية ، فادّعى بأنه ابن « زيوس » ، وأنبأ كهنةُ مصر بأنه ابن « آمون راع » مسندين ذلك إلى وحى « آمون » .

وادعى قيصر (شزار) دكتاتور روما الشهير قبل نصف قرن من الميلاد أن أسرة « يوليوس » التى ينتمى إليها من أولاد الزهرة (فنوس) . وألَّه الرومان الإمبراطور أوغست (أوكتاف) بعد موته قبل رفع عيسى بقليل (Apsthestiser) .

ومن قبل ذلك ادّعى نمروذ والفراعنة الانتماء إلى الألوهية ، كما مال أباطرة

روما إلى هذا الوهم . حتى إن الحكام فى أوروبا كانوا إلى زمن قريب ، يعُدُّون أنفسهم مفوَّضين من الله .

كانت عقيدة التثليث موجودة بالهند من قديم الزمان ، وخاصة فى مذهب براهما . ومنذ ثلاثة قرون قبل المسيح روّج بطلميوس الأول مذهب التثليث المؤلف من أوزريس (الأب) و إيزيس (الأم) وهوروس (الابن) بالإسكندرية . وقد قصد بذلك استمالة المصريين الذين جلس على عرش بلادهم ، بالتأليف بين عقائدهم و بين عقائد المقدونيين .

تدل هذه الأنباء على ميل الأفكار العامة فى عصر عيسى عليه السلام إلى تأليه الأعاظم وتثليث الأقانيم ، على حين تنحصر عقيدة التوحيد فى شعب صغير ضعيف .

(٤٩) ص ٩٣ : ورد فى كتاب مترجم إلى التركية من تأليف المستشرق الدكتور دوزى المعروف بعدائه للإسلام « أن حالة الاستغراق التى شوهدت عند النبى ، كانت ناشئة من مرض يُطلَق عليه الهستريا العضلية ، وأن نوبات هذا المرض تجلو الذهن جلاء خارقا للعادة » . وأسند رأيه هذا إلى تشخيص الحكيم الألمانى الشهير شپرنجر (Springer) .

إن تشخيص مرض رجل بعد موته بثلاثة عشر قرنا خليق بأن يُعَد من عجائب العصر . ومع ذلك أن مرضا لا يضر بصحة المريض و بدنه ، على حين يُخرج للناس فى أثناء نو باته وهذيانه ، كتابا يجمع شمل قوم فى الدرك الأسفل من الجهل ، ويمدِّنهم ويكوِّن منهم أمّة ودولة عظيمة ، ويحدث فى العالم طرا انقلابا خيِّرا نافعا ، و يفحم أدباء العالم وشعراءه ، و يدعهم حيارى مبهوتين — إن مثل هذا المرض ليُقبَل بالترحاب بكلمة عُقبى لنا . فيا ترى ، كم مريضا فحص عنه هذا الحكيم ممن ابتلوا بهذا المرض ، فأتوا بمثل هذه الخوارق ! ؟ فلو اتخذ منهم مصلا وطعّم به زعماء الأمم وحكامها ، ألم يكن قد قام بخير خدمة للإنسانية ؟

(٥٠) ص ١٠٠ : يصوِّر الأوربيون عقيدتنا فى اللوح المحفوظ فى صورة مادية جدا ، فيقولون إننا نعتقد بأنه مزين بالأحجار الكريمة . والأمر ليس كذلك ؛ فإن اللوح المحفوظ ، لم يرد ذكره فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة فى الآية الكريمة : « بل هو قرآن مجيدٌ فى لوح محفوظ » .

(٥١) ص ١٠٠ : لتنوير هذه المسائل أنقل من رسالة الزوراء والحوراء لجلال الدين الدوانى [ترجمها شيخ الإسلام موسى كاظم إلى التركية بحواش وتعليقات قيمة] التشبيه الآتى : « إذا أخذت امتدادا مختلف الأجزاء فى اللون كخشبة أو خيط ، أختلف اللون فى أجزائه ثم أمررته فى محاذاة ذرة أو غيرها مما يضيق حدقته عن الإحاطة بجميع ذلك الامتداد ، أليس تلك الألوان المختلفة متعاقبة فى الحضور لديها لضيق حدقتها ، ومتساوية فى الحضور لديك لقوة إحاطتك ؟ » وإذا وُسِّع هذا التشبيه توسيعا غير متناه ، أى إذا اعتبر الفرق بين قدرتى المخلوقين ، غير متناه بالنسبة لله سبحانه وتعالى ، فيستدل على كون أحوال العالم وشئونه — المنظومة الكونية الخليطة من الفضاء والزمان بناء على نظرية النسبية — محاطة دائما بالعلم الإلهى ، ومشمولة بنظره .

إنه وإن كان الإنسان لا يقدر على الإحاطة بهذه الحالة وتصورها برغم هذا الاستدلال وهذا أمر طبيعى ، إلا أنه لا شك فى أن الفانى لا يدرك السرمدية ، ولا يدرك المخلوق سر الخلقة وعلم الخالق .

(٥٢) ص ١٠٢ : استصوبت ترجمة البيانات الآتية من كتاب « محاورة جوته مع أكرمان » لاحتوائها على نكت متصلة ببحثنا . قال جوته : « لفهم ارتباط الأديان بعضها ببعض يجب عليكم الاشتغال أربعين عاما بدرس تاريخ الأديان والبحث فيه كما فعلتُ . إن ما يبدأ المحمديون بتعليمه فى تربيتهم الفكرية خليق بالانتباه . فهم يثبتون فى أذهان شبابهم عقيدة أنه لن يصيبهم أمر لم يقدِّره الله الذى يدبِّر الأمور بإرادته — وهذا أساس دينهم — منذ الأزل ؛ فلهذا يقاومون فى كل

حياتهم مستريحين . لا أريد التكلم فى صواب هـذه العقيدة أو خطئها ، ولا فى فائدتها أو ضررها . غير أن لها أثراً فينا أيضا بدون تعليمنا إياها ، فـكل جندى ذاهب إلى حرب يقول : « لن تصيبنى طلقة لم يكتب عليهـا اسمى » ؛ فـكيف كان يستطيع هذا الرجل المحافظة على رباطة جأشه ومهارته بإزاء المخاطر الهائلة ، بدون هذه العقيدة ؟ أفلا تكون عقيدة النصرانية « لن يسقط فرخ عصفور من سَطْح دون مشيئة أبيكم — الله » مترشحة من المنبع نفسه ، ومتضمنة تصديق حكمة بالغة ، وهى عدم حدوث أمر دون إذن من يعرف الأمور كلها ومشيئته ؟

(٥٣) ص ١١٠ : فأنقل هنا تبركا بعض آيات كريمة ، وأحاديث شريفة ، متعلقة بالعقائد والأحكام والأخلاق الإسلامية ، وهى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » سورة البقرة . و « قل تعالوا أتل ما حرَّم ربكم عليكم ألاّ تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا » . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقـكمْ وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلـكم وصَّاكم به لعلـكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الـكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسًا إلا وسعها . وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلـكم وصَّاكم به لعلـكم تذكرون . وأنّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرَّق بـكم عن سبيله . ذلـكم وصَّاكم به لعلـكم تتقون » . [سورة الأنعام . والأوامر الإلٰهية التى فى هذه الآيات الثلاث ، هى لب الوصايا التى فى التوراة] . و « من عَمِل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » . و « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . و « لا تُطيعوا أمر المسرفين ، الذين يُفسدون فى الأرض ولا يُصلِحون » . و « وشاورهم فى الأمر » . و « يا أيهـا الذين آمنوا ادخلوا فى السِّلم كافة » . « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . و « إن الله

يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكّرون » . و « اعدلوا هو أقرب للتقوى » . و « لن تنالوا البر حتى تُنفقوا مما تحبون» . و « للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . و « وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » . و «خُذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» . و « ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم » . و « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا » . و « تعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» . و «اصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » . و «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

والأحاديث الشريفة

« أشرف الإيمان أن تحب لله ، وتبغض لله ، وتُعمِل لسانك فى ذكر الله عز وجل ، وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ؛ وأشرف الإسلام أن يسْلَم الناس من لسانك ويدك » . و « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه . وحتى يخافَ الله فى مُزاحه وجِده » . و « إن الرجل لا يكون مؤمنا حتى يكون قلبه مع لسانه سواء ، ويكونَ لسانُه مع قلبه سواء ، ولا يخالف قولُه عملَه ، ويأمن جارُه بوائقَه » . و « يا أيها الناس أخْلِصوا أعمالكم لله ، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص » . و « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » . و « يا أيها الناس اتقوا الله ، فوالله لا يظلم مؤمن مؤمنا إلا انتقم الله منه يوم القيامة » . و « اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا ، فإنه ليس دونها حجاب» . و « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس ، واصطناع الخير إلى كل برٍّ وفاجر » . و « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ؛ ولا تجسسوا

ولا تنافسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا» . و «حسن الظن من حسن العبادة » . و « إن حقا على المؤمنين أن يتوجع بعضهم لبعض ، كما يألم الجسد للرأس » . و « مثلُ المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» . و « فعليكم بالجماعة » . و « الدال على الخير كفاعله ، والدال على الشر كفاعله» . و « أحب الجهاد إلى الله كلمة حق تقال لإمام جائر » . و « العفو أحق ما يُعمل به » . و « ومن عفا عند المقدرة عفا الله عنه يوم المعسرة » . و « أبغض الرجال إلى الله تعالى الألدُّ الخصِم » . و « العفو لا يزيد العبد إلا عزاً ، فاعفوا يُعزَّكم الله ؛ والتواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرفعكم الله» . و «البر ما يطمئن إليه القلب و إن أفتوك و إن أفتوك » . و « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس» . و « تمام البر أن تعمل فى السر عمل العلانية » . و « حسن الخلق خلق الله الأعظم » . و « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسَعُوهم ببسط الوجه والخلق الحسن» . و « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلُقاً » . و «ليس منا من لم يرحم صغيرنا و يعرف شرف كبيرنا » . و «الحياء من الإيمان» . و «الحياء والإيمان قُرِنا جميعا . فإذا رُفِع أحدهما رُفِع الآخر» . و«الحياء خير كله» . و « الحياء لا يأتى إلا بخير » . و «خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق » . و « ما مُحق إسلام محق الشح بشىء » . و « ما عال من اقتصد » .

(٥٤) ص ١١٣ : هناك من يعترض على بساطة المعتقدات الإسلامية ، بالقياس إلى تعاليم سائر الأديان ، ولكنى أظن أن الحقيقة فى البساطة .

(٥٥) ص ١١٤ : لا أدرى هل يسلِّم التاريخ الحديث ، المستنِد إلى الحفريات والتحقيقات والتجارب ، بالتاريخ المقدس برُمَّته ، فيتجشم مشقة البحث عن أنبياء بنى إسرائيل ، الذين لم يكونوا ملوكا ؟ ثم هل إثبات أن أولئك الأنبياء كانوا مبعوثين من الله ، وأن رسالتهم حق لا ريب فيه ، مسألة من المسائل التاريخية ؟

(٥٦) ص ١١٥ : أنقل هنا أسطرًا عن مبحث فلسفة القرآن ، من كتاب

حضارة العرب لجُستاف لو بون، قال : « إن رجعنا إلى تعاليم القرآن الأساسية ، نجد الإسلام صورة مهذَّبة للنصرانية ؛ ومع ذلك فهو يفترق عن النصرانية فى عدة مسائل ، وخاصة فى نقطة أساسية ، وهى التوحيد المطلق . فإن إله الإسلام الواحد يحلِّق متعاليًا فوق كُل شىء ، منزَّهًا عن الإحاطة ، وعن صحبة الملائكة والأولياء ، ومن تراهم الأديان الأخرى من الأشخاص الخليقين بعبادتهم . فللإسلام الحق فى أن يدعى بأنه أوَّل دين نشر التوحيد الخالص المطلق فى العالم كله . (بيد أن القرآن قد استغنى عن هذا الشرف ، وعرَّفنا بأن الأديان الحقة التى تقدمته ، كانت أيضا تدعو إلى التوحيد) .

« إن بساطة الإسلام العظيمة ناجمة عن هذا التوحيد الخالص ، وسرُّ قوته مندمج فى هذه البساطة ، فالإسلام يُفهَم بلا عناء ، ولا يَعرض على معتنقيه أسرارًا متناقضة مع العقل السليم ، كسائر الأديان . وليس للإسلام إلا إله واحد معبود ، يتساوى عنده الناس جميعا . وله تعاليم وأحكام بسيطة واجبة الرعاية ، إن رُوعيت واتُّبِعت فجزاؤها الجنة ، و إن أُنكرت وأُهملت ، فعقابها النار . فليس فى الإمكان أن تكون عقيدة أبسط منها ، وأبعد عن التناقض . كل مسلم يعلم ما يؤمن به مهما كانت طبقته التى ينتمى إليها ، ويُعَرِّف عقيدته بعدة كلمات بلا مشقة ، فى حين أنه يجب على كل نصرانى أن يكون متكلما ، واقفا على دقائق علم الجدل ، أى أن يكون عالماً دينياً ، حتى يستطيع البحث فى التثليث والاستحالة (القربان المقدس ، تحوُّل الخبز والخمر إلى دم عيسى) وغيرهما من الأسرار .

« لا شك فى أن امتزاج هذا الوضوح ، وهذه الصراحة ، والشعور بالعدل والرحمة اللذين يعلِّمهما ، كان له أثر كبير فى سرعة انتشار هذا الدين فى الدنيا . إن عدم تنصر أى قوم مسلمين ، سواء انتصروا أو انهزموا ، مع أن أقواماً لم تكد تبلغهم الدعوة الإسلامية حتى اعتنقوها ، كالمصريين الذين ظلوا أمدًا طويلا تابعين للقسطنطينية ، يستتر سببه فى تلك الأوصاف التى وُصِف بها الإسلام .

« لأجل الحكم بنفع كتاب دينى وفائدته ، ينبغى ألاَّ يُنْظَر إلى ما فيه من المباحث الفلسفية الضعيفة عامة — أى فى كل الأديان — بل يجب أن يُتَّخذ الأساس والدليل من التأثير الذى تحدثه تعاليمه . وإذا بُحِث من نقطة النظر هذه ، فالإسلام يُعدُّ أهم الأديان المسيطرة على الأرواح . إنه لا يلقِّن أتباعه أمورا جديدة غير ما ورد فى أحكام سائر الأديان ، من الشفقة والعدالة والعبادة ، ولكنه يعلِّم هذه الأمور بطريقة بسيطة ، صالحة لفهم كل الناس ، ويلقن الروح إيمانًا كاملا ، لا يدع مجالا للشك .

« كان تأثير هذا الدين المادى والسياسى جِدّ عظيم فى العالم . فقد كانت جزيرة العرب قبل محمد بلادًا وبوادِىَ مستقلة ، منفصلا بعضها عن بعض ، تسكنها قبائل وعشائر يَتقاتل بعضها مع بعض قتالا مستمرا ؛ حتى إذا مضى قرن على البَعثة ، امتدت الدولة العربية من الهند إلى أسبانيا ، وأضاء نور المدنية كافة البلاد والأمصار التى يخفُق فيها اللواء المحمدى . وكان سبب هذا ملاءَمَةُ الإسلام للمكتشفات العلمية ، ومسايرته لها ، وتلقينه الناس حسن الخلق والشفقة والعدل والسماح .

« أما من نقطة النظر الفلسفى ، فعقيدة « بوذا » أسمى بكثير من عقائد الأديان السماوية . ولكن مسَّت حاجة إلى تبديل فلسفته تبديلا تاما ، لكى تكون صالحة لإدراك العامة . وأما فى شَكلها الحالى المبدَّل ، فمن الواضح أنها دون الإسلام بكثير . (العقيدة البوذية هى فلسفة وحدة الوُجُود . لقد وازناها سابقا بالفلسفة الإلهية وناقشناها . ولكن هل تُتَصور الحقيقة والقيمة لفلسفة بُدِّلت مبادئها ، لكى تكون نافعة وممكنة التطبيق ؟)

« والحضارة التى وضعها تلاميذ محمد (صلى الله عليه وسلم) اقترنت بعواقب كل مدنية سبقتها ، وهى : الظهور ، والتقدم ، والرقى ، والكمال ، ثم الزوال . لقد قلبت الحضارة الإسلامية ما سبقها من الحضارات إلى غُبار ، ثم أدركتها العاقبة نفسها . بيد أن الزمان لم يقدر على إفناء تعاليم الرسول ، بل وقاها وقوّاها ، حتى

عادت أكثر حيوية ونشاطا من كل وقت مضى . فالقوانين المحمدية لا تزال محتفظة بكُلّ قواها ، بينما الأديان القديمة مستمرة فى فقد حكمها وتأثيرها فى الأرواح يوما بعد يوم » .

(٥٧) ص ١١٨ : ذكر القرآن الكريم الأديان الساميّة مرات كثيرة ، على حين لم يذكر شيئا عن مراسم « براهما » و « بوذا » و « زَرَدُشت » وغيرهم ، ممن تُعتَقد أديانهم فى الشرق . وحاول بعض المعارضين حمل هذا على جهل الرسول بتلك الأديان ، والاستدلال به على أن القرآن لم ينزل من الله ، وأن الإسلام ليس ديناً عالميا . بيد أن القرآن قد بين أوّلا أن الإسلام يوافق أسس ملة إبراهيم عليه السلام ، فليس فى وجود مباحث مقتبسة من التوراة والزبور فى متن القرآن ، مايناقض المنطق . وثانيا ، إن كان يستفاد من تحقيقات بعض العلماء احتواء العقائد الشرقية ، على آراء فلسفية عميقة ، فإنه من الواضح كذلك أن تلك المراسم ليست سوى الوثنية ، إذا نُظِر إليها من الوجهة الدينية . وقد مُنِعت الوثنية فى القرآن منعا باتا ، ولم تذكر فيه المراسم الوثنية ، التى كانت ببلاد العرب نفسها ، بل التى كانت بمكة أيضا ، حتى يُستَغرَب من عدم ذكر المراسم الوثنية البعيدة عنها كل البعد !

من الغريب أنه قد ادَّعَى بعض المعارضين فى زمن الرسول ، أنه تلقى القرآن من أسيرين ، أحدهما نصرانى ، والآخر إيرانى . على حين أن ظهور كتاب عربى أعجز شعراء العرب عامة ، من أسيرين أعجميين مستحيل تماما . والآن يُذكرعدم علم ذلك الأسير ناظم القرآن — حاشا لله — بما كان ينبغى له أن يكون معتقدا وواقفا عليه من العقائد الشرقية ، وعن عدم اطلاع محمد صلى الله عليه وسلم عليها بالتتبع . هكذا تتناقض الإسنادات والافتراءات المغرضة ، وتنبو عن المنطق !

(٥٨) ص ١١٩ : ومسألة خلود العذاب الإلهى أو عدم خلوده على الإطلاق مختلف فيها بين أكابر الأمة . فقد ذهب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى ، إلى أن أهل النار يُعذَّبون فيها مدة من الزمن ، ثم ينجون من العذاب ، منقلبين إلى

الطبيعة النارية . و بنـاء على قول ابن عمر وابن مسعود وأبى هريرة رضى الله عنهم ، أن الله يرفع العـذاب بإفناء نار جهنم . وهَاكَ موجز الأدلة المسرودة فى هذا الشأن :

فأولا : نظرا إلى مضامين الآيات القرآنية المتعددة، أن الغاية من الخلق والأمر هى الرحمة ، والرحمة الإلهية أوسع من كل شىء ، وأسبق على الغضب الإلهى ؛ ولو كان العذاب أبديا لـكان منافيا للرحمة ، وهى الأصل فى الخِلقة . و بما أن العذاب قد خُلِق لغاية محمودة ، كزجر النفوس ، فلا تبقى حكمةٌ فى إدامته ، بعد أن تتم تلك الغاية . والأفعال الإلهية لاتـكون منافية للحكمة .

وثانيا : قُيِّد العذاب فى آيات كثيرة بالمشيئة الإلهية . والمشيئةُ السبحانية مقترنة بالحـكمة والرحمة بالطبع ، والآية « لابثين فيها أحقابا » مؤيدة لهذا الرأى ، أى أنها تدل على حصر العذاب فى مدة معينة ؛ وليست الآيات الـكريمة خاصة بالموحِّدين . وفى القرآن آيات كثيرة تبين الخلود فى النار ، بيد أنه ليست فيه آية واحدة تتضمن خلود النار نفسها . ومعنى الخلود المـكثُ المديد ، ولا يفيد الأبدية . وبالعكس من ذلك آيات كثيرة تنبىء عن نعيم الجنـة ، وتصفها بصفات الخلود والأبدية ، نحوقوله : «عطاءً غير مجذوذ» ، وقوله : « إن هذا لرزقنا ما له من نَفاد» ، وقوله : «لهم أجر غير ممنون» (غيرمقطوع) ، وقوله : «خالدين فيها أبدا » ، وغيرها . و بما أن النعمة مقتضى الرحمة ، فينبغى أن تـكون غائية وأبدية .

وثالثا : لقد ورد فى القرآن مرات أن الله لا يخلف وعده ، وليست به إشارة واحدة دالة على عدم خُلفه فى وعيده . والرجوع عن الوعيد كرم ، والله أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين .

تلـكم هى آراء عظماء الأمة المحمدية فى العذاب .

(٥٩) ص ١٢١ : الأحكام الأساسية للعهد الذى عهده النبى صلى الله عليه وسلم إلى رُهبان دير القديسة كترينا بطور سينا ، ونصارى تلك الجهات عامة [من

كتاب « روح الإسلام » لأمير على الهندى] : لا تُفْرض على النصارى جزْية منافية للعدالة ، ولا يُخْرَج قسٌّ من كنيسة يقوم بخدمتها ، ولا يُكره نصرانى على تغيير دينه ، ولا يُخْرَج راهب من صومعته ، ولا يُمنع عن طريق حجه ، ولا تُهْدَم كنيسة ، ليُقام جامع أو بيت للمسلمين مكانها . وللنصرانية المتزوجة من مسلم أن تبقى على دينها ، دون تعرض للاضطهاد من أجل دينها ؛ و إذا احتاج النصارى إلى العون على إصلاح كنائسهم أو صوامعهم ، أو فى شأن من سائر شؤونهم الدينية ، فيعاونهم المسلمون ، ولا يُعد عملهم هذا مشاركة معهم فى النصرانية . و إذا حارب المسلمون سائر النصارى ، فلا تتعرض النصارى الباقون بين القوّتين المتقاتلتين ، للاضطهاد والمسئولية . ومن خالف هـذا العهد من المسلمين عُدَّ خارجا على أمر الرسول .

وصايا أبو بكر الصديق العشر لقواد جيشه : لا تخونوا ، ولا تغْدِروا ، ولا تُمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تَعْقِروا نخلا ولا تُحْرِقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرا إلا لمأ كلة ؛ وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدَعوهم وما فرّغوا أنفسهم له .

فاعتبروا يا أولى الألباب !

(٦٠) ص ١٢٣ : مقتبس من كتاب ما هو القرآن (قرآن نه در) لعمر رضا بك .

(٦١) ص ١٢٧ : وقع نظرى فى الأيام الأخيرة على كتاب مخطوط خليق بأن يسمى خِزانة الحِكَم ، لما يحوى من الآيات الـكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وأقوال العظماء ؛ فاتضح لى — على ما فهمت منه — أن الدين للروح ، والعلم للعقل . و إذْ أن العقائد الدينية لا يتيسَّر إثباتها عقلا وعلما ، فلا بد من إقرارها عينا بلا تفسير ولا تأويل ، و بلا مناقشة ولا استدلال . و إن الاستدلال فى الدين لم يكن معروفا

فى صدر الإسلام ، وإنما اخترعه علماء الكلام فيما بعد ؛ وإن المنازعات الدينية والعلمية التى نشأت عن هذه السبيل ، أحدثت تفرقة وأضرارا عظيمة فى الإسلام .
ولكن الحديث الذى ذكره المؤلف مرّات ، وهو « دينُ المرء عقلُه ، ومن لا عقل له لا دينَ له » يثبت علاقةً جِدًّا قويمة بين الدين وبين العقل ؛ كما أن قوله تعالى « لا إكراه فى الدين » وغيره من الآيات الآمرة بالتذكر والتفكر والتعقُّل ، يستلزم وجوب الاستدلال العقلى .

إن الدفاع عن الدين بإزاء اعتراضات الملحدين ، وتعريضاتهم الموجهة باسم العقل والعلم ، واجب على كل امرئ دينٍّ مثقف ؛ فإن المدافع عن فكرة ما بالأدلة والأقيسة العقلية ، يغلب من يحاول إكراه غيره على التسليم بمبدئه بلا حجة ؛ لأن الإنسان محبٌّ للحرية فطرةً ، وراغب فيها ، ونافِرٌ من الجبر والإكراه ، ومتألم منهما ، فلذا ترك آباء النصرانية الذين كانوا فيما مضى يدعون إلى التسليم بالعقائد الدينية بلا استدلال ، قانونَ الـ « كريدو » (Credo) ، وشرعوا فى محاولة إثبات أن عقائدهم غير متناقضة مع العلم والفن ، وإن القائلين بمخالفة الدين للعلم ، إنما يقولون ذلك لجهلهم الأحكام والعقائد الدينية (الأب مورو « حدود الدين والعلم » ج ١ الفصل الأول) .

التزم مؤلف الكتاب المذكور مذهَبِي المجسِّمة والمشبِّهة ، فسلَّم بعدم إمكان تفسير المعانى الاشتقاقية والظاهرية لألفاظ القرآن والأحاديث ، ثم تصور من الآية : « ثم استوى على العرش » وأمثالها ، جلوسه سبحانه وتعالى على عرشه متكئا ؛ ومن « يد الله » وصفات السميع والبصير ، كونه ذا أعضاء وجوارح مثل الأعضاء البشرية ؛ وتصوَّر من الآيات المبيِّنة ليوم الجزاء ، وهيبة جمال الله وجلاله ، أنه جالس بين صفوف من الملائكة ، كما يجلس الملوك بين رجال حواشيهم فى مراسم استقبالهم لرعاياهم ، حاشَ لله ! ثم قال : تلكم حالات منافية للعقل ، ولا تُقبَل إلا بدون تفكُّر وتعقُّل .

بيد أن اشتقاق كلمة « استوى » بمعنى الاستعلاء ، كما يراه علماء أهل السنة ، أو بمعنى الاستيلاء ، على قول آخر ، أقرب إلى الذهن من معنى جلوسه متكئا على كل حال . ويجوز عد مثل هـذه الكلمات القرآنية من الآيات التى لم نبلغ فهم حقيقتها بعد ، كما كانت الآية : « وكلٌّ فى فلك يسبحون » غير مدركة بحقها منذ أربعة قرون أو خمسة ؛ واستعمال كلمة اليد مجازا بمعنى القدرة والنفوذ والتدخل ، من البديهيات البعيدة عن الاعتراض فى جميع لغات الأمم المتمدينة . ولا يفهم من كونه تعـالى سميعا بصيرا (أى من قدرة السمع والبصر) ، أن له عينين وأذنين مثلنا ! .

إن لغة مهما كانت غنية لا يمكن أن تستغنى عن الحاجة إلى المجاز والاستعارة ، ومحاولة سلب أية لغة إياهما ، معناه تضييقها معنى ، وتنزيل مكانتها إلى درجـة التوحش والبدائية ؛ فهل يقبله أصحاب العربية الأصليون ؟

(٦٢) ص ١٢٨ : يرى بعض الفلاسفة والحـكماء ، وفيهم المحققون كسپنسر وجُستاف لو بون : « إن الديانة التى بدأت أوّلا بالمبالغة فى مناقب الجد الأول ، أو رؤساء القبائل الخالية ، انتقلت متزايدة إلى الخلف . ومن مبالغة هؤلاء فى تعظيمهم له ، أو توهُّمِهم بقوة خفية فيما وراء كل شىء ، وخوفِهم منها ، ظهرت فى صورة التعبد ، أى فى صورة الوثنية ، دفعا لأضرار تلك القوة الموهومة ، ثم انجرّت إلى التثليث ثم التوحيد ، متطورة تطوُّرا تدريجيا » .

أظن أن هـذا الرأى نشأ ، لا من التحقيق فى المسألة من مبدئها ، بل من وسطها ، أى من الزمن الذى عُلِمَت فيه الأساطير المصرية واليونانية وغيرها ، أو استدلالا بعقائد القبائل المتوحشة الموجودة حتى اليوم . إذ قد ثبت بعد التحقيقات الأخيرة ، أن عقيدة الهند القديمة ، والشكل الأول للزرَدُشْتية ، وعقيدة الـكلدانيين ، وحتى العقيدة السرية التى كانت تلقَّن فى المعابد المصرية ، كانت مستندة إلى أساس التوحيد ، أو وحدة الوجود .

وإذ أننا نعترف بأن البشرية تَصوَّرت من العدم جدًّا أوَّلَ ، وألهته وقدست من جاءوا بعده ، بما أسندت إليهم من أوصاف فوق الطبيعة ، بما يقرب من أوصاف الأوَّل ، وتصوَّرت قوى خفية وأسرارا للخليقة ثم عبدتها ، ونحمل هـذا الفكر على سوق طبيعى ؛ فبناء على اجتهادى أن تَصَوُّرَ هـذا الأمر بصورة أبسط ، أى بتصوره أنه بدأ بتصوُّر خالق واحد ، أو مسبب أول ، بدل تلك الصور الأسطورية المهوشة ، وأن هذه البساطة الأصلية قد اختلطت بما لقنها الكهنة فيما بعد — يكون أكثر ملاءمة للعقل ؛ وهذا الفَرْض يوافق النقل أيضا . ولما كان سنوح عقيدة أوَّلية كهذه لفرد ممتاز ، وذيوعُها وشمولها بواسطته أقربَ للعقل من سنوحها لجماعة بِرُمَّتها ، تتحقق مسألة النبوة كذلك . إذن فتأثير التطور فى الفكر البشرى وذكائه ، يتجلى فى درجة صحة التفسيرات والإيضاحات والعلاوات التى قام بها أخيرا الكهنة والرهبان والمفكرون والمفسرون وإصابتها .

(٦٣) ص ١٢٨ : بين خَدَمة العلم والفلسفة كثير من حكماء اليهود ، وإنما استعملت تعبير عالَم النصرانية باعتبار الوطن .

(٦٤) ص ١٣٥ : انظر المعلومات الواردة فى الباب الأوَّل عن الذرات والأتومات ، وهى مقبولة لكونها طبيعية علمية . بيد أنا إذا فكرنا منصفين ، فأية معجزة تحير العقل أكثرمن هذا الأثر البدائى للخليقة ؟

(٦٥) ص ١٣٦ : وفى جملتها ما يقوم به بعض أهل الذكر من كشف القبور ، أى ما يُروى من اتصالهم بالموتى . وليس لى علم بنبأ مؤيِّد لهذا فى القرآن ، ولا فى الحديث ، كما أنى ليست لى تجربة خاصّة فى هذا الأمر ، لعدم انتمائى لطريقة من الطرق الصوفية ، ولعدم ممارستى مناجاة الأرواح (Spiritisme) ، فلذا لا أعد هذه الرواية سوى قضية محتملة للصدق والكذب . وأما المثقفون منا فيرونها عديمة الإمكان ، إلى حدّ أنهم لا يكتفون بتكذيب رُواتها بلا تردد

فحسب ، بل ينكرون الدين كذلك ، لكون أولئك الرواة من أهله ؛ على حين أن علاّمة كآراجو (Arago) لا يراها غير ممكنة . وأما كميل فلا ماريون الذى بذل خمسين عاما من عمره فى البحث فى هذه السبيل ، فيقول بعد أبحاث وتحقيقات كثيرة : إن الروح الإنسانىّ يقوم بتجليات بعد الموت . وأما السير ويليام كروكس الشهير بمكتشفات واختراعات علمية ، فأعلن رأيه قائلا : «لاأقول إن هذه الكيفية ممكنة فحسب ، و إنما أقول إنها واقعة » . وقال السير أوليڤرلوج الذى عُرِف بمكتشفات ومخترعات فى الكهر بة والإيون : « إنى — بنية الخدمة — أتمنى ، متحملا ما أتعرض له من الاستهزاء والتهكم ، تسليةَ الأرواح الحزينة ، بالتكفل لها بإمكان الاتصال بالموتى » . وبينما هذه التصديقات تعتمد على تحقيقات وتجارب علماء قد اشتهروا فى العالم بكفاياتهم العلمية ، فليس للمنكرين دليل يردون به عليهم سوى ابتسامة مستهزئة ! .

(٦٦) ص ١٣٨ : رُوِى أنه وجد فى الهند تمثال عليه هذا النقش « أنشىء فى عام شق القمر » ، واستُدل بهذا على مشاهدة حادث شقّ القمر فى الهند كذلك . بيد أن هذه الرواية لم يمكن تحقيقها .

(٦٧) ص ١٣٨ : ليس الانشقاق انقسام الشىء إلى قسمين أو تقطُّعه أقساما . فقد يُشَقّ قلم و ينشق بدون أن تزول منه قطعة ؛ فيجوز إطلاق الانشقاق على انفجار البراكين وفورانها بشق قشورها .

(٦٨) ص ١٣٩ : ومع ذلك يظهر أحيانا شذوذ فى بعض قوانين الطبيعة ، ولم يُوصَل إلى كشفها حتى الآن ، فلذا تُظن مخالفتها للقاعدة الكلية ؛ فانبساط الجسم بالحرارة ، وانقباضه بالبرودة ، قاعدة كلية ؛ غير أن الماء ينبسط ابتداء من أربع درجات فوق الصفر ، وكلما تقدم نحو الصفر والناقص زاد انبساطا . وهذا الشذوذ نعمة سبحانية لوقاية حياة الأسماك فى بُحَيرات البلاد الباردة وأنهارها ، ولوقاية أحياء البحار المتجمدة من الهجرة شتاء . ومن هذا القبيل شذوذ الخلقة الذى يبدو فى

التولدات . والواقع أن العلماء يحاولون تأويل هذه الأمور وتوجيهها ، ولكن هذه التوجيهات ليست ثابتة ثبوتا كافيا ؛ فلا مانع إذن من عد المعجزات شذوذا كذلك .

(٦٩) ص ١٤١ : ألخص هنا قصة رأيتها فى كتاب « أورانى » لكميل فلامار يون ، لتعلقها بهذا البحث : كان المستر روبر بروس ، وهو من أشهر أسرة اسكتلندية ، ربانا ثانيا لسفينة يجول بها حول جزيرة الأرض الجديدة (Terre Neuve) ، ورأى يوما رجلا لا يعرفه بجانب منضدة الرّبّان الأول يشتغل بالكتابة ، فأسرع إلى الربان وأخبره بذلك . ولما قدما إلى الحجرة ماوجدا بها أحدا ، ولكن رأيا على لوح الأردواز هذه العبارة : « أديروا الدفة إلى الشمال الغربى » . فأسرعا بتفتيش كل أطراف السفينة ، واستجوبا جميع العمال والنوتية الموجودين بها ، واستكتباهم ، فلَم يَعلم أحد منهم بما حدث ، كما لم يشبه خط أحد منهم الخط الذى على اللوح الأردوازى ، فلم يبق لهما إلا توجيه السفينة إلى الجهة التى أوصت بها الكتابة ، مهما كان الأمر . فما سارت سفينتهم مسيرة ثلاث ساعات ، حتى لقيت سفينة اصطدمت بجبل آيسبرج الثلجى ، فعجزت عن السير ، ونقلوا من بها إلى السفينة السليمة . وفى أثناء ذلك شبَّه المستر بروس رجلا منهم بالرجل الذى شاهده فى حجرة الربان ، واستكتبه على الأردواز نفس الكتابة التى كانت به . فإذا خط الكتابة الثانية هو خط الكتابة الأولى بعينه . ولما سئل رُبّان السفينة المصابة عن ذلك الرجل ، قال : إنه اشتكى قبيل الظهر — أى ساعة مشاهدة المستر بروس إياه — من التعب ، واستغرق فى النوم ، حتى إذا استيقظ ، أخبرنا « بأننا سوف نُنقَذ هذا المساء ، لأنى رأيت فى منامى سفينة آتية لنجدتنا » ، وأن السفينة التى عرَّفها شبيهة بسفينة المستر بروس .

على أى شىء تُحمل هذه الحال ؟ لقد قام فلامار يون باستقصاء هذه الحال وأمثالها أربعين عاما أو خمسين ، ورُويت له فى ألوف الرسائل التى تلقاها من جهات

مختلفة حكايات محيِّرة للعقل . وثَمَّة مئات من الرسائل تلقاها من مشاهير الرجال والنساء ، ومن القواد والرُّهبان والحكماء والعلماء والأطباء والأدباء ، واستوثق منها ، ثم نشرها فى بعض مؤلفاته . إن جَرح هـذه الروايات وتكذيبها دون تفكير ، يكون تهمة موجهة إلى كثير من عظماء الدنيا المعروفين بالشرف والأمانة . ولـكن ماذا يقال فى رجل وُلِدَ مُسلما يصدّق هذه الروايات ، ثم ينكر بلا تردد وتأمل ما يُروى عن نبيه ؟

(٧٠) ص ١٤١ : والدليـل الذى يُورد على جسمانية المِعراج ، هو ارتداد بعض الناس فى ذلك الزمان غـير مصدِّقين روايته ، وكأنهم ما كانوا يرتدُّون لو بُيِّن لهم روحانيته . فـكيف يكون ارتداد بعض الجاهلين بالروحانيات ، دليلا على تضمن الخبر جسمانية المعراج ؟ وأنا أعتقد أن هذه الـكيفية إنما تحفز علماءنا الدينيين لاجتناب الروايات الموجبة للارتداد . وهذه عقيدة عائشة وحُذَيفة من أجلاء الأصحاب رضى الله عنهما ، فما مزيتنا ؟

(٧١) ص ١٤٣ : يروى أنه أذن أخيرا بكتابة أحاديثه ، ولـكن الرواية الأقوى أن هذا الإذن كان مؤقتا لزائر فارسىّ .

(٧٢) ص ١٤٧ : نظرا لما ورد فى كتب السير أن النبى لم يختر لباسا معينا . وكان يلبس الأثواب التى تُهدَى إليه ، مما كان مستعملا فى عصره فى بلاد مختلفة .

(٧٣) ص ١٤٧ : ينبغى ألَّا يُفهم من تعبيرى هذا أنى أريد فتح طريق لإنكار الحشر . فالشك فى أن الله يبعثنا فى صورتنا الحالية ، بعد الإيمان بأنه خلقنا هكذا ، ما هو إلا حمق .

(٧٤) ص ١٤٧ : انتشر فى بلاد الغرب فى السنين الأخيرة كتب بعنوان العلوم الخفية ، باحثة فى تيوصوفى (معرفة الله) ، الذى تحدثنا عنه فى الباب الأول ، يتوهم أصحابها أن للإنسان أربعة أجسام : فالأول جسمنا المادى المرئى ، والثانى جسم

نجومى غير مادى (Corps astral) ، والثالث جسم روحى (C. mental) ، والرابع جسم عِلِّى (C. Causal) ، وهو الجسم الذى يرجع به الروح إلى الوجود المطلق . وأن الرؤيا الصادقة ، والحسّ قبل الوقوع ، واكتشاف المنوَّمين بالمغناطيسية الحيوانية بعضَ أمور غيبية ، ينشأ عن انفصال الروح عن البدن الجسمانى ، وقطعه المراحل بالجسم النجومى اللطيف .

إن مثل هذه العلوم والروايات لا تزال بعيدة جدا عن إفادة اليقين . ولكنها تشير إلى أن عقيدة وجود حالات معنوية فى الإنسان ، غير ما نشاهد من جسمه الكثيف ، يقول بها كثير من المفكرين . والتيوصوفى ومن فروعه التصورات والظنون ، ليس أمرا جديدا ، وأمثالهُ متداولة فى الشرق ، فى الهند والصين ، وحتى فى مصر واليونان منذ عهد بعيد . وأما فى الغرب فيجد أتباعا جُدُدا ويتطور . إن هذه الأفكار والمعتقدات المتداولة بين الناس ، المستحسنة لدى كثير منهم ، لابد على قول سپنسر ، أن تكون فيها مَسْحَة من الحقيقة مهما قلَّت .

(٧٥) ص ١٤٧ : لا يمكن إنكار تأثير الجسمانية البشرية والبيئة والأطعمة فى روحانية الإنسان ومعنويته . فمن البديهى مشاهدة الضعف والخلل فى عزم امرئٍ مريض وملكاتِه العقلية . بيد أن الأصل فى الهوية البشرية هو الروح . ويمكن تصوير علاقة الجسم بالروح — على قدر الإمكان — بالمثال الآتى :

نفرض سفينة ، فسفرُها يُشَبَّهُ بوظيفة الإنسان الحيوية ، ورُبَّانها بالروح ، وجسمها بالبدن ، ومحركها بالقلب ، وملّاحوها ببعض الخواص الروحية ، ووقودها بالطعام ، والبحر وسواحلها بالبيئة ، والأحوال الجوّية بالقَدَر . فإذا كان الجسم باليا ، والمحرك مختلا ، والوقود ضعيفا ، والأحوال الجوّية غير ملائمة ، فلن يتيسر إحسان القيام بالوظيفة . ومع ذلك لا يكون أحد مسئولا أمام صاحب السفينة عن نتيجة السفر سوى الرُّبّان . يجوز أن يكون النقص فى الاستعداد والمصادفات السيئة عذرا فى هذا ، بيد أن المسئول عن سُوء استعمال سفينة سليمة هو الرُّبان .

(٧٦) ص ١٤٧ : قرأت مُسَوَّدة هذا البحث من كتابى على رَجُل مشهور بالتبحر فى العلوم الدينيـة والعقلية ، فابتسم من إفاداتى أنى معتقد أبديةَ الروح ، وقال : «إن رأيك هذا غير صحيح ، لأن الروح — ودعك من أبديتها — لا يمكن حتى ادّعاء وجودها . وليست بالقرآن آية صريحة عن الروح . و إذا تحدثت عنها أمام الماديين ، فليس الأمر مقصورا على أن لاسبيل للاتفاق فحسب ، بل لا سبيل لمداولة الآراء» . و يلوح أن هذا الفاضل يتقدم فى الشجاعة المدنية وحسن النية الباحثة عن الوفاق ، حتى يأمل فى إمكان التوفيق بين الإسلام و بين كافة آراء الفلسفة المتناقضة . وأما أنا فمع اعتقادى بعدم تعارض العقائد الدينية مع الحقائق العلمية ، لا يخطر ببالى التقريب بين الفكر الدينى و بين فلسفة الماديين .

إذا حُققت المسألة من الوجهـة الدينية ، فيثبت وجود الروح بآيات عديدة قرآنية ، ونظراً إلى الصراحة الفرقانية بأنها من أمر الله ، يجب الاعتراف بأبديتها .

وبديهى أن ملاحظة العالم التركى المبيَّنة آنفاً قد نشأت من افتتانه بالغرب . ولـكن عظماء حكماء الغرب — ماعدا بعضهم — المشهورين بحرية الرأى ، والمجمع على فضـلهم وعبقريتهم ، مقرون بوجود الروح وأبديتها . فيقول ڤكتور هوجو مثلا :

Je dis que le tombeau qui sur les morts se ferme
Ouvre le firmament,
Et que ce qu'ici bas nous prenons pour les termes
Est le commencement.

أقول إن هذا الرَّمْس الذى يواريهم يفتح لهم باب السماء ، وما نظنه فى هذه الدنيا نهاية ، إنما هو بداية .

قال كميل فلاماريون : « الأشباح لباس الأرواح ، تمضى وتتغـير ، وتبلى وتندثر ، والروح باقيـة » . وقال جوته : « إنى معتقد واثق بأن أرواحنا جوهر لا يفنى ، مؤثر منـذ الأزل إلى الأبد . فالروح مع أنها تتراءى آفلة لأمثالنا الأرضيين ، فإنها تشبه الشمس التى تنشر الضوء دائما » . ولعل عين هذا العالم

التركى لم تقع على هـذه الأقوال ، فلو وقعت لـكان هذا الشخص الذى يهمل جميع الأدلة العقلية والنقلية السابقة ، قد طأطأ رأسه ، وبات من غُلاة الروحيين .

وصل فلاماريون بمجهوداته التى جاوزت نصف قرن إلى النتائج الآتية :

١ — الروح موجودة فى هوية حقيقية منفصلة عن الجسم .

٢ — ولها خواص لم يكتشفها العلم بعد .

٣ — وهى تقدر على التأثير من بُعد ، دون توسط الحواس ، (يجوز امتداد هذا البعد أحيانا إلى كيلومترات ومراحل) .

٤ — وفى الطبيعة بعض عناصر روحية مؤثرة ، ولـكن أصلها وحقيقتها مجهول .

٥ — والروح تستمر بعد الجسم المادى ، وتستطيع القيام ببعض مظاهر عقب الموت .

إذا حُقق الأمر تحقيقا عقليا وفلسفيا ، فإن احتمال وجود الروح وخلودها أقوى . فمنذ ثلاثة أرباع القرن كان الـكيمياء العضوى والـكيمياء المعدنى منفصلا أحدهما عن الآخر ، ويُظن تركيب المواد العضوية النباتية من ذرّات غير ذرّات المواد المعدنيـة . ثم اتضح بعد الاكتشافات الأخيرة أن المواد العضوية النباتية والحيوانية ليست مغايرة للمواد المعدنيـة ، وأنها مركبة غالبا من الإيدروجين والأكسجين والآزوت والـكربون والفوسفور . إنه وإن كان الماديون المتحفزون لدعوة فعّالية المـادة فى العالم منتفعين بكل كشف جديد ، حاولوا اتخاذ هذه الـكشوف برهانا لدعواهم ، غـير أن الـكاشفين الأصليين ، ولا سيما عظماء الـكيميائيين أمثال ليبج وپاستور ، قد اعترفوا متواضعين متدينين ، بأنه لا يمكن تركيب « أُمُنـكولُس » واحد ، بل ولا إيجاد بيضة جرثومة ، أو عضـلة من أصغر العضل ، أو عصب ، أو تركيب ورقة بسيطة صـالحة للنشوء والنماء ، واعتقدوا وجود قوة معنوية للحياة لا نستطيع إدراكها .

ونظرا للعجز عن إيجاد مادة عضوية ذات حياة ، مع أن أجسام النبات والحيوان الظاهرية مركبة من مواد عضوية ، ويمكن تحليل المادة وتركيبها كيميائيا ، يلزم بالضرورة الاعتراف بوجود قوة خفية من أسرار الخلقة فى النبات والحيوان — مالم يقدر العلم كشفها على الأقل — أما بناء الماديين قضيتهم على أساس احتمال كشف ذلك السر فى المستقبل ، فخليقة بالرفض منطقيا . وإذا سميت هذه القوة الحيوية بالروح ، فمن أى شىء يلزم جرحها ؟

ثم إن تطرق الخلل والضياع للأجزاء المادية ، بالرغم من سيرها وانتقالها المستمر ، يُعد من الحقائق العلمية . [ولو أنه يمكن أن يخطر بالبال خروج المادة من حالة المادية ، بناء على النظرية القائلة بحصول المادة من تكاثف القوة . بيد أن القوة التى توجِد هذا الجزء المادى تظل فى الحقيقة باقية راجعة إلى منبعها الأصلى] . فبأى حق يُحكم بفناء الروح التى سُلِّم بأنها ماهية حيوية ؟

ونظرا إلى تجارب علمية حديثة يحافظ البروتوبلاسم ، أى خميرة الحياة — وهى المادة الأولية للحياة وليست روحا — على حيويته فى درجة — ٢٥٣° برودة . لقد وجدت جراثيم فى مقابر روما ومصر باقية من ألوف السنين ، محرومة الهواء والغذاء ، واستُولدت . وبناء على تخمين سوِنت آرنيوس العالم العظيم السويدى المعاصر ، أن جرثومة أو بكتريا تفقد من حيويتها فى يوم واحد فى ١٠ درجات فوق الصفر ، ما كانت تفقده فى عشرة ملايين من السنين لو كانت فى — ٢٢٠° . وبناء على هذه الفرضية يمكن تصور البقاء لحياة بدائية فى درجة — ٢٧٣° فى المحيط الأثيرى . ويمكن أن تتكون فكرة كالتناسل والتكاثر والتطور ثم الفناء فى عالم المادة والمحيط النسيمى ، والاستقرار والبقاء فى العالم الأثيرى . وإذ أنه قد ثبت تجريبيا عدم وجود الحياة فى درجة الحرارة ١٠٠° وأن الكرات المسكونة كانت نارية فى بدايتها ، فيستدل عقلا بأن الحياة هبطت إلى العوالم المادية من الملأ الأعلى — حتى ولو اعترف بفرضية انتقالها من كرة إلى أخرى — إن تصوراتى

هذه وفرضياتى ليست مفيدة اليقين . لا جرم أنى أقر بوجود الروح وخلودها باعتبارها من أمر الله ، بيد أنى أومن بأن حقيقتها فوق إدراكنا . ومع ذلك يمكن أن تعد هذه التمهيدات براهين عقلية على خلود الروح ، أقوى من أدلة المنكرين فى عكس هذه الدعوى .

(٧٧) ١٤٨ : لإيضاح رأيى هذا أعرض على أنظار القراء الكرام المثال الآتى :

وضع الهندسة الحكيم اليونانى أقليدس ، واكتشف « نيوتُن » قانون الجاذبية . ورأى العلماء فى الزمن الأخير أنه لا هندسة أقليدس التى ظلت خمسة وعشرين قرنا حقيقة محضة ، ولا قانون الجاذبية لنيوتُن كاف للإحاطة بالأحداث الطبيعية ؛ فقاموا ببعض تعديل وتوسيع فى هذا الأمر . ومع ذلك لا يورث عملُهم هذا ذرَّة من الخلل فى مجد أقليدس ونيوتن . فإنه لا يُتصوَّر امرؤ متمدين يستجهِلُهما ، بل حتى ينزلهما إلى منزلة من صحَّحهما ، فى حين أنَّ القيام لمنع التقدم بحظر المناقشة فى مؤلفات أولئك العلماء ، بدعوى أنها ليست موضوع مناقشة وجدال ، مضر ؛ على أنها دعوى بَلْهاء . ومثل هذا كذلك محاولةُ الاستخفاف بعلماء المسلمين وفلاسفتهم السابقين ، فهو بَلَهٌ ، بل دناءة بعينها . كما أن تقبلَنا آراءهم ونحن مغمضو العينين ليست بالطريق المستقيم . فأقوال الحكماء يجوز تعديلها بما يتفق ومستلزمات التطورات العصرية — على أن تبقى الأسس الدينية والأحكام القرآنية فى مقامها الاستثنائى الأعلى .

(٧٨) ص ١٥٣ : ومع ذلك ليست بأيدينا حجة نستند إليها فى إنكار المعانى الظاهرة لهذه القصص واستحالتها . فإن علم البشر لم يبلغ بعد حقائق الأشياء بلوغا تاما . ولايظنن أحد من كلامى هذا أنى من الريبيين . فإنى كما بينت فى الفصول السابقة ، أريد بناء آرائى على العلم — مع قلة بضاعتى — لا على الفلسفة . وعلم اليوم يدلنا على أن تأثيرات اللون والشكل والصوت وغيرها نتيجة لذبذبات وموجات ، فيفهمنا أن ثمة فروقا كبيرة بين الأمور المحسوسة و بين حقائق

الأشياء . فلو اخترعت آلة ، كمنظار مثلا ، ممكِّنة من مشاهدة أشعة رونتجن ، وهى محصول ذَبْذبات أسرع من ذبْذبات الموجات التى نحس بها اللون — وليس هذا بمستبعد قياسا على ما نشاهد من التطورات العلمية — فهل يُشَكّ فى أن الموجودات ستتجلى لأحفادنا فى منظر مخالف لما نشاهده الآن ؟ ألسنا نرى اليوم أمورا واهية كانت منذ بضع قرون ، بل بضع سنين تُظَن حقائق ، أو أمورا كانت فى ذلك الوقت مستحيلة ، فصارت اليوم واقعية ؟

ويجوز اعتبار هذه القضية على عكسها كذلك ، أى أن أمرا كان فى ذلك الوقت واقعيا ، نظنه اليوم محالا ، لعدم إدراكنا له ، لأن للأزمنة القديمة علوما وفنونا كثيرة ؛ فبناء الهرم الذى لايزال من العجائب السبع ، متوقف على قدرة علمية وفنية ، وقد أنشىء منذنيِّف وستة آلاف سنة ! وخاصة العلوم الغريبة فقد كانت جدَّ راقية . وكل مافى الأمر أن القدماء حصروا كثيرا من العلوم فى الخواص ، فأخفوها فى معابد مصر تحت الأرض ، وفى معابد الهند والصين ؛ فضاعت أمور كثيرة لم تَعُمَّ بعد فى تقلبات الدهر ، ونُسيت ولم تنتقل إلى عصرنا . فقد عُلِم من البحوث التى تمت فى الهرم الكبير وقوفُ المصريين القدماء على كثير من أسرار علم الفلك وطول نصف قطر الأرض ، وبُعد بعض الأجرام السماوية . على حين لم يشتمل فلك بطلميوس الذى ظهر بعده بخمسة وعشرين قرنا ، على هذه المعلومات . فبأى حق يدعِّى مفكر منصف ، بأن ما نعلمه اليوم حقيقة ، وأية رواية غير موافقة لمعارفنا اليوم يستطيع إنكارها إنكارا باتا ؟ قال فلاماريون فى كتابه « القوى الطبيعية المجهولة » : ليس لأحد حقّ فى إنكار شىء (Nul n'a droit de rien nier) وقد أصدر هذا العلامة هذا الحكم طبقا لما يريده شباننا المثقفون ، المنحرفون إلى وادى الانكار ، أى بعد تجربة واستقصاء مدة خمسين عاما ! .

لقد أظهرت العلوم الخفية (Sciences Occultes) التى تتطور على الزمن

الأخير بعد أن ظلت مدة من الزمن منسية ، عجائب كثيرة محيطة بنا ! وما أظن أن هناك فرقا كبيرا بين مناجاة الأرواح (Spiritisme) والتلقين والوسوسة (Suggestion) والمغناطيسية الحيوانية ، والتأثير والتأثر من بعد (Tèlépathie) و بين الوقائع التى بيَّنَتْها التوراة .

(٧٩) ص ١٥٣ : لا يتصور امرؤ له مُسْكَة من العلم والمعرفة ، انفصال طبقات السموات بعضها من بعض ، بسقوف مصنوعة من الزبرجد والزمرد وغيرهما من المواد . لاجرم أن التفسيرات المبنية على جهل كهذا ، ليست لها علاقة بالقرآن والدين . لا تنفصل الطبقات السماوية بعضها من بعض إلا بخواصها وأوصافها انفصالا تدريجيا ، فالسماء الدنيا يقتضى أن تكون إحداها — نظرا لتخصيصها — وليست هيئتها العامة . فلو فُرض أن هذه السماء هى المحيط النسيمى ، وسُلِّم بالنظرية المذكورة آنفا فى أمر الطبقات ، لأمكن تقسيم المحيط النسيمى الذى يزيد على نيِّف وستمائة كيلو متر من الارتفاع والسمك على الترتيب الآتى :

الطبقة الأولى وهى منطقة التحولات الجوية ، يبلغ ارتفاعُها نحو خمسة كيلومترات أو ستة . وفيها تحدث العواصف والزوابع ، والرعد والثلوج والأمطار .

والطبقة الثانية : عشرة كيلو مترات أو اثنا عشر . وهى محل حدوث التيارات الهوائية المعاكسة ، ولكنها راكدة بالقياس إلى الطبقة الأولى ، وأقسامها العليا غير صالحة لحياة الحيوان — عدا الأحياء أمثال البكتريا — لخلوها من الأكسجين ، بالرغم من وجود غمام بها يُدعى سيروس .

والطبقة الثالثة : وتمتد من خمسين إلى ستين كيلومترا ، يكثر فيها غاز الآزوت ، وفيها يظل رماد البراكين معلقا .

والطبقة الرابعة ترتفع إلى مئة وخمسين كيلومترا ، وفيها تشتعل الشُّهُب باحتكاك غاز الإيدروجين ، فإذا صارت حذاء الكيلو الستين خمدت ، لغلبة غاز الآزوت ، لأنه مانع من الاحتراق .

والطبقة الخامسة : ليس فيها غير غاز الإيدروجين والهليوم .

والطبقة السادسة وهى على ارتفاع أربع مئة كيلو متر أو خمس مئة ، تتعلق فيها حبيبات تُسمَّى غبار العوالم أو مدفوعات الشموس . وفى غبار العوالم المتكاثف يحدث الفجر الشمالى ، و ينير الليالى القطبية المديدة كأنها مصابيح ، ويزيّنها و يجعل المنطقة القطبية صالحة للحياة . ولهذه الحبيبات المنيرة خاصة الدفع والطرد لبعض الموجودات والأحياء الخفيفة بواسطة ما تحمله من الكهربا السالبة .

والطبقة السابعة : مكوَّنة من الغاز المسمى « جيوكورونا » .

ذلكم هو أنموذج الطبقات السبع التى يذكرها المنكرون مستخفين ! و يمكن العثور على هذه الحقائق فى كثير من الكتب العلمية . بيد أن أصحابنا المنكرين لا يكلفون أنفسهم مشقة البحث والتنقيب ؛ فهم إنما يستلهم بعضهم بعضا على حسب هواه ! ولا أرى حاجة إلى البحث فى طبقات الأرض . ولعل كل امرئ له إلمام قليل أو كثير بأحوال الدنيا قد سمع عنها . و إذا فرضت السماء الدنيا بالكرة النسيمية فيسلَّم بطبقاتها وتزينها بمصابيح ، و إمكان طرد هذه المصابيح لبعض أنواع الموجودات الدنيئة الخبيثة .

لقد زودتنا آراء المحقق الفاضل الأستاذ نعيم بك فى مقدمته لترجمة البخارى بمعلومات عن السموات على الإطلاق . ولكن لا توجيهات الفقير ولا آراء نعيم بك تتضمن معنى كون الطبقات السماوية كما ذكرت حتما . ولعلها جواب مقنع يشير إلى صور ممكنة ، على استهزاء المنكرين و إنكارهم .

(٨٠) ص ١٥٤ : إن عدم استقرار الأجرام السماوية فى الأفلاك ، بل سبحها وجريان الشمس لمستقر لها ، وحدوث المادة وفناؤها الذى كان العلم حتى بضعة أعوام ماضية يظن عدم فنائها ، قد ذُكِر كله فى القرآن . بيد أن المنكرين كانوا يسندون البهتان إلى كتابنا ، لعدم توافقه والمذهب العلمى القديم . وتحققت تلك الأمور كلها علميا . فالتسليم بمسألة الطلاق ، ومنع المسكرات ، وكشف التريشين

فى لحم الخنزير ، أليس كله دليلا على اتجاه المتمدينين الذين يعبدهم المثقفون منا ، وميلهم إلى الأحكام الإسلامية رُوَيْدا رويدا ؟

(٨١) ص ١٥٤ : يقول علماء المسلمين إن القرآنَ ليس كتاب علم ، وإن آيات التذكير إنما نزلت وسائل وأدلة على التوحيد متفقة مع علم المخاطبين ، ومع ما يحدث بينهم فى ذلك العهد ، فلا محل إذن للمناقشة فى هذا الباب ، ويقطعون النزاع بهذا من جُذُوره . وتوجيهاتى المستندة إلى الممكنات والمحتملات التى ذكرتها آنفا مبنية على قصد الدفاع لمغالطات المنكرين وادعائهم — صيانة للشبان الأغرار .

إنى أريد أن أقول مستنتجا من هذه الآراء المقتبسة من المؤلفات الغربية ، إنه كلما ترقى العلم وتشعب ، اتسع أفق الممكنات فى نظر الإمعان . ولا شىء يمكن رده بسهولة . والفرق بين المدنيين الفضوليين الذين يريدون رد كل شىء بلا تفكير ، والقرويين الأغفال المصدقين بسهولة لكل ما سمعوه ، إنما هو مرض هؤلاء بالجهل البسيط ، وأولئك بالجهل المركب .

(٨٢) ص ١٥٨ : يتهم أعداء الإسلام محمدا صلى الله عليه وسلم بالشهوانية ، لتعدد زوجاته الطاهرات . وقد أمضى خمسا وعشرين سنة من عمره الخمسين ، مع ثيب تَكْبَره بخمسة عشر عاما ، وهى السيدة خديجة الكبرى . ولما توفيت عقد زواجه على عائشة بنت أبى بكر الصديق ، إلا أنه لم يبن بها لصغر سنها ، وتزوج سودة وكانت ثيبا . وزوجاته الأخريات كلهن متروكات عظماء العرب ، الذين ودعوا الحياة فى هجرة الحبشة ، وفى الغزوات فى سبيل الدين . وفيهن بنت عمر وبنت أبى سفيان .

ذكر فى بعض مؤلفات الغرب أنه أرغم زيد بن حارثة على تطليق زوجه زينب ، ثم تزوجها . وزينب هذه ابنة عمة محمد ، وكانت ممتنعة من الزواج من

زيد مولى النبى ، مدعية عدم كفاءته لها، فتوسط النبى وتم الزواج ، تنفيذا لما وضعه من المساواة عمليا . تم الزواج ولكن لم يتم الامتزاج بين الزوجين ، برغم توسط الرسول ، لتكبُّر السيدة زينب وغرورها ، فوقع الطلاق بينهما ، فتزوجها الرسول ، تعويضا عما أصابها من غبن فى زواجها من زيد . ووقوع الزواج أوّلا بوساطة النبى ، ودوام زيد على صداقته للنبى ، حتى بعد تطليقه زينب وزواجها من النبى ، يُبعِد وقوع الجبر فى الطلاق .

كان لمحمد أعداء كثيرون فى أثناء حياته كشأن كل مجدد . فبينما يجادله الأعراب والوثنيون جهرا وصراحة ، يسعى المنافقون واليهود من طرق خفية لإيذائه والإضرار به ، فيفترون عليه الكذب، لإسقاطه بين معاصريه ومن يأتون بعدهم ؛ فلذا ينبغى إهمال هذه الأراجيف المتقطرة من أقلام أعداء الدين .

وأما زواجه من جويرية بنت رئيس قبيلة بنى المُصْطلِق المغلوبة ، فقد ترتب عليه أن أعتق المنتصرون ألوفا من أسرى القبيلة المنهزمة ؛ كما أن زواجه من السيدة صفية بنت أحد رؤساء اليهود بعد موقعة خيبر ، عدّل من شدة المنتصرين على اليهود تعديلا تاما . فلهذا لا ينبغى البحث فى زواج محمد عن الشهوة ، بل عن العوامل الفكرية والأخلاقية ، كالرحمة والرقة والسياسة .

(٨٣) ص ١٥٩ : ولدت صنوا لأسرة كبيرة كثيرة الأفراد والفروع ، بعد إلغاء الرق فى روسيا وأمريكا بنحو عامين أو ثلاثة أعوام . ورأيت فى طفولتى عبيدا وجوارى ، ثم تنقلت فيما بعد فى بلاد كثيرة من المملكة العثمانية ، فرأيت بعينى ما يجرى فيها من أصول الاسترقاق وقواعده ؛ فلذا أزعم بأن فىّ قدرةً على تزويد القراء بأنباء نافعة عن كيفية فهم الأسْر والاسترقاق فى الدولة العثمانية فى العهد الأخير .

لا يولد أحد عبدا فى البلاد التى تسرى فيها قوانين الدولة العثمانية ، ولا يُستَرقّ أتباع الدولة بالبيع والشراء . وكان العبيد والجوارى يأتون إلينا من الروس أوّلا ، وخاصة من القوقاس ؛ ومن إفريقية ثانيا . أما ظهور خطف العبيد فى

إفريقية أو توسُّع هذا الخطف على الأقل ، بعد كشف أمريكا ، فمن المؤكد أن سببه الأمم النصرانية . فكانت البلاد الأوربية منبع أمتعة أسواق الأسرى التى صارت موضوعا لكثير من الأخيلة الشعرية فى أوربا ، وموردها .

ولما قدم إلى بلاد الدولة العثمانية عدد كبير من مهاجرى الچركس القوقاسيين بعد حرب القرم (١٨٥٤ — ١٨٥٥ م) ، وشرع أمراؤهم وذوو الثراء منهم فى استخدام عبيدهم وجواريهم الصغار بالبيع سرا ، على حسب عاداتهم المألوفة فى القوقاس ، وانضم إليهم منبع داخلى كذلك ، إلا أن هذا المنبع كان محدودا ولم يدم كثيرا .

كان نظام الاسترقاق المتنقل من الآباء إلى الأبناء ، سائدا فى بلاد العرب بين قبائل الرُّحل ، التى لاتراعى فيها قوانين الدولة كثيرا . ولكن كان لهؤلاء العبيد مقام عظيم بين القبائل ، فلهم دواب وخيول ومواش كافية لسدحاجاتهم . ووظيفتهم القيام ببعض غارات خاصة ، ولا يُكلَّفون خدمات دنيئة ، ولا يباعون للغير حسب التعامل . ومن أولئك الأرقاء عبيد الحسينية ، الذين كانوا عند عشيرة الحسينية بسورية ، فقد كانت لهم شهرة واسعة بين القبائل .

وطبقة العبيد التى تعيش بين قبائل العرب بتهامة اليمن ، تحيا حياة مرفهة سعيدة ، ولا سيما الزنجيين المدعوين عنبر ومرجان ، اللذين كانا عند شراعى باشا من أمراء الحديِّدة ، وحرازى من كبار تجارها ؛ فإنى قد شاهدت بنفسى أنهما كانا أرفع مكانة من أفراد أسرة شراعى باشا وحرازى ، بل من أبنائهما كذلك . ولم يكن استخدام الأسير من عادة الزيديين المقيمين بجبال اليمن .

وكان استخدام الرقيق نادرا أو معدوما فى الروميلى ، من بلاد الدولة العثمانية . وأما فى إستانبول ، فقد كان استخدام عبد أكثر من سبعة أعوام عيبا فى الأسر الكبيرة . وإذا أُعتِق العبد لم يُطرد من البيت ، بل ثُقِّف بعض التثقيف ، ثم وظِّف فى وظيفة مناسبة لمعلوماته ، وزُوِّج ، وقدِّم له مايلزم لهذا الزواج من جهاز

ونفقات . وليس هذا حَسْبُ ، بل يظل منزل سيده القديم مفتوحا له ، إذا عجز عن تكوين بيت يأوى إليه سعيدا . ولا تزال عمةً لنا چركسية فى الثمانين من عمرها ، قد أرملت مرتين ، تشاركنا فى حياتنا وأرزاقنا المقدَّرة حتى اليوم . وهناك زنجى قد بلغ الثمانين من عمره يعيش بمنزل أحد أقاربنا ، كأنه صاحب آخر لهذا البيت ، وقد امتزج السيد صاحب المنزل ، وهو من السن نفسها ، والعبد الزنجى امتزاجا يتمنى كلاهما ألّا يرى موت صاحبه . ولعل دعاءهما مستجاب ، لأنهما والحمد لله لا يزالان ممتَّعين بالحياة .

وإذ كان المرحوم عمى صهرا لمشير التشريفات ، كان بعض السيدات العظميات لقصر آل عثمان يحضرن إلى منزلنا للاستجمام، بحسب عادة ذلك العهد . فكم كان سرورهن ورضاهن وارتباطهن بحياة القصر ، ومحبتهن للخصيان ، ولاسيما صداقتهن لمولاهن ! . . وأما ما يدور حول بؤسهن من القيل والقال ، فما هو إلا بُهْتان ومحض خيال . كان تزويج نساء القصر من الرجال ذوى الثراء والمناصب العالية ، عادة موروثة منذ القدم ؛ فقد رأيت فى صباى أسرا كثيرة من هذا النوع ، فليس ما ذكرته آنفا مستندا إذن إلى مثال واحد لا غير .

ذلك هو الرِّق فى الإسلام ؛ فهل يمكن مقارنته بما جرى للعبيد فى روما القديمة ، وفى أمريكا إلى زمن قريب ، وفى أوربا إلى مئة وخمسين عاما ، وفى روسيا حتّى سبعين سنة خلون ، من العسف والظلم الذى كان يُطبَّق على أولئك المساكين ، والعقوبات والمشاق ؟ [كان فض بكارة الجارية التى يتزوجها الرقيق ، حقا لصاحب الأملاك قانونا وعرفا] . فلم تكن هذه السهولة والرحمة التى عندنا إلا من التعاليم الدينية .

(٨٤) ص ١٦١ : وفى القرآن أمثلة وقصص دالة على ماسهل الله لعباده . ومنها « وخذ بيدك ضِغْثاً » المتضمنة لتوفية أيوب عليه السلام بعهد من عهوده بصورة لينة . وقد أريد الالتجاء إلى الحيل الشرعية ، استدلالا بتلك الآية الكريمة ،

ولكن كل من يتلو الوصية فى القرآن ، يدهش مما حدث من حق وحكمة ، بينما كل عاقل قادر على التمييز يعجب ويحتار عندما يسمع التأويل المذكور .

(٨٥) ص ١٦١ : نظرا للقانون الرومانى المستعمل فى الغرب والشرق الأدنى فى ذلك العهد ، كان للدائن حق الاستيلاء على المدين ، واستخدامه رقيقا إذا كانت أملاكه غير موفية بدينه الذى كبر بالربا الفاحش ، حتى صار أضعافا مضاعفة .

(٨٦) ص ١٦٢ : كنت أدرجت مسألة الأرباح هذه فى كتابى ، مثالا للمعاملات العجيبة المستعملة للحِيَل الشرعية . ولكن القائلين بحرمة الربا بجميع صُوَره نقدوا ملاحظاتى الأخيرة ، فقالوا بعدم جواز المعاملة بالربا بأية صورة من صُوَره ، ولو بحيلة شرعية . فاستوضحت الأمر رجلا مسلّما له من الجميع بالعلم والفضل واستفتيته ، فتفضّل وزودنى كتابةً بتفصيل الآراء والأقوال المختلفة لمجتهدى المسلمين فى شأن الربا . وألخص ما استنبطته من تلك البيانات فيما يلى :

أولا : — ربا النسيئة ، وهو ربا الجاهلية الذى كان ينتهى برفع الدَّين إلى أضعاف مضاعفة بطريقة الربح المركب ، وغبن المدين ، والقضاء عليه غالبا . وهذا الربا منهىٌّ عنه ومحرّم بتاتا .

وثانياً : — يُستنبَط من الآية الكريمة « وحَرَّم الربا » حرمة الربا مطلقا بكل أنواعه ، إلا أن هذه الآية قُيِّدت بالآية « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » .

وإذ أن القاعدة الفقهية تقول : « المقيَّد يرجّح على المطلق ، فيُحمَل المطلقُ على المقيَّد » ، فيجوز الحكم بأن المنع ينصب على الربا المؤدى إلى تضعيف الدَّيْن ، وغبن المدين . غير أن العلماء اشتبهوا فى هذا القيد ، أهو احترازى أم وقوعى ؟ فقال عمر الفاروق المعروف بصلابته : « توفى الرسول بدون تفسير الربا ، فلذا يلزم ترك الربا والرِّيبة ، وتجنب كل معاملة مشكوكة يلاحظ فيها الربا » . اتبع علماء أهل السنة هذا الرأى حتى اليوم . ومع ذلك وقع خلاف بين العلماء — فيما عدا ربا النسيئة — فى الربا البسيط ، كربا الفضل الذى لا يؤدى إلى غبن المدين وإضراره

فقد أجاز بعض العلماء الربا الخفيف ، الذى يكفل ربحا للدائن مع بعض أنواع البيوع ذات مواضعات ومقاولات ، كبيع العينة و بيع الآجال . ولكننى أعتقد أن هذا أيضا ليس سوى حيلة شرعية ، كما ذهب إليه الفقهاء المخالفون على الرأى المذكور .

للتخلص من الربا يلزم ارتفاع علة التحريم . ولما كانت العلة مَناط الحكم ، فإن ارتفاعها يسقط الحكم . وبما أن العلة منصوص عليها فى القرآن ، فإن العلماء اختلفوا فى هذا الباب كذلك .

فنظرا إلى اجتهاد الفاضل المشار إليه يجوز الإذن بربا غير النسيئة ، وعلى شرط عدم غبن المدين ، بناء على قاعدة « الضرورات تبيح المحظورات » ، و « الضرورات تقدَّر بمقاديرها » . ثم إن الحديث « إنما الربا فى النسيئة » و « لاربا إلا فى النسيئة » يدل على أن الربا المحرم هو ربا النسيئة .
ولا ربا فى المعاملة مع دار الحرب ، أى البلاد التى لاتسرى فيها الأحكام الإسلامية ؛ فالربح المأخوذ منها ليس ربا ممنوعا .

فنظرا إلى هذا يجوز معاملة الربا فى أمور ضرورية كتنمية مال اليتيم ، وإقراض رجل عاجز عن استثمار نقوده بطرق أخرى ، على شرط أن يفيد منها إفادة عادلة غير مضرة بالمدين ، وصون تداول الثروة القومية وغيرها من الضروريات .

إن مدنية اليوم تكاد تكون مربوطة بمعاملة المصارف ؛ فدور الصناعات الكبرى والتجارات الدولية لا تتم بدون مصارف وفوائد . وشراء أمة أسلحتَها من خصومها محرومةً من استخدام ثروتها العظيمة ، يكون مخالفة للأمر الجليل : « وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة ومن رِباط الخيل » . وبناء على هذا يكون وضع قانون ينظم الضرورات والاحتياجات ومصالح الناس ، موافقا للفقه الإسلامى . وأحكام المعاملة تدور على المصلحة والمفسدة .

أظن أن هذه الخلاصة التى راجعها الفاضل المحترم ، ووافق عليها ، تُلزم

المنصفين المعتدلين ، وترك العلل والحِكم فى الأحكام ، واللعب بالألفاظ ضار بالجامعة الإسلامية ، وقد ضرها فعلا .

(٨٧) ص ١٦٤ : بين نيتشه آراءه فى كتبه المختلفة بجُمَل وحِكَم مكتوبة بلغة نارية . وليس الموجز المذكور هنا من استنباطى من تلك المؤلفات رأسا ، بل هو مُقْتَبَس من ملخّصات دائرة معارف «ماير» . وأضيف هنا فأقول : إن نيتشه لم يكن فى حياته إنسانا غير عادى حسب ، بل إنه جُنَّ فى الخامسة والأربعين من عمره ! .

(٨٨) ص ١٦٦ : كانت قبيلة بنى قُريظة تقيم بجوار المدينة ، وعاونت الأعداء فى حرب الأحزاب سرّا وعلانية ، مخالفة لما بينها وبين المسلمين من معاهدة . وهاكَ أمر التوراة فى هذا الباب : « وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة ، كُلْ غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك — تثنية ، الأصحاح ٢٠ الآية ١٣ — ١٤ » .

(٨٩) ص ١٦٩ : لم يُذكر هذا الأمر فى القرآن ولكن المعروف أن عَبَدة الأصنام يُسْنِدون إلى آلهتهم أمورا دالة على اعتقادهم حب آلهتهم للنساء .

(٩٠) ص ١٦٩ : انظر أواخر بحث « واليوم الآخر » من الباب الأول .

(٩١) ص ١٧١ : انظر الأجوبة التى رَدَدْت بها على الماديين عندنا فى مبحث « آمنت بالله » وأوائل الأجوبة على الاعتراضات فى مبحث « وملائكته » والاستطراد المشتمل على معاتبة العلماء .

(٩٢) ص ١٧٢ : يفسر القاموس الطبيعة بأنها سجية جُبِل عليها الإنسان . والبحث عن الخالق وفكرة الله من الجبلة البشرية . فالإنسان المتفكر لا يسلِّم بظهور الكائنات من تلقاء نفسها ، بل يبحث عن السبب الأول لوجودها .

(٩٣) ص ١٧٤ : التزمت فى هذا الكتاب طريقة لإثبات القداسة الدينية بأقوال علماء الغرب ، فلذلك لا أستشهد بأقوال أعاظم علماء المسلمين . ثم إن حكماء الإسلام المشهورين ظهروا من بين علماء الدين ؛ فليس من المنطق سرد أقوالهم فى بحث وجدال مع أعداء الدين .

(٩٤) ص ١٧٥ : بما أن الفرصة سانحة ، فلا بأس من إيراد ملاحظات حول آراء بعض الفلاسفة الميالين إلى الانكار فى ظهور الأديان . فعندهم أن الإنسان المتطور من الحيوان كان كأجداده خالى الذهن من فكرة الأديان . ولكن كلما تأثر بالأحداث والصَّدَمات الكونية وتألم ، توهم وجود روحانية حاكمة فيما وراء هذه الأشياء المرئية (Animisme) أى أن هناك شخوصا غيبية تعيش كالإنسان مفكرة مثله ، ومؤثرة فى الأشياء الظاهرة . ولما كان الإنسان ككل حيوان مجبولا على الحصول على أسباب حاجاته المعيشية ، والخوف من المهالك ، أحس الحاجة إلى عطف وكرم بعض قوى غيبية ، زعم أنها مسيطرة على المكونات والأحداث الطبيعية الفائضة بالحياة والنعيم ، أو المسبب للبلايا والممات ، كالشمس والقمر والنجوم والأرض والبحر والجو والمطر والصاعقة والعاصفة ، وغيرها من القوى الطبيعية ، وخشية غضبها والحذر منها ؛ فشرع فى المصانعة بالعبادة لتلك القوى المزعوم شعورها باللذة والنعيم والغيظ والحنق كما يشعر هو ، وطَلَبَ رضاءَها عنه بتقديم القرابين والنذور والشموع . هكذا أوجد كل قوم دينَهم .

يريد هؤلاء الفلاسفة إثبات دعواهم فى نشأة الأديان بتشبيه عبادة الإنسان بالصداقة والتملق اللذين تظهرهما الحيوانات ، ولا سيما الكلاب ، للحصول من أصحابها على الطعام ، أو النجاة من العقاب . بيد أن أصحاب الكلاب محسوسون وليسوا متخيلين كآلهة البشر ، فلهذا كان القياس مع الفارق ؛ ثم إنه من أى حيوان ، وفى نتيجة أى تطور ، جاء تصور الروحانية للإنسان المدعى خلوّه من فكرة الدين كسائر الحيوانات التى يفرض تشعبه منها ؛ فإن هذا الأمر لا يزال فى

حاجة إلى الإيضاح ، لأننا لا نرى فى الحيوان ماينم عن تصورها فكرة الروحانية أو الديانة .

كذلك هم لايفرقون بين الأديان المنزلة والوثنية الباطلة ؛ فالموسوية والعيسوية والإسلام المعدودات ديانات التوحيد ، ظهرت — على قول جُستاف لوبون — من تطور تلك العقائد الواهية تطورا ما . [يعترف جُستاف لوبون فى فصل آخر من كتابه بأن الإسلام أصفى دين] . وموجز الكلام أنهم يدّعون بأن الديانة إنما تولدت وتُوُورثت من جهل البشر ووهمه وضلاله . ثم يقولون إن ما يشاهد عند بعض الشعوب التى لم تبلغ الكمال بعد ، من الإيمان بالمغيَّبات ، والتشاؤم والنذور ، والاعتقاد بالأرواح والأجسام اللطيفة وغيرها من الحالات الفكرية ، ماهى إلا تُراث من ذكريات الوثنية القديمة ، ويقيمونها دليلا على صدق فرضياتهم . [هذا الرأى الأخير غريب ، إذ يلزم منه أن يكون أوباش باريس المنكرون كل شىء اتباعا لشهواتهم ، أكثر تكاملا من پاستور ، وفلاماريون ، ومارشال فوش ، من المؤمنين بالروحانيات] .

ينكر أولئك الفلاسفة العلاقة بين الخلقيات والأديان ، مستدلين على ذلك بأن المشركين والوثنيين يصوّرون آلهتهم متصفة بالرذائل ، من الظلم والشدة ، لا متحلِّية بالفضائل . فنظرا إلى قول جُستاف لوبون يكون بوذا وعيسى هما أول من لقنا الناس عقيدة اتصاف الإله بالرحمة ، ووجوب تخلق الناس بالشفقة . بيد أن رأيهما هذا لم يكن أثر إلهام ، وإنما نشأ مما اكتسبته الطبيعة من الرقة ، بتطور بيئات الناس . ولكن الناس ، برغم هذه التلقينات ، لا يزالون يتصوّرون العذاب والقسوة فى الربوبية . لأن التعصب الدينى والرحمة لا يسيران متوازيين ، فكلما زاد أحدهما نقص الآخر . فقد عذب نيرون الحواريين أوقتلهم تعظيما لجوپيتر ، كما أن قضاة محاكم التفتيش المقدسة أحرقوا معتقدى المذاهب الأخرى بالنار فى سبيل إلههم . وقد اطمأن هذا الفيلسوف إلى تحول إدراك الأخلاق على حسب

الزمان والمكان ، حتى استغرب من عد بعض الحكماء أمثال كَنْت وكندورسى وبوكلى المبادىء الأخلاقية مشتركة فى كل الأقاليم والأمم ، وغير متغيرة . وأورد فى صددَ الاحتجاج قول پاسكال : « إن ما هو حق فى هذا الجانب من جبال پرينه باطل فى جانبه الآخر » .

قياسا على ذلك تتغير الأديان بالنسبة إلى الشعوب ، وحتى الأشخاص كذلك . فالفرق عظيم بين إيمان پاسكال وبين نصرانية رجل من بيمونتى لا يرى بأسا من سب مريم جاره . ومجمل القول أن الناس خَلَقوا آلهتهم وأديانهم فى بيئاتهم ، قياسا على أنفسهم ، ثم آمنوا بها وعبدوها . (الحضارات الأولى لجستاف لوبون) .

وواضح أن هذه البيانات غير المستندة إلى حساب وتجربة ، ماهى إلا فَرْضية ، نقطة استنادها نظريات نشوء الإنسان من الحيوان بالتطور ، ونشوء الأديان المنزلة من الطاغوت . وقد بينا فى الباب الأول من هذا الكتاب أن نظرية نشوء الإنسان من القرد بالتطور ، ليست باطلة حَسْبُ ، بل سقطت من نظر معظم العلماء فى الزمن الأخير . حتى لو فرض نشوء الأديان من الخوف والرجاء والتملق المستقر فى جبلة الإنسان ، كما فى كل حيوانِ أساطيرِ الأولين ، فإن عد الأديان المنزلة مولودة الوثنية المتكاملة نسبيا ، ليست ملاحظة سليمة . لأن معنى كلمة (Evolution) المصطلح عليه ، هو تطور تدريجى فى الرقى ، ولا نرى تدرجا فى ظهور الأديان المنزلة . لقد ظهرت كلها فى شكل انقلاب عظيم فجائى . فقد قام إبراهيم — نظراً إلى التاريخ المقدس — بمفرده مناديا بهدم عقيدة الكلْدانيين الوثنية ، ومظالم ملِكهم نُمرود وجبروته ، فوضع دين توحيد حنيف ، مناقض لما تعلَّمَ ووَرِث من العقائد مناقضة تامة . أما موسى وهو راع معقود اللسان خلقة ، فقد قام وحده طاعنا على معتقدات الفراعنة الجبابرة وسلطانهم ، فأنقذ قومه منهم ، وأسس عقيدة وحدة الإله ضد عبادة الأصنام الشائعة فى بيئته ، [قال جستاف لوبون : إن بنى إسرائيل عبدوا بعد وفاة موسى آلهة غير « يهوا » منهمكين فى منهيات مخالفة للأخلاق ، ولكن

مناقشة هذه المسألة ليست من موضوعى . بيد أنه كتب أن أنبياء بنى إسرائيل اجتهدوا لنفى ما ظهر من السيئات فى الدين ، والطعن على الدين لعصيان أهله له لايتفق مع المنطق] . ولما كانت هذه الروايات متوغلة فى القدم ، و واردة دائما فى الكتب المقدسة ، فقد يجوز للمنكرين الشبهة فى الوثوق بها . بيد أن عيسى عليه السلام أيضا وضع دين التوحيد ومبدأ الشفقة ضد وثنية الرومان ، وأخلاق اليهود ، وأعمالهم الفاسدة ، ونشره للناس . قال جستاف لو بون دَهِشاً : إن الدين الذى وضعه مجذوب كبير سامى Grand halluciné (عيسى عليه السلام) ملفقًا بين العقائد الموسوية و بين تعاليم الشفقة والرحمة التى أبدعها « بوذا » قبله بخمس مِئة عام ، قد تأسس بدلالة كثير من الأسباب والعلل ، واستطاع البقاء عشرين قرنا ، و إن فلسفة مذهب العقلية (Rationalisme) التى اكتسبت قوة فى زماننا لم تقدر على قهر تلك الأباطيل المتغلغلة فى النفوس مذ قرون كثيرة ، حتى إن أعظم الحكماء أمثال أوغوستن وغاليلا ونيوتن و پاسكال لم يستطيعوا التخلص من تأثير تلك الخرافات . على حين أن ذلك المجذوب الذى لم يفارق فلسطين ، ولم يشتغل بالفلسفة ، نظرا إلى مهنته ، قد قلب الطاغوت الذى دام دهرا طويلا رأسا على عقب فى بضع سنين . ودعايات المنكرين التى دامت أكثر من قرنين ، وزادت قوة على قوتها بالثورات عجزت عن قهرها . أفليس هذا مما يزيد الحيرة والدَّهَش ! ؟

أما محمد الذى ثبت تاريخه أكثر من تواريخ كل الأنبياء السابقين ، فكان قومه وثنيين ، وكانت قبيلته صاحبة أجلّ صنم لأعظم معبد فى بلاد العرب ، ورابحة ما يترك زُوّارمكة بتلك المناسبة من ثروات ، وقد كان محمد أمِّيا لم يمارس العلم والفلسفة قطّ . وكان بجزيرة العرب النصارى واليهود ، ولكنهم ما كانوا متوطنين بمكة . لقد ذكرت فى مبحث « ورسله » عدم كفاية رحلة أو رحلتين قام بهما محمد فى رفقة عمه ، لاقتباس الآراء الفلسفية . فقد استهدف لأنواع المهالك ، وداس فى سبيل مبدأ مناقض لما تلقى وتعلم فى صغره من العقائد والعادات المكروهة السائدة فى

وطنه و بيئته ، ومصالح قبيلته ، دون انتظار منافع خاصة من وراء ذلك . إن وضع قانون وتعليمه للناس ، وتحريم التشاؤم والتطير وغيرها من المعتقدات الباطلة ، كرغبة الفلاسفة الإيجابيين ، من أمثال جستاف لو بون ، لا يمكن أن يُعَد من الأحوال العادية ، ولا أن ينطبق على التعريف المذكور آنفا . فتلقين التوحيد لعباد الوثن من عصور كثيرة ، وجعل من يعدُّون وأد البنات شجاعة واستقامة وعبادة ، يعترفون بحقوق المرأة [تفوِّض الشريعة الإسلامية للمرأة كثيرا من الحقوق والواجبات ، فتجيز لها الإفتاء والقضاء فى مذهب الإمام أبى حنيفة فى الأمور الحقوقية ، ولكن لا يجوز حكمها فى الأمور الجزائية ، لرقة قلبها] ، والأمر بالعفة لأرباب الفحش والسفه والغارة والقمار ومدمنى الخمر ، والرعاية لحقوق الغير ، فكُلُّها لم تكن تطورا تدريجيا ، بل كانت طيرانا متعاليا خاطفا ، وانقلابا عظيما رحمانيا .

فتلكم أمثلة دالة لا على وجود صلة بين الدين والطاغوت ، بل بالعكس براهين تثبت التناقض بينهما . إن إنكار القائلين بمحاولة البشر من تلقاء نفسه تصوُّر روحانية فيما وراء الأشياء ، أن يظهر من أنفسهم رجل ممتاز ، وأن يتصوَّر سببا أول ، وخالقا أزليا لهذا العالم ، وأن يلقِّن هذه الحقيقة لأبناء نوعه ، أى إنكارهم للنبوة والأديان — لدعوى فضولية غير منطقية .

يجوز لعبدة الأصنام أن يُمثِّلوا آلهتهم أشداء غدارين ، وأن يتمثلوا آثارَهم فى أخلاقهم وأفعالهم ، فتلك أمورٌ هم أدرى بها . ولكن مما لا شك فيه أن معبود الأديان المنزلة قد وصِف بالعدل والرحمة ، و بإرشاد عباده إلى محاسن الأخلاق . فالأوامر العشرة متضمنة مسائل أخلاقية . والرذائل الخلقية والقسوة والمبادئ الباطلة التى حلَّت ببنى إسرائيل بعد ضياع التوراة الثابت تاريخا — لا يندر أمثاله فى كل أمة — لا يجوز إسناده إلى دين التوراة الحقيقى . ومواعظ عيسى وما تحتوى الأناجيل الموجودة بأيدينا ، لا تفتأ توصى بتهذيب الخلق . و كتاب الإسلام المقدس يأمر بالتوحيد وحسن الخلق مع التبشير والإنذار . يعرِّف المعروف والمنكر و يبشر

بأن رحمة الله واسعة ، وأن الله يغفر الذنوب جميعا ، وأن حقوق الغير يجب إحقاقها حتما ، أى أنه يأمر مشددا باجتناب التعدى على حقوق الناس ، وأن العبادة والذكر يُلقيان الاطمئنان والرقة فى القلوب . وليس من شك فى أن حاجة الناس الباحثين بفطرتهم عن معايشهم ومنافعهم فى مضرة غيرهم ، شديدة لأمثال تلك التعاليم . و إنذار الأشرار بالعذاب ، ليس بقسوة ولا وحشية ، و إنما هى رحمة . وقد أبان الرسول بأحاديث كثيرة أنه بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ، وأن حسن الخلق من الإيمان . ويَثْبُت من هـذه التفصيلات توافر حسن الخلق فى الأديان المنزلة . والمظالم التى ارتكبتها محاكم التفتيش لم تكن من الدين ، و إنما هى من عصيان بعض الرهبان أو حكام ذلك الزمن ، الذين فسروا الأحكام الدينية تفسيرا سيئا ، أو أرادوا اتخاذ الدين آلة لتعصبهم ومنافعهم الشخصية ، فطبقوها ضد الدين الحق . ومن جملة تلك المظالم ، ظلم تيمورلنك و إسماعيل الصفوى . بيد أن السيئات المرتكبة بسوء تفسير القانون أو تطبيقه ، لا تقع على القانون ، بل على من ارتكبها .

وقضية تغير الأمور الخُلُقية على حسب الأقاليم والشعوب ، بل على حسب الأشخاص ، ليست صالحة للدفاع . لأن ما يظهر من التغيرات ليس فى الأسس الأخلاقية ، و إنما هو فى فهمها وتطبيقها ، وفى المتفرعات والعادات القومية . فلب الأخلاق الدينية وأساسها ثابت لا يتغير . وهـذه الأسس تتلخص فى الشريعة الإسلامية بدستور « تعظيم أوامر الله ، والشفقة على خلقه » . ويمكن أن تشمل هذه الجملة ، موافقة للأوامر القرآنية والأحاديث النبوية ، على الأسس الآتية :

رعاية حقوق الغير ، المرحمة والكرم ، الحياء والعفة ، والوفاء والجود ، من السجايا العالية . والأديان والأمم متفقة فى تبجيل هذه الخصال . حتى إنه لا يُعيِّر أضعف فرد لقوم من الأقوام بخلوه منها إلا يَعُدُّ هذا إهانة له ، و يقوم بالدفاع عن نفسه . أما ما يقال عن الإسپارطيين القدامى بأنهم كانوا يبيحون اللصوصية ، وأن الشعوب المتوحشة يقتلون شيوخهم ويأكلونهم ! فإنا لا نعد لا قدماء إسپارطة ولا متوحشى أوستراليا

متدينين ، حتى تحمل الدين سيئاتهم ! ثم إن هذه الانحرافات نشأت من سوء تفسير المبادئ التى ذكرت آنفا ، وليست من إنكارها .

وزعمُ تبدل الإيمان على حسب الشعوب والأفراد ، موضع مناقشة أيضا . فمن المسلَّم به أن نظرة رجل مشتغل بالعلم والفلسفة فى بيئات متحضرة إلى الدين ، وشعوره به ، يكون أوسع وأسمى من نظرة الدهماء إليه . ولكن الأسس الاعتقادية واحدة فى جميع الأديان ، (برغم بعض الاختلافات فى الفروع) ، وهى الإيمان بالله و بعالم الغيب ، والوحى ، واليوم الآخر ، وعبادة الله والشكر له ، وتطهير القلب وتصفيته ، وخدمة الإنسان لأبناء نوعه ، و إحسانه إليهم . و إذا انحرف بعض الجهال عن طريق السداد ، وسب رجل من بيمونتى مريم خصمه ، فلن يصيب الدين نقص من كل هذا ، و إنما الإثم على من أهمل تعليمه وتلقينه .

وليس يندر من يعترض على هذا بقوله : « ما دامت الأديان المنزلة لم تتولد من أساطير الأولين ، والحقيقة الدينية واحدة لا تتغير ، والبعث والوحى حق ، فما السبب لترك البشر عصورا طويلة فى جهالة بلا إلهام ؟ ولكنّ القرآن أنبأنا بأن الرسُل قد بُعثوا إلى البشر مذ أن ظهر ، وأن أحكام الدين المنزل على خاتم الأنبياء ، لا تختلف عما أُنزِل على نوح من الوصايا . غير أن القوى الطبيعية وأحداثها ليست بدافعة على التطور والرقى دائما ، فمن الجائز أن تستلزم الانحطاط والفساد . فثمة حكمة إلهية مدبِّرة لموجات التطور والفساد ، والرقى والانحطاط ، على صورة يستقر بها ملك الخليقة ، وتوفى جميع المخلوقات آجالها المكتوبة ، فيتم التطور المطلوب ، أثرا لهذا الرقى والانحطاط .

ويمكن أن يتخذ لهذه الحالة مثال من التأثيرات المفيدة والضارة التى تحدثها اضطرابات أجرام مجموعة الشمس فى سيرها ، وحدوث تطور المجموعة ودوامها بهذه الاضطرابات .

إن البشرية قديمة جدا . لقد وجدت آثار دالة على أن الناس الذين عاشوا

قبل التاريخ كانوا متدينين . ولا يلزم مسايرة تموجات الدين للمدنية كذلك . لأنه من الجائز أن تكون الأزمنة التاريخية التى بلغها علمنا عهد انحطاط العقائد . وجائز أن يكون أجداد الأمم التى نعلم تاريخها إلى زمن ما ، أصحاب عقائد صحيحة ، وضل أحْفادهم لطول الدهر ، كما ورد فى القرآن ، ثم يرجعون إلى طريق الحق والهداية ، بإرشاد الأنبياء والرسل (انظر التعليق رقم ٦٢) .

وا أسفاه ؛ إن أنصاف المتعلمين عندنا يقبلون بلا تحقيق ولا جدال ، الملاحظات الظاهرة البطلان ، والأمثلة الخاطئة — ولاسيما إذا كانت تُعْزَى إلى عالم معروف — فتدور فى الأفواه ، وتفسد أذهان الشباب وتسممها . لقد سمعت ماذكرت من النظريات الجاحدة من كثير من المتفلسفين الجاهلين مصادرها ، قبل أن أقرأها فى كتب . من يلقِّنهم هذه الآراء ! ؟ أما رد ذوى الرأى على هذه الدعايات ودفاعهم عنها ، فينحصر إما فى عنف المتعصب ، وإما فى سكوت العاجز الخائف . ومن هذين يتشعب الكفر فى البلاد .

ألخص الآن رأيي الشخصى ، الموافق للإرشادات الدينية فى نشوء الأديان :

لما كان البشر مضطرين للحصول على حاجاتهم وملاذهم من موطن واحد عام ، أى من الأرض ، فمن الطبيعى حدوث التزاحم والمحاسدة والقتال بين الأفراد والجماعات . وتسبب هذه الحال ميلَ الناس إلى الظلم والمكر ، اللذين ينشأ منهما مختلف السيئات . ولما كانت تلك السيئات المتسعة المتزايدة فى نسب هندسية بتأثير دافع طبيعى ، وجائز أن تخل بنظام العالم وتبيد النوع ، فقد أنزلت أديان وبعث حينا بعد حين رجال خارقون للعادة ، لقَّنوا بنى البشر أن هناك دارعقبى بعد هذه الدنيا التى عجزوا عن تقسيمها ، ونعما خفية لاتحصى بعد الملاذ الدنيوية التى لم يستكفوها ، ومحكمة عليا للفصل بين الظالم والمظلوم ، وإلها قادرا فياضا مطلقا ، بدل أسيادهم الذين اتبعوهم فى الدنيا . وبهذه الصورة تتم الموازنة ويُكْفل نظام العالم .

إن تحول الأشياء والأحداث عن سيرها المعتاد ، ليس حالة لم تشاهد فى هذه الدنيا ،

فلذا لا يمكن إنكار فرضيتنا هذه علميا . ونظرا إلى هذه الفرضية تقاتلت الجِبلة البشرية مع التعاليم الدينية . وفى خلال تلك المقاتلة تنتصر فطرة الإنسان البهيمية حينا بعد حين ، فتسقط الأحكام الدينية عن الاعتبار ، أو يحرّفها ذوو المصالح على حسب هواهم . فظهور الطاغوت والأصنام هو مظهر الشق الثانى . وعند ذلك تتدخل الأمور الغيبيه لرفع تلك الشرور والبدع والسيئات المتزايدة وإزالتها ، أى يتعاقب الرسل . ويجوز أن يقال : هل النبوة منحصرة فى الجنس السامى ؟ كلا ، لم تقم الأديان بمثل هذه الدَّعْوى قَطّ ، وإنما يرد ذكر الأسماء الساميّة فى كتبنا لكون الأديان السائدة اليوم من أصل سامى . أو ليس « بوذا » و« قونفوسيوس » من المعتَقدين فى الشرق الأقصى ؟ وليس بأيدينا سبب نتمسك به لإثبات ما أسند إلى اسميهما من الخرافات على تعاليمهما الأصلية . وبالعكس من ذلك هناك أدلة كثيرة تدل على تبجيل العظماء التاريخيين بعد موتهم إلى درجة التقديس ، وتبديل وصاياهم ونظرياتهم .

وموجز الكلام : ليس فى ظهور الأنبياء فى السويد أو فى بلاد اليونان أو حتى فى أمريكا القديمة ، وتلقينهم الدين للناس ما ينافى عقيدتنا مطلقا : « رسلا قد قصصناهم عليك من قبلُ ورسلا لم نقصصهم عليك — سورة النساء » ولا جرم أنا إذا فكرنا جيدا ، اتضح وجود نقطة مشاركة بين الأديان كلها . وهو أمر خليق بالبحث . ولو أن الذين استيقنوا وجدانا بأنهم مبعوثون من عند الله ، ولقنوا الناس مبادئهم على هذا الاعتبار ، فصدقتهم الناس بصفتهم أنبياء ؛ إلا أنه ليس مما ينافى العقائد الإسلامية أن يقوم رجال ذوو فطرة عالية بتنفيذ المراد الإلهى دون قيامهم بدعوة الرسالة . ويجوز مثلا عد المجددين الذين أنبا الرسول بظهورهم على رأس كل مئة عام من أولئك الأشخاص .

(٩٥) ص ١٨٣ : أورد كميل فلاماريون فى ص ١٧١ من كتابه « الله فى الطبيعة » قياسا منطقيا غريبا لهيكل من فلاسفة الألمان (توفى سنة ١٨٣١) ،

وهو : « المادة غير الروح ، والروح غير المادة ، وكلاهما غير ، فكلاهما واحد » .
ما أظن أن مثل هذا القياس الذى يصنع باسم المنطق يستطيع إيصال البشر إلى الحقيقة .

(٩٦) ص ١٨٤ : أظن أن ملاحظتى هذه ستكون موضع اعتراضات كثيرة . فلذا أجتهد فى إثبات دعواى بأن أقص مختصرا بعض ما حدث لى من الحوادث فى خلال حياتى فى الوظيفة : من المعلوم أنه منذ إعادة الجبال اليمانية إلى إدارة الدولة العثمانية للمرة الثانية عام ١٢٨٧ الهجرى ، صارت المعيشة فى هذه القطعة الميمونة معيشة جهنمية ، من جراء المخاصمات والمصادمات الكبيرة والصغيرة المتوالية ، بلا انقطاع تقريبا . وقد سافرت إلى اليمن قائدا لأركان حربية الجيش العثمانى ، المرسل لقمع الثورة الكبيرة التى شبت سنة ١٣٢٠ هـ ، بقلب مسموم ، وبالعداوة والبغض وسوء الظن نحو الزيديين مشحون ، وفكر متأثر محزون من الأساطير المتغالية ، التى نقلها بعض الضباط والجنود و بعض الموظفين المدنيين ، ممن عادوا منها إلى الوطن ، متأثرين معنًى بما لقوا فيها من المشاق ، و بمن فقدوا فيها من رفقائهم ، وأبناء جِلْدتهم . ولكن ثبت لى فى نهاية تحقيقاتى المنصفة ، فى خلال خدمتى التى دامت ثلاث سنوات ونصف سنة ، ثبوتا يقينيا ، أن تلك الفضائح والمساوئ تولدت من سوء تصرف الوُلاة والموظفين الظالمين المُرْتَشِين ، أكثر مما هى من اختلاف المذاهب . ووجدتُ الحكومة العثمانية المركزية الذاهلة ، والمهمِلة فى اختيار الموظفين ومراقبتهم وتفتيشهم ، أكثرَ خطأً ومسئولية من الإدارة الإمامية اليمنية ، التى توسَّلتْ باستغاثة الأهالى المظلومين ، لبلوغ تقاليدها المذهبية ، وأمانيها القومية . وقد وقفت فى نتيجة المباحثات والمناقشات التى حدثت بينى و بين بعض العظماء والعلماء المحليين فى اجتماعات خاصة ، على أن الزَّيْدية الحقيقية ليست بها حالة مغايرة للمبادئ الإسلامية — بالرغم من الشتائم والمفتريات المتقابلة — فما صرْت صاحب رأى فى أمور الدولة المهمة ، بكونى رئيس أركان الحربية العامة

بعد إعلان الدستور ، حتى اقترحت الاتفاق مع الإمام فى أول فرصة سانحة . ولما كُلِّفت قمع الثورة العامة التى قامت فى أواخر سنة ١٣٢٦ هـ من جراء عدم تصويب رأيى ، بادرت إلى تنفيذ ما أرى فى مسألة الاتفاق مع الإمام ، بمجرد استرداد الأقسام المنتقلة إلى يد العساكر الإمامية من الولاية . ولكن ظهرت أمام فكرتى هذه مقاومة عنيفة سرية مشوبة بالنفاق ، أثارها بعض المنتفعين بالنفاق والشقاق ، من معتادى الُجرم من زمن قديم ، و بتدخل مراكز جمعية الاتحاد والترقى بصنعاء والحُديدَّة تدخلا شديدا ، فكان المخالفون يسعون لاستغفال الباب العالى والمركز العام لجمعية الاتحاد والترقى بسلانيك من جهة ، و إخراج بعض الأمراء العسكريين المشهورين باليمن من سلك الطاعة من جهة أخرى ، فيطبعون فى مطبعة الدولة رسائل فى معنى « ليس إصلاح اليمن فى الاتفاق والاستمالة ، و إنما هو فى القضاء على الفقهاء والسادات » ، ثم يوزعونها سرا على الضباط الذين أتيت بهم من الوطن الأصلى لإنقاذ أولئك المخالفين من الحصار . وفى خلال ذلك كان ختم الجمعية المركزية للاتحاد والترقى بصنعاء أمانة بيد أحد العلماء السنيين ، فتجرأ مفتى ألاى قد اشتهر هناك بالعلم والفضل ، واتسع نفوذه فى تَعِزّ ، حتى أقام الشوافع علىّ . ولكن ما إن استدعيت بعض السادات وعلماء الزيدية ، وأبديت لهم رأيى فى هذا الباب ، حتى قبلوه بلا تردد ، على الرحب والسعة . غير أن مَجْرَى الأمور لم يسمح بوقت كاف لاقتطاف الثمرات الإدارية والسياسية لهذا الاتفاق الذى أبرمته ، بما ذكرت من المشكلات . ومما لا شك فيه أنه لولا مشروع هذا الاتفاق ، لكان نصيب كل من باليمن باسم الترك إما السيف و إما ربقة الأسر ، أيام الحرب الإيطالية . فليكن الشأن السياسى ما يكون ، فقد ترتبت على ذلك الاتفاق فائدة دينية خالدة ، وذلك أن الإمام يحيى أصدر فى الأسبوع الأول من إمضائه ، فتوى بأن سب الشيخين كفر ، وأن كل من يتجرأ عليه يجب قتله — كان سب الشيخين أمرا معتادا لدوام الخصام من أربعين سنة .

هكذا استطاع مشروع جندى بسيط حر التفكير محب للخير ، رفع أكبر سبب من أسباب الاختلاف المذهبى وإزالته ، برغم مقاومة علمائنا .

أذكر مثالا آخر فى هذا الشأن . وهو أنه لما سحبت الحلفاء جيوشها من مضيق البحر الأبيض فى الحرب الكبرى ، عينتُ لقيادة الجيش الثانى ، المقرر إرساله لمحاربة الروس ، الذين استولوا على أرضروم ، وظهر استعدادهم للاستيلاء على الأناضول ، على أن يُعهد إلىّ فى قيادة الجبهة كلها عند ما يتم حَشْد هذا الجيش ، بجوار ديار بكر . فبينما كانت الكتائب الأولى من هذا الجيش الذى يحتاج تجمعه لأكثر من شهرين ، تقترب من تلك الجهات ، قامت ثورة فى « درسيم » . ولما كنت لا أزال بإستانبول مع القسم الأعظم للجيش ، لم يكن لى حق الأمر والقيادة ، ومع ذلك طلبتْ وزاره الحربية رأيى فى خصوص قمعها ، فنصحت مرتين باختيار جهة الاستمالة ، والتجنب لاتخاذ التدابير الشديدة . ولكن قائد الجيش الثالث ألح ، فشُرعت فى الأعمال التنكيلية بالفرقة الثالثة عشرة ، وهى أول ما وصل من فرق الجيش الثانى ؛ فاعتصم كل من يقدر على حمل السلاح من أهالى درسيم الشرقية المصابة بالهجوم بالجبال ، وشرع يدافع عن نفسه . سارع جيشنا إلى ضبط المدن ، وإجلاء النساء والأطفال والضعفاء منها ، ووصلتُ فى أثناء ذلك إلى ديار بكر ، واجتمعت مع أنور باشا القادم من تفتيش الجيش الثالث . فلما سألنى رأيى عن الفرقة الثالثة عشرة المذكورة : هل يجب أن تكون تابعة للجيش الثانى أو للجيش الثالث ؟ استصوبت بقاءها تابعة للجيش الثالث ، على أساس أن تكمِّل ما شرعت فيه من أمر القمع . فما كاد يحصل وهيب باشا على هذا الإذن منى حتى أخلى « درسيم » ، التى حوّلها بؤرة الأشقياء ، وضم الفرقة إلى جيشه وشرع فى الهجوم ، طامعا فى الانفراد بفخر الفتح ، قبل انتقال القيادة العامة إلىّ بتمام اجتماع الجيش الثانى . بيد أنه لم يمض غير أيام قليلة حتى اضطر إلى الرجعة مهزوما مقهورا . وقد أوقعه أهالى درسيم فى مشاكل لا تحصى ، بهجماتهم المتكررة على جنبات

جيشه ، وقبلوا موظفين كثيرين من الروس . وفى خلال ذلك كان بعض المنتمين لحزب الإئتلاف والحرية مشغولين بالتوسط بين الروس وأهالى درسيم ، فى أمر الصداقة وتوزيع هدايا الروس على الرؤساء . فكان موقف جبهتنا فى أشد الحرج . لقد انكسر جيشنا فى الشمال ، وشرع يتراجع نحو الغرب ، وجيشنا فى الجنوب لم يتجمّع بعد ، و بينهما منطقة درسيم مشتعلة بنار الانتقام ، من جراء ما اتخذ معها من الشدائد التى لم تهدأ بعد ! صرت أمام ضرورة ملحة للقيام بهجوم مضاد بالجيش الثانى ناقص التكوين ، لوَقف الروس عن تعقب الجيش الثالث . فما كان من الروس إلا أن سحبوا جيشهم من أمام الجيش الثالث المنهزم شر هزيمة ، وحولوا هجماتهم على الجيش الثانى . ولما كان الجيش الثانى معتمدا على جبال « كاربر » التى تسكنها عشيرة علَوية ، والتى يُتصور أن تكون مركزا لخطنا الدفاعى ، لزم إجلاء الإهالى عن أراضيهم مؤقتا . ولهذه المناسبة طلب رئيسهم وهو رجل فى التسعين من عمره يدعى « كوچوك آغا » الاجتماع معى ، ليعرض علىّ بعض رغبات خاصة بعشيرته . فاستقبلته باحترام ، وحبذت طلباته ، وأفهمته فى أثناء المحادثة أن قيام أهالى درسيم بهذا العصيان لدولتهم فى أثناء محنتها ، أمر لايتفق والحمية الدينية ؛ ثم استفهمت منه : هل هو مستعد للتوسط بينى و بينهم ، لإرجاعهم إلى الحق ، فأجاب بالموافقة . وأرسلت أيضا أحمد بك يوزباشى أركان الحرب لاستكشاف بعض المواقع هناك ، مع محمد بك خاتون أوغلى (ابن أخى إسماعيل باشا القورد — ذئب) وهو أميرالاى بالمعاش ، ومن أسرة محترمة هناك ؛ فانضم الدرسيميون إلينا ، بسعى أولئك الثلاثة ، وطردوا من كان معهم من الروس والمخالفين والخوَنة ، بل قاموا بهجمات على الروس .

يجوز أن يكون لإعادتى النساء والصبيان والشيوخ الذين أجلوا عن درسيم فى بداية الحركة ، تأثير كبير فى اجتذاب القلوب ، ولكن دعوتى التى وجهتها إليهم وقت الضرورة ، كانت باسم الدين ، وكان المسارعان إلى الاستجابة بلا عوض

مادىّ شخصين ، يدعى أحدهما السيد حسين ، والآخر السيد رضا ، جامعين رياسة المذهب والقبيلة ، ومعهما مصطفى بك بن شاه إسماعيل بك ؛ وقد وقع السيد حسين شهيدا فى إحدى هجماته على الروس . ومهما قيل فيهم فإنى أجد نفسى مدينا بالترحم عليهم من صميم قلبى . فإن انضمام درسيم إلينا فى ذلك الوقت الحرج ، أنقذ كلا الجيشين من الهزيمة المحتومة ، وأنقذ الأناضول من استيلاء الروس عليها . و إسراع شجعان درسيم إلى إنقاذ ألوف الأسر الإسلامية من القتل العام ، عندما انقض عليهم الأرمن بهجماتهم الوحشية ، فى أثناء انسحاب الجيش الروسى ، عندما ظهرت الشيوعية فى روسيا ، يمكن أن يذكر ضمن حسنات ذلك الائتلاف . كان سكان درسيم أيضا من غلاة الشيعة ، ومن قسمها الجاهل . ولكننا لما تحدثنا معهم عن الجهة الإسلامية الجامعة ، اتفقوا معنا . فلو سنحت الظروف وتأسست إدارة سليمة بدرسيم بعد انتهاء الحرب الكبرى ، وأرشدهم رؤساؤهم ، لأمكن جلبهم إلى طريق الحق ، وتحويلهم عنصرا نافعا للدولة .

(٩٧) ص ١٨٥ : إقفال باب الاجتهاد كلمة تدور فى الأفواه فى المذاهب السنية ، وعدم ظهور مجتهد منذ عهد الأئمة الأربعة مؤيِّد لهذه الرواية . والعجم لا يزالون يلقبون علماءهم الكبار بالمجتهدين . والزيديون يشترطون الاجتهاد فى اختيار أئمتهم ؛ فقد أنبأنى بعض علمائنا الأفاضل ذوى الآراء الصائبة ، الذين رجعت إليهم فى هذا الشأن ، بأن باب الاجتهاد أقفل من تلقاء نفسه ، لعدم ظهور من يكتمل فيه شروط الاجتهاد . و إذا ظهر هذا الرجل ، فباب الاجتهاد مفتوح أمامه على مصراعيه ! ولكن على أىّ أمر يُحمل عدم ظهور مجتهد عند المسلمين فى ألف عام ؟ وعند الشيعة الاجتهاد والمجتهدون ! لقد ورد فى صفحة ٣٤٩ من كتاب « تلفيق المذاهب » ، الذى ألّفه الشيخ محمد رشيد رضا الحسينى من علماء مصر ، وترجمه الشيخ أحمد حمدى الأقْسكى من أفاضل علمائنا ، أن باب الاجتهاد أقفل سياسيا ، وبهذا صدق ما ذهبت إليه فى هذا الباب .

(٩٨) ١٨٨ ص : سمعت أخيرا أن الإمام قال إنه لم يُقتَل بأمر منه ، وإنما قتل بخيانة بعض الغلاة . وهذه الرواية مؤيَّدة بورع الإمام وأصالته .

(٩٩) ص ١٩٢ كانت القوات التى استخدمتها الدولة العثمانية فى محاربة الشيعة ، الجيش الإنكشارى وفرق اللوَنْد (Levantino) التى يقودها أمراء الأناضول والروميلى . وكانت هيئات قيادة هذه القوات على الأقل — إن لم يكن كل أفرادها — من البكتاشيين .

وهذا دليل على أن البكتاشية لم تكن فى ذلك العصر خارجة عن السنية . وإن ظهرت آثار التمرد فى جيش السلطان سليم الأول حين حروبه مع الايرانيين، فإن المحرضين لها كانوا قضاة عسكر الدولة ، وندماء السلطان ! .

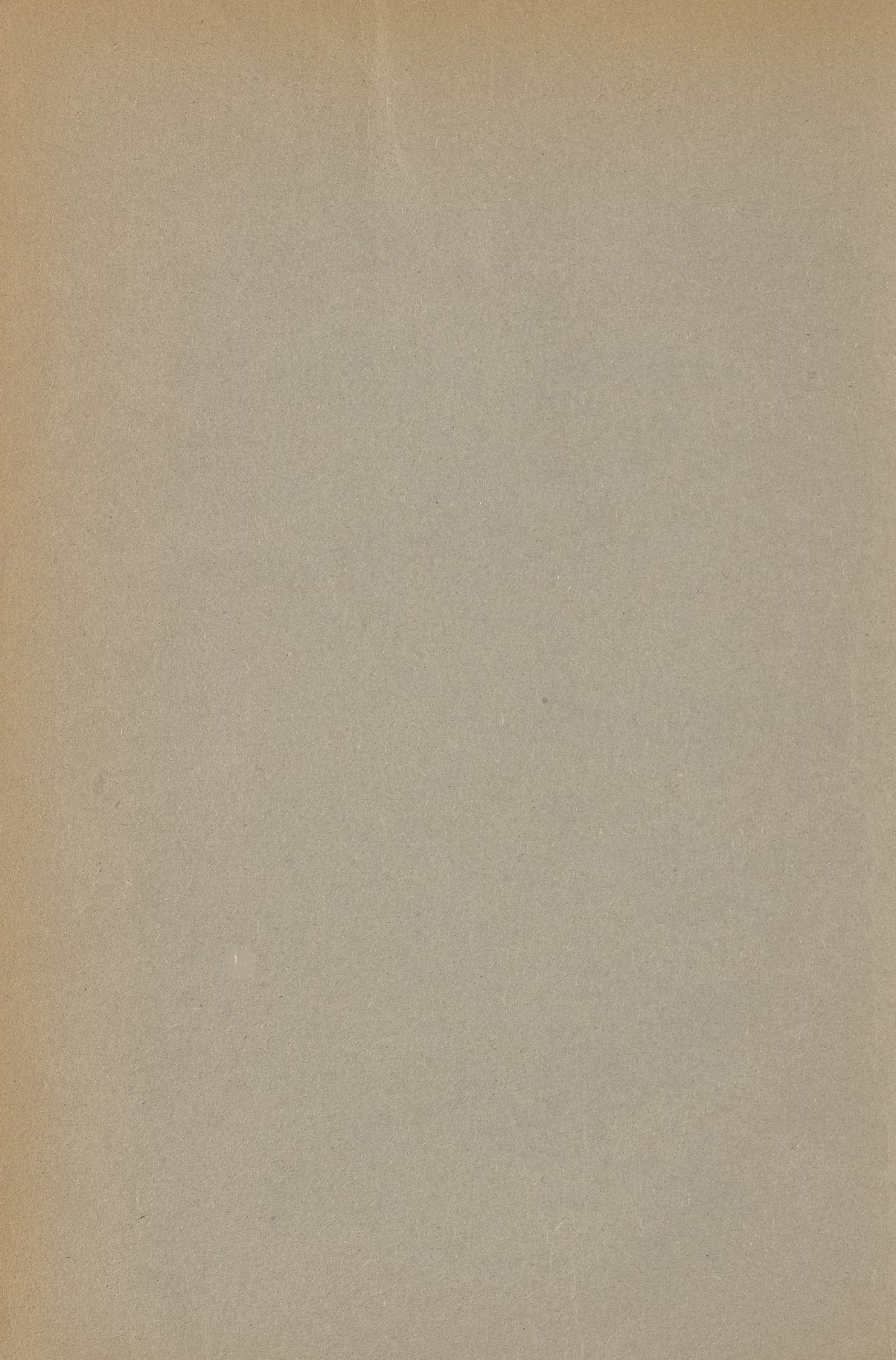
فهرس الكتاب

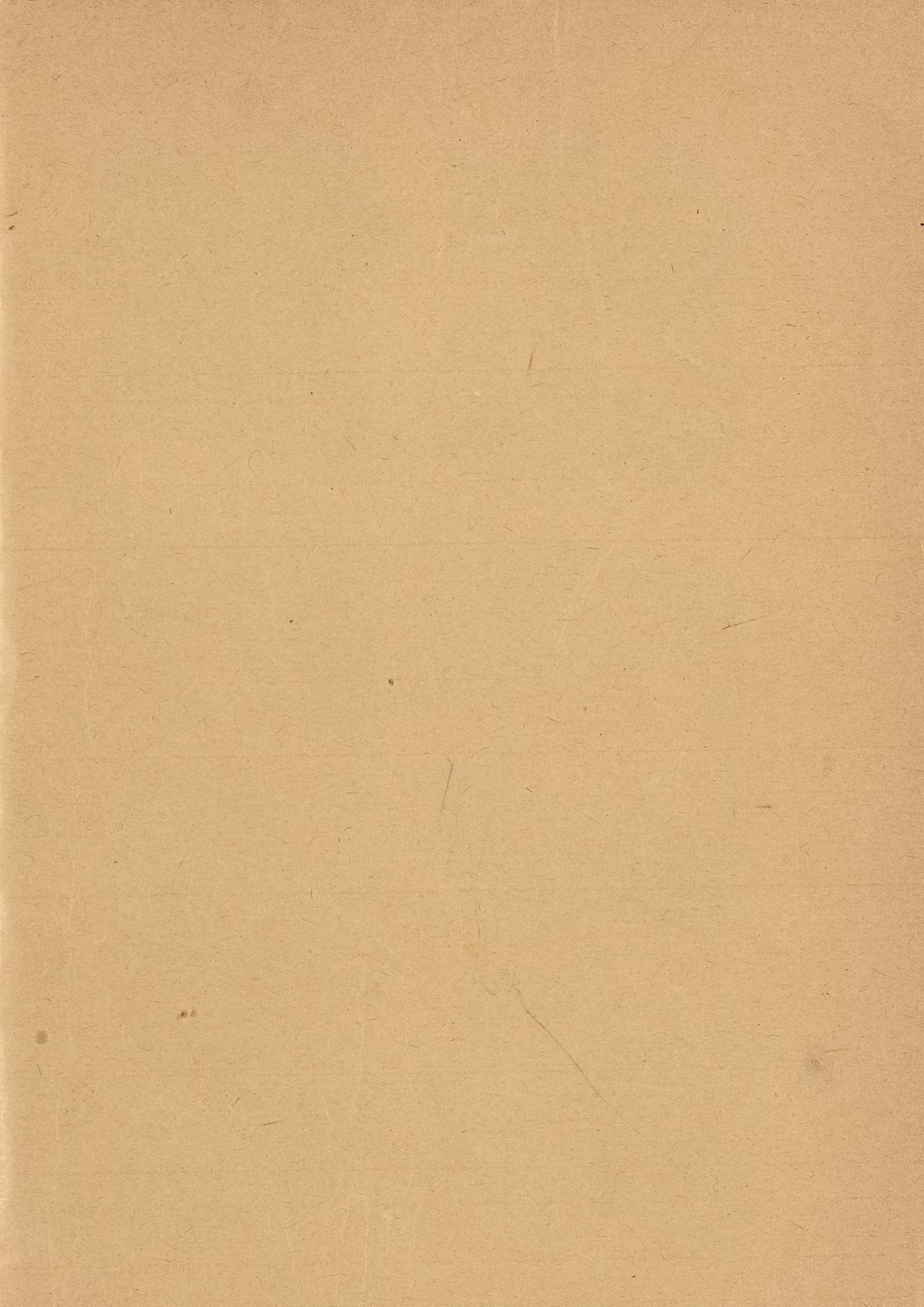


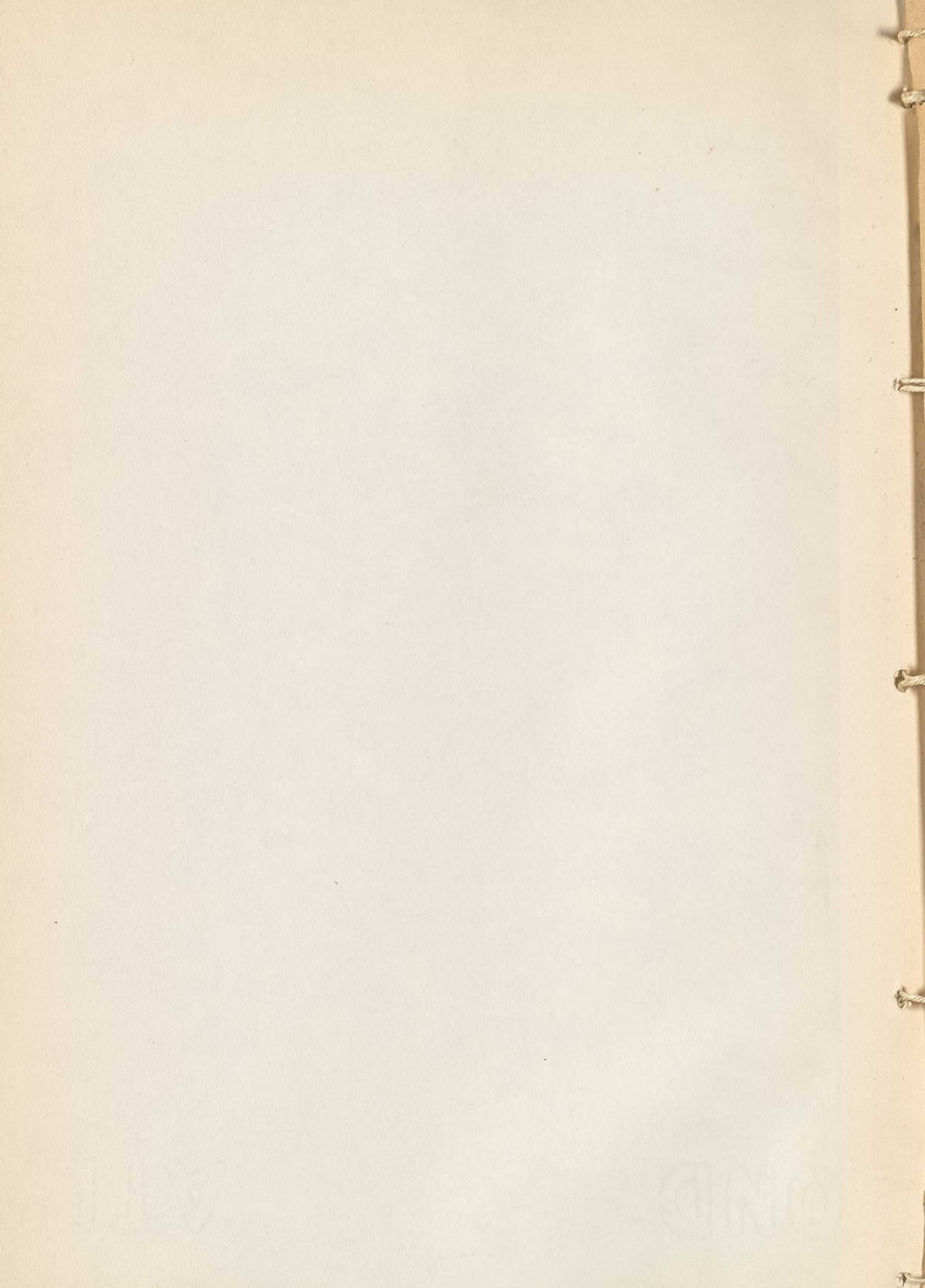
خطأ وصواب

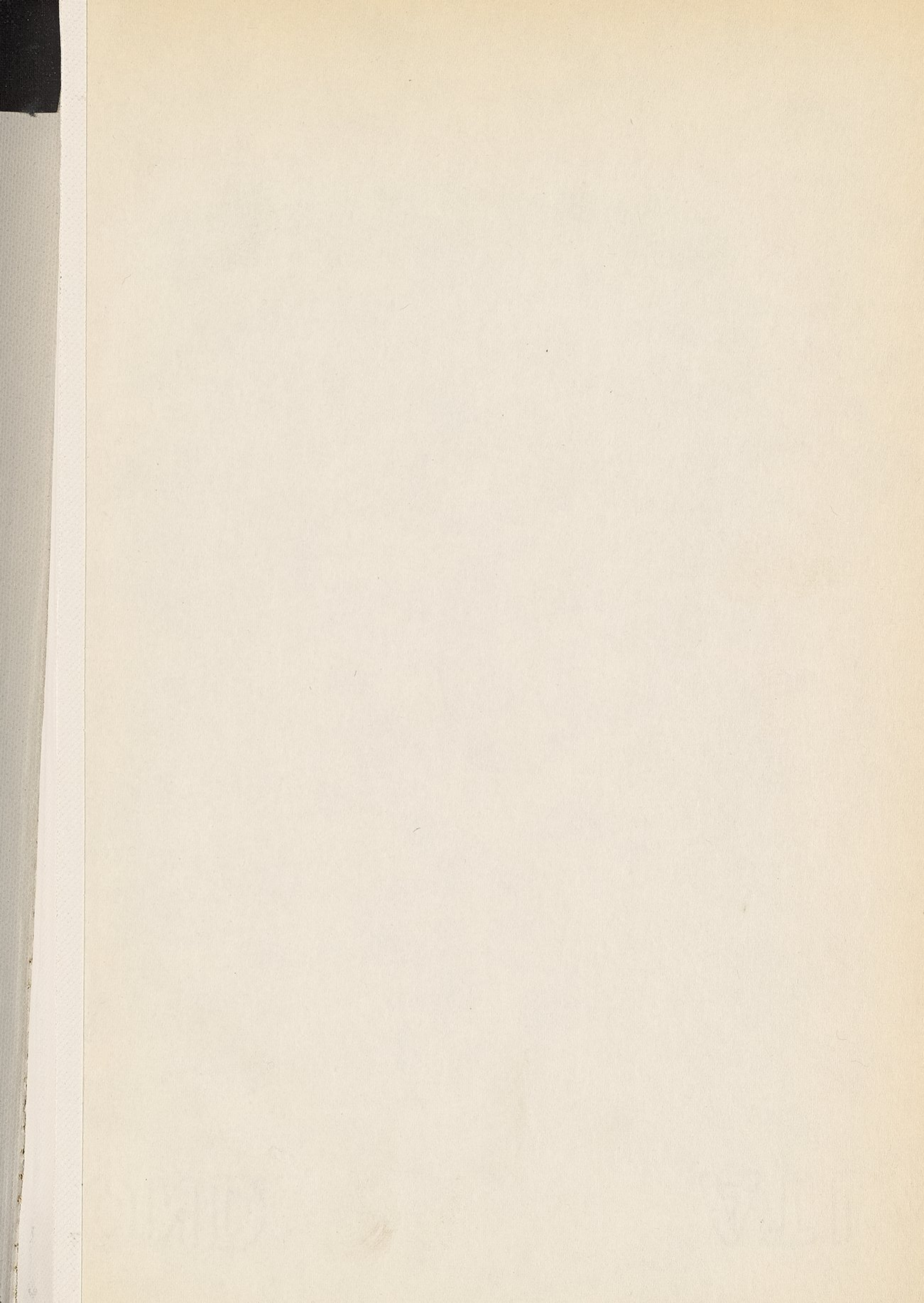
بالرغم مما بذلنا من الجَهْد لإخراج هذا الكتاب مصححاً وقع بعض أغلاط مطبعية ، رأينا إثباته هنا ليرجع إليه من يريد تصحيحه من القراء .

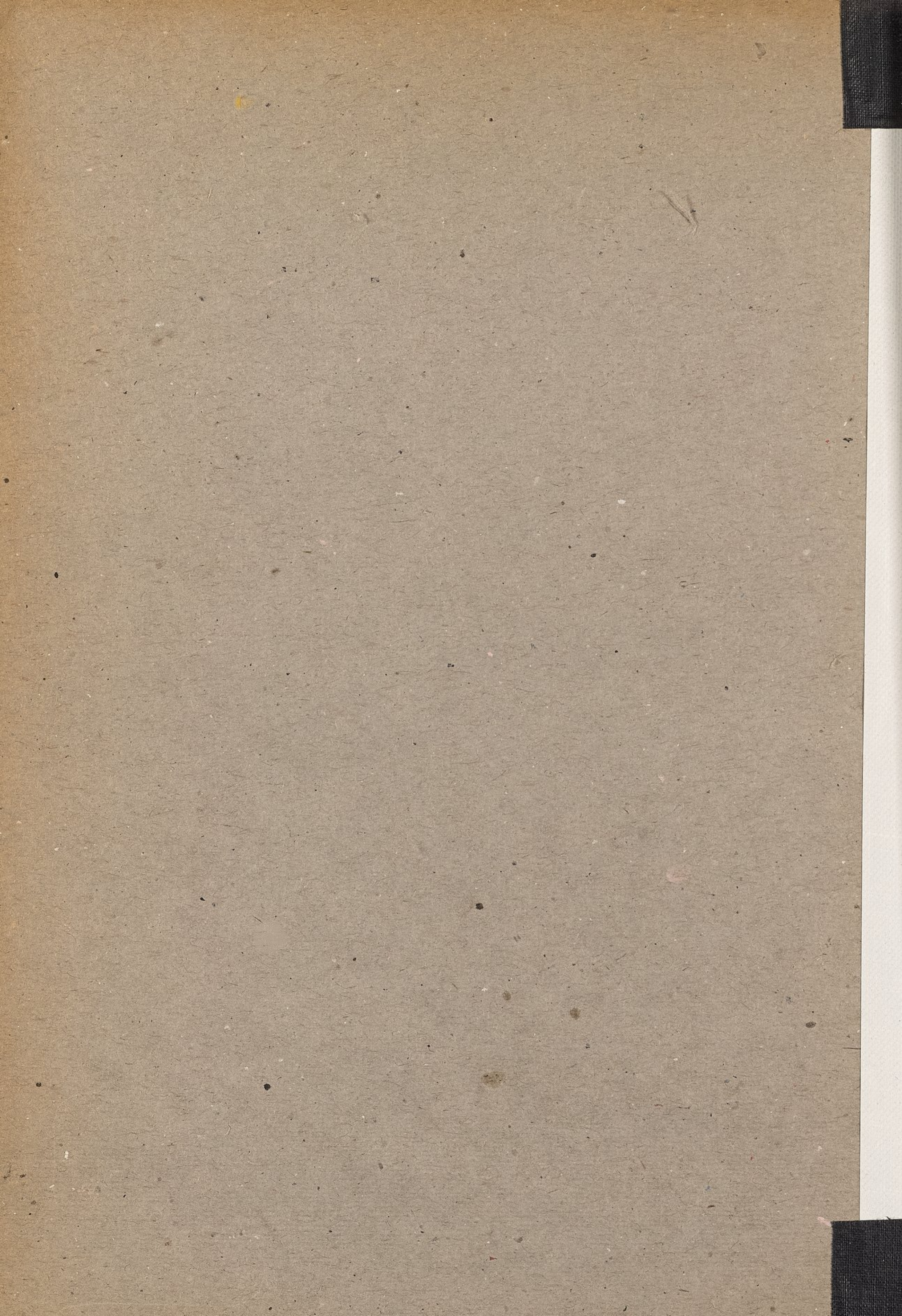
صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣	١٩	تستند على	تستند إلى
١٥	٩	زونكريس	زويكسيس Zoexis
١٧	٦	المشهورات	المشهودات
١٧	١٠	أن تنتهى	أن تنتهى
٢٤	٦	وبين هذه الكواكب	وبين الكواكب
٣٩	١٣	Praursais	Praussais
٤٣	١٠	($١٠^{٢١٠}$)	($١٠^{٢١}$)
٤٤	٤	٢٠	٢٠°
٥٥	١٥	الثقلة	الثقل
٧١	١٧	بتنقل	ينتقل
٨٠	٣	عتد	عند
٨١	١	انتصارَه	انتصارُه
١١٠	١٠	الجرائية	الجزائية
١١١	٤	أحتار	أختار
١١٣	٢١	*	* مكان النجمة سطر ٣ فى صفحة ١١٤
١٢٧	١٤	يرون أن فى ظهور العوالم	لا يرون أن فى ظهور العوالم
١٦٤	٦	Ueber. mensch	Ueber mensch
١٧٤	١٣	لتتعلم	ليتعلم
١٧٨	١٣	ديفيين	ديِّنين
١٨٥	٢	امَّ المصائب	أمِّ المصائب
١٩٠	٤	المشَّر	المبَشَّرة
١٩٣	٢٣	أتى لله	أتى الله
١٩٤	٢	أسبات	أسباب
٢٠١	٢	الفرضياب	الفرضيات
٢٠٣	١٣	الجيلاتين	الجيلاتين
٢١٢	١٣	ص ٦٢	ص ٦٣












Princeton University Library
32101 084731254